

معروف الرصافي

دراسة أدبية لشاعر العراق

وبيئة السياسة والاجتماع

تأليف

بدوي المحرطبان

مدرس اللغة العربية وآدابها في دار المعلمين العالية
بغداد

جميع الحقوق محفوظة المؤلف

١٣٦٦ - ١٩٤٧

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

طبع من هذا العدد ٢٠٠٠ نسخة

مطبعة السعادة بجوار محافظة مرس

تصدير الكتاب

بقلم

حضرة صاحب المعالي السيد محمد رضا البهي
وزير المعارف السابق

تعد المرحلة التي اجتازها هذا الشرق القريب خلال الخمسين سنة الماضية من أحفل مراحل حياة الشرق بما جرياتها وكوائنها وأحداثها الجسام، ويحسب عصرنا المذكور من عصور الانتقال، تحولات فيه البلاد من حال إلى حال وتطورت مظاهر الحياة فيها على اختلافها من حسية ومعنوية، وفي هذه المرحلة دالت دول، ونشأت على أنقاضها دول أخرى، وزالت نظم قديمة، مألوفة في الحكم والثقافة، ووجدت نظم حديثه في هذا الشأن.

ومجمل القول لهذه الفترة ميزاتها، وحسبنا منها أنها فترة نشبت فيها حروب عامة، لم يشهد لها هذا السكون مثيلاً، وميزة أخرى خطيرة لهذه المرحلة التاريخية، هي هذا الوعي القومي، وتلك اليقظة الشعبية العامة، إذ رأينا هذه الشعوب العربية بل الشرقية، تعج بالشكوى، وتضج من الفساد والفوضى، تجسم لها الداء، وعرفت الدواء، فهي تلحف مطالبة بالإصلاح ونشدان العدل، وتتذمر بما أصابها من تأخر وضعف، وتود لو أنها جارت الأمم الناهضة في أخذها بأسباب التقدم والفلاح.

وقد أصبح هذا الوعي عاما ، والشعور الحى ساريا فى جميع الطبقات ، خصوصا فى بعض هذه الأقطار ، وكان النابهون من شعراء هذه الفترة الطويلة وأدبائها أكثر تلك الطبقات وعيا ، وأعماقها شعورا بما تعانيه تلك الشعوب من آلام ، أو ما يعتلج فى صدور أبناءها من آمال ، فكان التجاوب تاما ظاهرا للعيان بين هذه الطبقة النابهة من الشعراء والأدباء ، وبين تلك الشعوب الشاكية المتألمة ، بل هو كالتجاوب بين الصدى والمحرك من الأصوات ، ولم يدخر أولئك الشعراء وسعا فى الإفصاح والبيان عما يجيش فى أعماق النفوس ، وقرارات القلوب ، وقد تسنى للقوم أن يصوغوا من تلك العواطف الثائرة كلاما حيا يغذى الأرواح ويشيع فيها القوة والنشاط ويبعث الأمل والرجاء .

ومن البديهي والحالة هذه أن يكون أولئك الشعراء والأدباء من طبقة المجددين المبدعين ، ومن المسلم به كذلك أن تهمل مقاييس القدماء ، وموازين المقلدين الذين يوازنون فيها بين الجيد والردىء من القول أو الغث والسمين . من الكلام ، وما كانت تلك الموازين والمقاييس القديمة البالية ، إلا هذه الصناعات اللفظية ، والمحسنات البديعية ، هذا من جهة الألفاظ . وإلا هذا الشعور المصطنع والعاطفة الكاذبة : غلوا فى المدح ، وإقذاعا فى الهجو ، وهذا من جهة المعنى ، إلى غير ذلك . لهذا أنف المجددون من شعراء الفترة المذكورة وترفعوا عن المحاكاة والتقليد ، فجاء شعرهم شعورا صحيحا بعظمة الماضى ، وتصويرا واضحا لهوان الحاضر ، ودعوة للخلف إلى ترسم خطا السلف الصالح ، وقد سجلوا فى قصائدهم كوائن الفترة ، وأحداثها الجسام ، على اختلاف أشكالها من سياسية واجتماعية ، وغير ذلك . ومجمل القول بعد أن كان الأدب فى القرون الأخيرة ضربا من التصنع والمبالغات والأخيلة الباطلة أصبح فى الفترة المذكورة فناله رسالة سامية .

كثر عدد النابهين من هؤلاء الشعراء فى عصرنا المذكور ، وذلك فى جملة البلاد العربية ، فكان منهم فى مصر مثلا إسماعيل صبرى وأحمد شوقى وحافظ

إبراهيم كما كان منهم في الشام شبيب أرسلان ، وعبد الحميد الرافعي وغيرهما من أعلام الشعر والأدب في سوريا ولبنان ، أما في العراق فقد نبغ رهبط من الشعراء وفي مقدمتهم جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي الشاعران الأشهران في هذه البلاد .

وهذا الشاعر - أعني الرصافي - خليق بالدرس ، وتجريد كتاب خاص يتكفل بنقد شعره وأدبه والبحث في سيرته وحياته ، بل لا يستكثر تجريداً أكثر من كتاب واحد فيه . إذ هو في مقدمة أولئك الشعراء الماضين إحساساً بما عاناه الشرق والشعوب العربية المستظلة براية الهلال من آلام ، وما حاك في صدورهما من آمال ، وقد أجاد في التعبير والتصوير ناقلاً ما شهدته جيله من المآسي إلى الأجيال القادمة ، فقد ولد ونشأ وعاش في الفترة المذكورة ، ولا بأس ما جرياتهما وأحداثها ، أدرك ثورة شباب الترك على الطغاة من سلاطين بني عثمان ، بل كان له ضلع في دعوتهم إلى إذكاء تلك الثورة ، وقد اتصل بزمرة من القادة الذين حالفهم الظفر في قلب نظام الحكم البالي في بلاد الدولة .

تشبع الرصافي وهو نزيل القسطنطينية بروح تلك الثورة ، وانتحل مبادئها على علاقاتها ، ومال إلى مشارب قادتها المذكورين ، ولا غرو فإن الرصافي كان يومئذ في عنفوان شبابه وفتوته ، وللسن ما لهما من دخل وتأثير في هذا الشأن . ومن الخطأ ظن من يظن أن ثورة الأتراك المذكورة كانت مقصورة على قلب نظام الحكم فحسب ، بل هي ثورة عامة على سائر نظم البلاد ، غايتها قلب النظم الاجتماعية قبل نظم الحكم السياسية ، وقد حذا فريق من قادتها حذو أمثالهم في فرنسا وقلدوهم تقليداً تاماً ، ورموا إلى ما رموا إليه من أهداف في الثورة الفرنسية الكبرى ، فما كان غريباً جريئاً من آراء الرصافي ومثله الزهاوي — ولا شك أن للشاعرين آراءهما الغربية أو الجريئة — فإن مرده على الأكثر إلى تأثرهما ببعض الغلاة المتأثرين بفلسفة الثورة الفرنسية ، وكان هذا الفريق

من الغلاة يبيتون ما يبيتونه الإسلام ، ويتأمررون على نظم الحياة الروحية ، والثقافة الإسلامية ، وفيهم من يزعم أن الدين آفة الشرق وأن تمسكهم بالإسلام علة العال في تأخرهم وعجزهم عن مجاراة الشعوب العربية الناهضة .

لم يكن الثوار كلهم — والحق يقال — على هذا الغرار ، بل كان ولم يزل فيهم عدد غير قليل من الزعماء والقادة ، يعد نموذجا في الغيرة على الشريعة السمحاء ، والتفاني في سبيل الإسلام ، والعطف على أمانى الشعوب الشرقية ، والشعب التركي ولا سيما الجيل الذي أدركناه من أوفى شعوب الشرق للعقيدة الإسلامية ، ولهذا ادعى بعض الباحثين أن رهطا من أولئك الغلاة الملحميين مدسوسون لا يمتنون إلى السلالات التركية الصريحة بسبب من الأسباب .

هذا وقد انبعث عن شطط القوم ما انبعث من تحزب وشقاق بين الأتراك أنفسهم فضلا عن غيرهم فتفرقت الكلمة ، وتعددت الأحزاب وآل ذلك أخيرا إلى كثير من المآسى والكوارث المعروفة في تاريخ الدولة العثمانية . والخلاصة كان الرصافي معدودا في هذه الفئة الثائرة الغالية في ثورتها ، كما تدل على ذلك جملة من آرائه المبثوثة في كتبه المنظومة والمنثورة ، كما أنه قد ألقن لغة الأتراك واطلع على أدبهم نظما ونثرا ، واندمج في البيئة التركية وخالط سائر الطبقات فيها ، ولا سيما رجال الفكر والسياسة ، مجاريا للقوم في آرائهم ومذاهبهم الحديثة من سياسية وفلسفية . وبما لاشك فيه كذلك أن الرصافي كان يكثر من التردد على مجالس القوم ، ويغشى أنديتهم ومعاهدهم الخاصة والعامة ويصغى إلى ما يدور فيها من جدل عنيف في القضايا المعضلة ، التي كانت شغلا شاغلا للناس في مناحي السياسة والاجتماع ، فأصبحت هذه البيئة الجديدة التي اندمج فيها وتأثر بروحها مصدرا من مصادر إلهامه وثقافته ، وقد تيسر له ما لم يتيسر لغيره ، فاستطاع أن يفرغ آراءه وأفكاره الثورية الحديثة في قوالبها العربية القديمة ، ولا عجب فإنه تخرج في علوم اللغة العربية على أشهر المتخصصين بها من علماء بغداد وذلك قبل نزوحه إلى الآستانة .

نحن لا ننكر أن الثوار كانوا على حق في كثير من بواعث الثورة وأسبابها ومنها ذلك الجلود السياسي والجفاء الروحي اللذان اشتهر بهما الأتراك القدماء ، وهما من أقتل الأدواء في هذا الشرق بأسره، ومنها تفريط السلاطين والحكام بحقوق الشعوب المحكومة ، ولذلك قوبل إعلان الثورة على هذا الشكل بالتهليل والتكبير في جميع بلاد الدولة ، وغمرت الجمهور هنا موجه من الغبطة والحبور ليس لها مثيل ، حتى إن كاتب هذه السطور قد اندفع إلى تأييدها وتأييد الحزب الذي قام بها إلى حد بعيد ، كما اختير في أوائل من اختير من أعضاء ذلك الحزب العاملين في العراق . ولسكننا ننكر أشد الإنكار غلو الغلاة ، وإفراط المفرطين ، والخروج عن الصدد في تقويض أسس الحياة الاجتماعية الراسخة في البلاد .

لا بد للأمم في مهب الأعاصير من التماسك أو التمسك بأمراس النجاة ، وما هي إلا المحافظة على دساتيرها في الدين والأخلاق وفي العادات الحميدة . ومجمل القول لا مناص للشعوب الفتية الناهضة في عصور التحول والانتقال من المحافظة على مقومات حياتها ، ومشخصات وجودها . وشعائر معتقداتها إلى غير ذلك من أخلاق وأوضاع صالحة . وقد ثبت على الأغلب أن الطفرة غير مأمونة ، ولها ما لها من عواقب وخيمة .

استساغ الرصافي ما استساغ من آراء تلك البيئة النائرة على علاقتها ، وجاهر بما جاهر به من شك وارتباب في بعض الأصول الاعتقادية ، التي لا مجال للشك فيها عند جمهور المسلمين ، وكان رائده في ذلك حرية القول والرأي والاعتقاد وهو يدين بهذه الحرية ، ويقدها التقديس كله ، بل كان الرصافي ومثله الزهاوي يريان في الجهر بآرائهما من هذا القبيل ، ضرباً من الجرأة والإقدام ، ويعتقدان في الصمت نوعاً من الجبن والرياء ، إلى هذا ونحوه مما أسخط عليهما رهطاً من رجال العلم والدين ، وأحفظ كثيراً من الأدباء المعروفين بأصالة الرأي والاتزان في غير قطر من هذه الأقطار العربية .

غير أن الناظر في ديوان الرصافي يجد فيه إلى جنب ذلك أقوالاً تدعو إلى
الرفق في مقاضاته ، والتأني في مؤاخذته ، ومن هذه الأقوال ما يدل على
الإيمان واليقين . وتنزيه الباري (جل اسمه) فضلاً عن الإقرار بربوبيته
ووحدانيته ، وبين أيدينا وصية للرصافي هي آخر ما وجد له مكتوباً بخطه
قبيل وفاته ، وقد شهد فيها أنه ميت على دين الفطرة ، فأى جدوى لنا بعد ذلك
في غمزه ، والطعن فيه من هذه الناحية ؟

أما الإسراف في المجون . ومقارفة المعاصي ، ونحو ذلك فلهما في الشريعة
حكم آخر كما لا يخفى . وليس من شأننا التطرق إلى هذه الجهة ، ولم تكتب هذه
الكلمة من أجل الخوض في هذا الموضوع .

وعلى هذا لنا أن نعد الرصافي ممن خلط الحسنة بالسيئة في أدبه ، وقد
رضى لنفسه تخطي الحدود ، ولم يعرف لنا أو هوادة في نقده وسخريته
وهجوه المقذع ، فكان كالرياح إذا هاجت عاتية نكباء تأتي على ما مرت به
من رطب ويابس ، أو هو كالحجر الصلب في اندفاعه من شواحق القنن تهشياً
لما يقع فوقه ، وتحطماً لمن يقف في طريقه .

وشعره طافح بالعبث والمجون ، قلما سما به عن مستوى الحياة المادية ،
ولا بدع فهو من الأدباء الذين ينجحون بأدبهم إلى الواقع ، ويخطبون به
العقول ولا شأن لهم فيه بمخادمة القلوب ، ولا بمناجاة المثل العليا .

وليس من الحكمة فيما أرى نسج من ينسجون في الآداب الرفيعة
والفنون السامية على هذا المنوال ، فالحكمة هي الاعتدال والاقتصاد في كل
شيء ، وتجنب الإفراط والتفريط . وخير المذاهب الأدبية توسط ذويها
بين السبح في عالم الأوهام والأخيلة الباطلة وبين التمرغ في حمأة المادة .
وقد انغرد الرصافي بطريقته هذه عن معاصريه من فحول الشعراء ، ولم يعن
بمذهبه هذا شاعر فحل من شعراء الديار المصرية أو السورية كما سماعيل صبري
وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي وغير هؤلاء ، إذ كانوا إلى القصد والاعتدال

في مذاهبهم الأدبية المذكورة . وهذه دواوينهم شاهدة على ما نقول ، ومرد ذلك إلى الاختلاف الشديد في المنشأ والبيئة ، كما مرت الإشارة إلى ذلك . فالرصافي قدر له أن يعيش في بيئة نائرة كثيرة الزلزال متوالية الهزات ، تهز قلاعها العروش ، وتذك أحداثها معاقل ذوى التيجان أما القوم فقد قدر لهم أن يعيشوا في بيئة أخرى لا شك أنها تختلف عن البيئة السابقة .

ومجمل القول ينحو الرصافي في أدبه منحى من يعتمد على العقل المطلق كما يراه هو عقلا مطلقا ولا يعول في حكمه إلا على الواقع ، والتعويل على أحكام العقول في الأمور العملية جائز مألوف . ولكن أنى يجوز لنا التعويل على أحكام هذه العقول الضعيفة القاصرة في محيط الحياة الوجدانية ، وما يتصل به من دين وأدب وشعر وفلسفة ؟ وكم ضل العقليون والعمليون الواقعيون في هذه الفجاج الواسعة والأجواز العميقة . وما أبعد الشقة بين مراتب العلم والعمل وبين مضطرب العقول ومطمأن الأرواح والقلوب !

وفيما نعاينه ونشهده اليوم من اضطراب وفساد في الحياة ، ومن خوف وقلق يستعبدان الناس ما فيه من عبر ودروس بالغة وهذا موضوع خطير ، حجة الأذواق الرفيعة والمعاني السامية فيه حجة دامغة ، وحجة الجدل والمراء حجة داحضة ، والبحث في ذلك يتسع لكتاب كبير ، ولكنه يخرج بنا عما نحن بصده الآن .

ولا شك أن شعراء هذه الفترة السالف ذكرهم (والرصافي منهم في الطليعة) قد أحسنوا في توخي أشرف المقاصد ، وأنبل الأغراض وأوكدها صلة بمصالح الجماعات ، فأشادوا بمحاسن الحريات ، ونددوا بمساوئ الاستبداد ، وانحلال الأخلاق لدى الطبقات الحاكمة ، كما شرحوا للنشء وغيرهم سنن العمران ، ونوأميس السكون في رقي الشعوب وانحطاطها ، وتقدم الأمم وتقهقرها على غرار ما يفعله الأطباء الأساة ، ورجال الإصلاح وقد تطور الأدب في زمانهم نظما ونثرا وأصبحت له كما قلنا رسالة عامة وغاية

إصلاحية في الحياة ، بيد أن الرصافي من بين هؤلاء ذهب إلى مخاطبة العقل أكثر من ملاحاة العاطفة والوجدان ، وكانت دعوته إلى الاعتبار بالحقائق الواقعية في هذا السكون فقط ، والعناية بالمظاهر المادية وحدها في هذه الحياة . وههنا تكون مداحض الأقدام وشطط العقول وفتنة الأفكار ، ومن هذه الناحية كانت له تلك الشطحات ، فهو من خلط الحسنات بغيرها في أدبه كما تقدم القول في ذلك .

وقد أصبح أدب الرصافي الآن في ذمة التاريخ وسوف يمحض الزمن نتيجة هذا الأدب ، ويصدر التاريخ حكمه في مبلغ الجدوى التي عادت على شبابنا وناشئتنا من اتباع هذه الطريقة أو تلك في الآداب الحديثة ، وإذ تأملنا النتائج التي حصل عليها شبابنا في هذا المنحى من مناحي الأدب والفكر ، أو في ذلك المنهاج من مناهج التربية والتعليم ، لم نجد لها نتائج مشمرة ، شباب حائل الألوان ، متباين المشارب ، لا هو شرقي يدرك ميزة الحضارة الشرقية ويتذوق روحانية الشرق ، ويدرك الحكمة من رسالة الرسل والأنبياء ، ولا هو شباب غربي في جرأته ومغامراته أوفى نشأته الاستقلالية ، وميله إلى التعاون والنظام ، ولا بد لنا قبل ذلك من الموازنة بين محاسن هذه المذاهب ومساوئها ، وبين مناحي الضعف والقوة في المذاهب المذكورة .

مضى القول في البيئة التي عاش فيها الرصافي إلى ما بعد رسوخ الحكم الدستوري في البلاد التركية ، ومن ثم توالى الحروب من البلقان إلى طرابلس إلى اليمن وغيرها من بلاد الدولة ، إلى أن اتصلت بتلك الحرب الكبرى ، وهي الحرب التي انضم فيها الأتراك إلى حلفائهم الألمان ، وفي أثناء هذه الحرب الكبرى ثار العرب في الحجاز بقيادة (الحسين بن علي) ملك العرب ، وأعلن القوم استقلالهم وانفصالهم عن الجماعة العثمانية . انقسم قادة الرأي في البلاد العربية حيال هذا الحادث ، وفي سبيل تنظيم

علاقاتهم بالأتراك إلى قسمين : قسم يرى ضرورة الاتفاق مع الترك ضمن الجامعة الإسلامية أو العثمانية على شرط حصول العرب على قسطهم من الحكم الذاتي أو (اللامركزية) كما كانت تسمى إذ ذاك . ويرى أصحاب هذا الرأي أنه حل للمشكلة في مصلحة الفريقين ، وقد تكاثر أنصار الرأي المذكور بين العرب أنفسهم بعد نشوب تلك الحرب الكبرى ، متمسكين بعروة الجامعة الإسلامية ، موجسين شراً من غدر بعض الدول العظمى المعروفة بظلمها الاستعمارية ، ونكثها بعهودها المقطوعة للأمة العربية . وكان الرصافي ومثله الزهاوي ممن ينجحون إلى هذا الرأي وذلك قبل ظفر الخلفاء وتسليم الأتراك لهم بدون قيد أو شرط ، ولا عجب فقد كان هذا الشاعران غرسين من غراس الدولة بل كان كل منهما ربيعاً لنعمة القوم ، وما كان هذا الموقف من الشعارين في رأى بعضهم إلا من قبيل الوفاء وعرفان الجميل .

أما الفريق الآخر من قادة الرأي في العرب ، فهم لا يرون مندوحة عن إذكاء ثورتهم على الأتراك ، وقطع كل ما كان لهم من صلة بالقوم ، لأن العرب جربوا الأتراك مراراً ، وقد علمتهم التجارب أن الحصول من القوم على قسط من الحرية أو الحكم الذاتي ليس في حين الإمكان ، وقد مال أصحاب هذا الرأي إلى تأييد الثورة الهاشمية ، وبما شجعهم على ذلك ماجرى على أحرار العرب وشبابهم الناهض من تقتيل وتشريد على يد (جمال باشا) القائد التركي المشهور . وهو الذي ادعى أن شهداء العرب تأمر وتمع الأعداء على سلامة الدولة ومن هذه الناحية كان بعض قادة الثورة العربية ينظرون شزراً إلى الرصافي بعد نزوحه من الاستانة إلى سورية فالعراق ، كما كان الرصافي يبادل القوم ذلك النظر الشزر بمثله في كثير من الأحيان ، وهذا سبب من أهم أسباب الجفاء وفتور العلاقات بين الرصافي وبين بعض شباب العرب . وهو الأمر الذي أدى أخيراً إلى عزله في بعض الأرياف العراقية وانقطاعه عن قرص الشعر ، إلا إذا ألحت البواعث والمناسبات .

أقام الرصافي في ناحية ريفية تبعد عشرات الأميال عن بغداد، وكان خلال إقامته فيها على الأغلب يعاني أزمة نفسية عنيفة . وذلك من جراء المصير الذي لم يكن يتوقعه هو ولا غيره من الناس لنفسه ، والدليل على أنه كان يعاني تلك الأزمة اتخاذه زى البدو والأعراب ، وظهوره أمام الناس بذلك المظهر الخشن والمباذل الغريبة ، بعد أن كان أشهر من نار على علم في محافل الأدب البغدادية . وهكذا استراح الرصافي إلى طريقة من طرق الرمز والإيحاء ، في بث الاحتجاج والإنكار ، واطمأن إلى هذا الأسلوب في التعريض بسوء المعاملة ، والإجحاف الذي يلقاه أدباء البلد . ولم يكن للرصافي على الظاهر بد من الالتجاء إلى هذه الطريقة التي يرمز بها إلى قلة المبالاة ، وعدم الإكثار به وبطبقة من الأدباء وذلك بعد أن أعيته الخيل ، وكل لسانه من العتاب والحساب .

ومن رأينا أن الرصافي لم يوفق أيضاً في لفت الأنظار إلى مقاصده وأغراضه من هذه الناحية ، وذلك لأسباب لا نظنها تخفى على النقدة الألباء بعد تأملهم في بعض ما قدمناه .

كان لسكل من الرصافي ، ولمن جفاه وقسا عليه من القوم عذره الذي ينتحلّه وحجته التي يحتج بها ، فأما الرصافي من جهته فكان يحمل ذلك على بخس حقه ومنزله في الشعر والأدب ، وفيما أداه بواسطتهما من خدمة لقومه ولبلاده . فانه أذاع للعراق ذكراً بعيداً وبث له دعوة واسعة وأما القوم من ناحيتهم فكانوا ينكرون على الرجل صرامته وشدة وشذوذ آرائه أحياناً . ولا يحتملون نقده للذاع وإسفافه في المهج والإفداع . والحقيقة التي لا بد لنا من الإصحاح بها مهما كان موقفنا من الفريقين ، هي أن كثيراً من أعلام الأدب في هذه البلاد مغمورون ، يكابدون شظف العيش ويقاسون الأمرين ، ولا سبب لذلك على الأكثر إلا بلادة الشعور وجفاء الطبع اللذان جبل عليهما رهط من القادة والزعماء ، وما عرفوا به من

شح وتقتير على نوابغ أمتهم في الفنون والآداب ، وما اشتهر القوم به من جهود شديد في تشجيع حركة الذشر والتأليف والأخذ بيد الباحثين والمؤلفين .
ومما يضاعف الأسى في هذا الباب أن فضل الأدب لا يجحد ، وأثره لا ينكر فيما ناله العراق من صيت حميد ، وما حصل عليه من مركز سام ، وذلك بخلاف السياسة ، فقد كان ولم يزل إثم السياسة أكبر من نفعها في هذا الشأن .
ولم لا يكون ذلك كذلك في بلد كثير ما تسند مناصب الدولة العليا فيه إلى غير أهلها ، ولا يستثنى من تلك المناصب العالية الوزارة التي يقال لها وزارة التربية والتعليم ، وهي الوزارة المرجوة المؤملة في إنهاض القوم من كبوتهم والأخذ بأضباعهم وإقالتهم من عثرتهم ، وذلك على الوجه الذي تقوم به أمثالها من الوزارات في البلدان الناهضة ؟

وإذا كان لسكل شاعر فحل سمة واضحة في شعره ، ولكل أديب موهوب ميزة كبرى في أدبه ، فإن للرصافي في شعره ميزتين : إحداهما متصلة بهذا الشعر من ناحية المعنى ، والميزة الأخرى تتصل به من حيث المبنى .
فأما ميزة شعر الرصافي من حيث معناه ، فهي استقلال في الرأي والفكر ومجاهرة بالمعتقد على علاته ، وتعبير عن كل ما يحول بخاطره ، ولو كان فيه ما فيه من الخروج على كل مألوف محترم في بيئته ، وله في شعره آراء غاية في الجرأة كما لا يخفى ، ويكثر في أدبه المجون ، ومن مجونه ما لم ينشر في ديوانه لبذاءته وإسفافه فيه إسفافاً قد يترفع عنه الرعاع ، وقد يتحاماه أدنى طبقات الناس مروءة وفتوة ، وما أشبه حياة الرجل وطريقته من هذه الناحية بحياة مشاهير الحجان المعروفين ببعضهم في بعض عصور الدولة العباسية ببغداد ، وما أشبه طريقته بطريقة القوم .

وبعد فلا غرض للرصافي من ذلك كله على ما يقول هو في أشعاره إلا تحرير العقول ، وتنوير الأفكار ، واستخلاص الحقائق ، والتمييز بينها وبين

الآوهام والخرافات ، ومن ثم التخلص من رياء المرائين ونفاق المنافقين ، فهل وصل الرصافي إلى غرضه ؟ وهل دنا من غايته ؟ من رأينا أنه كان قليل التوفيق في هذا السبيل ، كما كانت جهوده -- على أنها والحق يقال جهود طويلة مضيئة -- ضئيلة الجدوى ، وما ذلك إلا لأنه ارتكب ما ارتكب من هفوات ، وسار في طريق كثيرة العثار ، منعقدة الغبار ، فلم يصل إلى مراده ، بل كان دون الوصول إليه خرط القتاد ، والدليل على ما نقول أن خطته هذه ألبت عليه من ألبت من المعارضين ، فمنهم من احتج عليه أشد احتجاج ، ومنهم من انبرى لتفنيد آرائه إلى غير ذلك مما نعص عيشه أحوج ما كان إلى الهدوء ورغد العيش

وللرصافي ومثله الزهاوى أسلوب خاص ينظمان بموجبه الشعر في موضوعات العلوم السكونية وبعض المسائل الطبيعية أو الرياضية . تقرأ هذا الشعر فكأنك تقرأ فصلا لكاتب كتبه في موضوعه ، فهذا الشعر لا يفرق عن النثر في شيء ، ولست من يعجبه هذا المذهب مطلقاً ، ولم أجد فيه ميزة من ميزات الشعر ، ولا أدري لماذا أولع الشاعران به ؟ والغالب أنهما نسجا فيه على منوال بعض شعراء الأتراك .

هذه هي ميزة شعر الرصافي من حيث معناه ، وهي دون ميزة هذا الشعر من ناحية مبناه ، إذ من رأينا أن الميزة السكبرية في شعر الرصافي لا توجد إلا في رصانة مبانيه ، وقوالبه الشعرية : ديباجة في غاية الصفاء ، وبيان في منتهى الإشراق ، والفاظ في أعلى رتب الجزالة ، ولعل هذا الشاعر كان في هذا الزمن الأخير نسيج وحده في الاطلاع على غريب اللغة ، وتقيداً وأبدها ، وامتلاك أعنة فصيحها وشواردها .

ولا نغلو إذا قلنا إن العراق بل بلاد العرب كافة لم تشهد له ضرباً منذ قرون وبعضهم يقول منذ سقوط دولة العباسيين في بغداد ، وكأنما أبت له شدته وصلابته المعروفة في مقاصده ومعانيه الشعرية إلا أن تلازمه في ناحية المباني والألفاظ

فهو من هذه الناحية قليل النظير بل هو مثال يحتذى به في هذا الباب .

كنت أتوق إلى الوقوف على كتاب عن الرصافي ، قيل لي إنه لبعض المختصين به من أدباء بغداد ، وبينما أنا كذلك إذ زارني في منزلي الأستاذ الفاضل السيد بدوي أحمد طبائنه مدرس الأدب في كلية المعلمين ببغداد وأطلعني على هذا الكتاب فإذا هو عبارة عن دراسة مستوفاة في الموضوع .

ومما راقني جدا أن يضطلع بها مؤلف متمري فيحوز قصب السبق في هذا المضمار على أدباء العراق ، وقد تصفحت الكتاب فإذا مؤلفه الأستاذ قد ألم بكثير من النواحي التي ينبغي الإلمام بها في هذا الشأن ، فلم يفته البحث في بيئة الرصافي ومنشئه وسيرته وفنه وشاعريته إلى غير ذلك ، وقد كون آراءه في النقد وذكر ما للشاعر وما عليه ، والموازنة بين محاسنه ومساويه في الشعر والأدب تكوينا لطيفا يدل على تجرد وإنصاف في كثير من فصول الكتاب .

هذا إلى أن الأستاذ في طليعة المكبرين المعجبين بأدب هذا الشاعر كما يلوح لنا من فصول أخرى من الكتاب

ولا يخفى أن الرصافي شاعر مكبر ، له ديوان كبير الحجم ، وهو مع إكثاره وضخامة ديوانه شاعر محلق مجيد فلا بد لمن يتوفر على وضع كتاب فيه من قراءة جل ما نشر وما لم ينشر من شعر الرصافي ، والتوفر على نقده ودراسته وفي ذلك ما فيه من جهد مفضل لا يضطلع به إلا السكفاء القدير ، وهذا ما بذل الأستاذ المؤلف - حفظه الله - فيه جهد الطاقة .

وقد أفادني لقاء السيد المؤلف أثناء البحث في موضوع كتابه فائدة أخرى ، وهياً لي متعة ثانية وذلك من ناحية التعرف إلى نموذج حتى جمع إلى أدب الدرس كرم الشمائل وأدب النفس .

هذا ولا بد لي من القول بأنني اختلفت مع مؤلف الكتاب في جملة من آرائه ، ولم أتفق معه في استنباط بعض ما استنبطه ، واستنتاج بعض ما استنتج في هذا الكتاب . بيد أنه تلقى ذلك برحابة صدر وسجاجة خلق ، وقد شاء له أدبا أن يثبت تلك التعاليق والأقوال وسيطلع القراء عليها في مواضعها من الكتاب . وحسبي الآن تقديم هذا الكتاب المصنف في الرصافي إلى كل من يعني بشئون الأدب العربي الحديث ، ونقد الشعر والشعراء المحدثين ، ولست أشك في أن عدد من يشاطرنى رأني في نفاسة هذا الكتاب وفي فضل مؤلفه عدد غير قليل وإلى الله أبتهل أن يجعل التوفيق حليفه ، إنه ولي التوفيق .

محمد رضا الشيباني

٢٧ صفر سنة ١٣٦٦
١٨ كانون الثاني سنة ١٩٤٧





أنا ابن دجلة معروفًا بها أدنى وإن يك الماء منها ليس يروني

(الرصافي)

مقدمة

في الشعر العربي إلى عهد الرصافي

لم يستطع أدب أمة من الأمم النهوض بما استطاع الأدب العربي أن ينهض به في التعريف بالأمة العربية هذا التعريف الشامل الذي بدأ بالأرض التي دب عليها هؤلاء العرب ، وانتهى إلى السماء التي أظلمت على هذا الاعتقاد قلة المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في تبين حياة العرب الأولين وطرق تفننهم في أسباب الرزق ، والضرب في أودية الحياة .

استطاع الناس أن يعرفوا كثيرا عن مصر القديمة بالكتب التي لا يتسرب إليها الشك ، والتي وصفت حياة المصريين وتقاليدهم وطقوسهم ، سواء منها ما خطه السكينة ورجال الدين في كتاب الموتى ونحوه ، وما سجله الرواد الذين أموا وادى النيل في كتب رحلاتهم وأسفارهم ، وكذلك بالآثار التي خلفها المصريون القدماء والتي لا تزال شاخصة إلى اليوم ، ماثلة للعيان بما نقش عليها من رموز وكتابات يجد فيها المؤرخ والباحث ما يفسح لهما الطريق وينير لهما نهج البحث فيما يحاولان من استخلاص ما يبغيان من الحقائق عن المصريين الغابر

وقريب من ذلك أمة اليونان ، وإن كان لهذه الأمة أدب عريق يتجلى في الإلياذة وغيرها من كتب القصص والأساطير ودواوين الأفكار والمعتقدات ، ولكننا نرى أن هذه الآثار الأدبية - وإن أدت إلينا الكثير مما يلقي الضوء على تاريخ الأمة اليونانية وعقائدها - تساندها معرفة تامة بأحوال البلاد وملوكها وطبيعة أرضها ، وما اكتنفها من مظاهر الطبيعة .

ولأمة الفرس حضارة مذكورة ولسكنها مسطورة ، يقال أمر بتسطيرها ملوكها ، وأولو الأمر فيها تسطيرا يجد الباحث فيه غنيته .

وليس الأمر كذلك بالنسبة للأمة العربية التي اختطت حياتها في هذه المواقف الشاسعة بين حل وترحال ، فلم يؤثر لها كتاب ، ولم يعثر لها على أثر يعتد به في هذه الناحية .

ولنأينا استطاع هذا المأثور عنهم من جيد النظم والنثر وحده أن ينهض بهذا التعريف الشامل خير نهوض في عصور الجاهلية ، واستطاع الأدب العربي وحده أن يثبت أنه مصدر كبير في العصور التالية ، بحيث لم يعد من المقدور تغافله في معرفة زمان ، أو طبيعة مكان ، في صدر الإسلام ، وأيام بني أمية ، وامتدت حدود الأدب في العصر العباسي إلى آفاق بعيدة ، فلا مناص عنه — رغم ما كتب عن هذا العصر من كتب التاريخ والسير — لمن يبحث عن الحقيقة من جهاتها المتعددة ، وأنحاءها الشاردة !

فطائفة الجادين أدها ، ولجماعة اللاهين أدها ، ومن هذين اللونين وغيرهما من فنون الأدب استطعنا أن نقف على كثير من ألوان الحياة المتباينة في ذلك العصر الزاهر الزاخر .

وليس لنا أن نستطرد في هذا الأمر ، ولا أن نستشهد عليه بما يؤيده ، فكتب الأدب وحدها كفيلة بإثباته ، وفي سطورها الموشاة بالنظم والنثر الكفاية .

ونحن مع ذلك مضطرون إلى وقفة قصيرة تجاه العصر العباسي ، مادامنا نتحدث عن العراق ، وأدب العراق ، ومعروف الرصافي شاعر العراق . فلقد اختط أبو جعفر المنصور ببغداد في بقعة هي ملتقى الحضارات البابلية والآشورية والفارسية والآرامية ، وملتقى الأديان والمذاهب على ضفتي دجلة ، وشاء الله أن تزدهر هذه المدينة الفتية أيما ازدهار ، وأن تموج بالعلماء ، وتزخر بالأدباء ، ويحج إليها أرباب الفنون ، وذوو المواهب من سائر الملل والنحل .

واعتلى أريكة الملك في حاضرة العروبة الكبرى الضراغم الشداد من بني العباس ، وأخذت الخيرات تتدفق على هذه الحاضرة من سائر أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، فزاد الخصب ، وعمرت الأرض ، وثقفت العقول نتيجة للنهضة العلمية الشاملة ، وأم بغداد كل متطلع إلى المجد ، وكل منتج للثراء ، والخلفاء والولاة من وراء ذلك يمدون لهم في جبل العطاء ، ويفتحون باب النوال على مصراعيه ، فأتخموا بعد المسغبة ، وأثروا بعد الخصاصة . ولقد أحدث هذا العطاء ، وماجر إليه من الغنى مما لم يسبق له مثيل في عصور العربية تنافسا بين أولى المنزلة ، طمعا في مجد يخلد خلود الأدب ، وتنافسا بين الأدباء على الإجادة والسبق ، ليظفروا بأعظم قسط من العطاء ، والحظوة والتقريب ومن ورائهما غنى يساق سوقا .

ذكر الرواة ومنهم أبو الفرج في الأغاني أن سلما الخاسر خلف ثروة مقدارها خمسون ألف دينار وألف ألف وخمسمائة ألف درهم غير الضياع ، وقد خلف مروان بن أبي حفصة أكثر من ذلك ، ومثلهما في هذا جمهرة من الشعراء غير مبذريهم الذين كانوا يفوقونهم كسبا ، ولا يبقون على شيء مما كسبوا كأبي نواس (١) .

وقد شحذ هذا العطاء السنة الشعراء فجددوا وغالوا وتأنقوا وابتكروا ، وامتد ذلك إلى نواحي الشعر فشمل ألفاظه وأساليبه ، ومعانيه وأخيلته ثم أغراضه وفنونه ، مما تجده مفصلا في كتب الأدب وتاريخه .

ولهذا ازدهر العصر العباسي حتى لم يساوه في ازدهاره عصر سابق ، ولم يلحقه فيه لاحق ، وظلت بغداد خمسة قرون تشع منها أضواء العلم والمعرفة في ربوع البلاد العربية وتجاوزتها إلى بعض بلاد الغرب المتخبطة في دياجير الظلام إذ ذاك .

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي . تأليف السباعي بيومي
نقلا عن الأغاني

وحل بالعراق رسل الخراب والدمار ، جماعة التتار الهمج ، فقوضوا هذه الحضارة السامقة التي بناها العرب بأيديهم في هذه القرون ، لولا أن قيض الله لهذه الحضارة من احتضنها ، ورعاها من كبر الكائدين .
وكانت فترة ظلام غشت وأدى الرافدين ، فأطفأت هذه الجنوة الملتبهة وعيشت بسراج العلم ، وطوحت بآثار الفضل ، وطغت على حديقة الأدب ، فصوحت زهرها وثمرها .

وقد عودنا الشعر أنه السجل الذي تطوى فيه صور العصور ، فيطالعها الخلف ، فيرون فيها صورة إن لم تكن مطابقة للأصل ففيها مميزات . وفي أجزائها سماته . لما عرف عن الشعراء من صدق الحس ، وصفاء الحواس ، وهم الذين يتأثرون بما يسود البيئة التي يعيشون فيها ، ويرسمون في شعرهم صورتها ، لذلك فقد سجل الفساد الذي أصاب البلاد العربية في هذه الفترة ، بل لقد أصاب الشعر نفسه الفساد كما أصاب مناحي الحياة المختلفة .

وكان أهم أسباب هذا الفساد جور الحكام ، وجهلهم ، وأعجميتهم ، واهتمامهم باحتجان الثروة دون العناية بصحة أو تجارة أو صناعة أو زراعة ، وكان هنالك البخل الشديد على الشعراء بعد العطايا التي كانت تنوء بها كواهلهم ، بل عدموا القوت ، فانصرفوا عن هذه الصناعة الكاسدة ، يضربون في مناكب الأرض جريا وراء العيش والتماسا للرزق ، مادامت هذه الصناعة لا تكفل لهم ما يقيم أصلابهم ، وما دام هؤلاء الحكام قد سدوا في وجوههم أبواب الطلب لأنهم لا يفهمون قدر ما يقال فيهم : ولأنهم أعاجم ، وأتى لهم العطاء ؟ وليس الذي يأخذ من شأنه العطاء !

وخير مصور لهذه الحالة البئيسة قول عبد المحسن الصوري :

وصناعتي عريية وكأني ألتى بأكثر ما أقول الروما
قلبن أقول؟ وما أقول؟ وأين لي فأسير ؟ لابل أين لي فأقما ؟

وإنك لتقرأ القصيدة من قصائد هذا العصر فلا تجد إلا معنى تافها ، وإلى جانبه تجد تكلفا لفظيا واضحا ، حتى ليخيل إليك أن التفنن في جمع المحسنات البديعية هو الغرض الأول للشاعر ، وليس ذلك لشيء سوى إقفار العقول ، وجذب القلوب من كل معنى جليل وعاطفة قوية . نتيجة لانحطاط الثقافة وجور الحكام .

وهناك ظاهرة أخرى في شعر هؤلاء الشعراء ، وهي التقليد للسابقين من الفحول في عصور العربية الزاهرة ، ولكنه تقليد سقيم ، وليس التمسك في العيين كالسكحل ! فقد تجد التغزل والإفحاش وتجد الخبرات ولولم يكن أصحاب ذلك من الولهين بالحسان ، أو المعاقرين لابنة الحان وتقرأ لهم الأبيات الحماسية تحس فيها صليل السيوف ، ومثار النقع . ووقع سنابك الخيل ؛ ولم يشهد قائلوها حربا ، ولم يقبضوا على قائم سيف ، أو عامل رمح ، ولم يمتطوا صهوة جواد ! وإنما هم رغبتم في محاكاة المجيدين من الشعراء في عصور الازدهار كانت هذه حالة الأدب عامة ، والشعر خاصة ، أيام هؤلاء الغزاة الأفاقيين ، ولم يكن عهد الأتراك العثمانيين أسعد من هذا العهد ، جور شامل ، وعسف باد ، واستنزاف للأموال ، وإهمال لمرافق الدولة ، وعمل في غير هوادة للقضاء على كل أثر للعروبة ومناهضة للسانها القويم ، وأدبها الكريم ، واهتمام بعض قادتهم (بتتريك) الأمم العربية ولا سيما في أخريات هذا الدور من أدوار التاريخ ، فأخذت لغة الضاد تتضاءل وتنزوى ، لولا أن صانها الله بكتابه الخالد وحديث نبيه الكريم ، وكلاهما أس العقيدة وليس من اليسير التحلل من أسس هذه العقيدة ، إذ لم يبق للقوم غيرها !

أما العراق في العهد العثماني فقد اعتوره ما اعتور سائر البلاد العربية ولكن مصر تخلصت من العثمانيين قبل هذه البلاد في عهد ثلاثة : أولها عهد المماليك ، وثانيها أيام الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ، وثالثها

على يد محمد علي بإشراق أسيرة العلوية المالكة . بقى العراق يئن تحت الحكم العثماني إلى نهاية الحرب العامة الأولى التي نشبت سنة ١٩١٤ م . على أن العهد العثماني لم يجر على غرار واحد في الحكم والجور ، ففي أوله الاستبداد الذي قبح العراقيون طوال أيامه في عراقهم ، وفقدوا كل اتصال بالخارج ويمكن عده عهد العزلة عن كل ما هو أجنبي من حضارة أو ثقافة كما بقيت مادة الثقافة عريضة بحتة ، إذا ما استثنينا ثقافة الجالية التركية ، ومادة الثقافة العربية التي أشرنا إليها محدودة ، منحصرة في مدارس القرآن الكريم وعلومه ، وحفظ شعر الأولين وقدر تافه من العلوم السكونية .

وفي هذه الفترة أعرض أبناء البلاد عن السياسة ، أو أعرضت عنهم السياسة ، فليس لهم في الكثير الغالب طموح إلى منصب أو تطلع إلى وظيفة فانصرفت جهود أذكياهم ، وذوى المواهب منهم إلى الأدب ، فكانت هناك نهضة أدبية عوامها دينية بحتة عمت الأقاليم الجنوبية ، وكان مركز هذه النهضة بعض حواضر الفرات وأشهرها النجف والحلة ، وقد اقتصر على الشعر دون النثر غالباً ، ويصح أن يسمى هذا الشعر (الشعر العلوي) ، أو (الشعر الحسيني) ، وموضوعه مأساة الحسين وغيره من أئمة البيت . ولعاطفة الولاء والتفاني في محبتهم ، أبلغ الأثر في ازدهار هذا اللون من الشعر الذي شعاره البساطة والصدق والإخلاص في حب آل البيت ، وبكائهم واستثارة كوامن الألم المستقر في قرارة النفوس .

وليس هذا الشعر شعر دموع وآلام فقط ، بل هو في جوهره شعر قوة وحماسة ، ولقد كان له أثر بعيد في إشاعة الفصحى ودحر العامية في الأقاليم التي توطن فيها ، وذلك لإقبال العامة عليه إقبالا منقطع النظير ، إذ كان ينشد في المآتم الخاصة والعامة ونعني بها حفلات الذكرى لمصرع الشهداء من آل البيت وكذلك في سائر المجتمعات الدينية .

وإلى جانب هذا اللون المتميز من الشعر ، وجد الشعر الغنائى أو الغزلى ، ولم تخل بغداد والبصرة والموصل من شعراء كان لهم أثر كبير فى النهضة الحاضرة ، ومن شعراء هذه الفترة عبد الغفار الأخرس وعبد الباقى العمرى وغيرهما . أما الفترة الثانية من العهد العثمانى فتبدأ بإعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ، وفيها ظهر تجدد الشعراء ، فعدلوا بشعرهم عن مذاهب الجامدين وقل المدح وكثر وصف جمال السكون ، ومحاسن الطبيعة ، وشاع الشعر السياسى والشعر الاجتماعى ، وعبر أصحابهما عن مساوىء الاستبداد ومجدوا الحرية وأشادوا بقيم الفضائل ، ومكارم الأخلاق وأثرها فى نهضات الأمم ويقظة الشعوب ومالوا إلى وحدة الموضوع فى القصيدة الواحدة .

ويمتاز الشعر فى هذه الحقبة بأنه شعر له رسالة وللشعراء أهداف يتوخونها وهى التعبير عن آلام الأمة وآمالها ، وعن طموحها إلى مجازاة الأمم الناهضة ، ورغبتها فى التخلص من عوامل الضعف والانحلال (١) .

على أن رسالة الشعر أصبحت فى أخريات هذا الدور قومية بحيث بعد أن كانت وطنية عثمانية ، ومن شعراء هذا العهد جميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى ، ورضا الشيبى ، وحبيب العبيدى ، وخيرى الهنداوى ، ويلى هذه الطبقة طبقة أخرى من شعراء الشباب حذت حذوهم فى طرق الموضوعات العامة ولها شعر كثير ، وبعضهم ممن تخرج على رجال الطبقة الماضية ، وفى هذه الطبقة الثانية : محمد مهدي الجواهري ، وأحمد الصافى النجفى ، ومحمود الجبوبى النجفى وغيرهم .

وبعد انقشاع سحابة الحكم العثمانى عن العراق بعد الحرب العامة الأولى احتك العراق احتكاكاً قوياً بالحضارة الحديثة ، وتأثر بمختلف النظم الجديدة

(١) عن مقال للعلامة الشيبى فى العدد الذهبى لمجلة الهلال موضوعه

(الادب والادباء فى العراق فى خمسين سنة)

للأدب والثقافة وأقبل الشعراء على السياسة ، وكان من بعضهم هجر للأدب
ومن بقي يعالج الشعر منهم لم يفارق شعراء الماضي في كثير ، على أن بعضهم
تأثر بما تأثر به العالم فسلم من التقليد وأصبح شاعر العصر .

هذه صورة سريعة رسمناها لحالة الأدب ، وعوامل ازدهاره وأسباب
ذبوله وانحلاله وهي سلسلة كان شاعرنا إحدى الحلقات المهمة فيها .

هذا الدور التاريخي الذي مر بالعراق ، والذي تقلبت به الأحوال ، جدير
بالبحث والتنقيب ، ففيه ضعف وانحلال وفيه إحساس بهذا الضعف والانحلال ،
وفيه أخذ بأسباب النهوض من هذه المهادن السحيقة التي تردى العراق وغيره
فيها ، وفيه ظهرت بوادر النهوض ، والتمعت سمات الحياة ، وبرز العراق دولة
فريدة في تاج الشرق العربي ، وها هو ذا يخطو إلى الأمام بخطا ثابتة ، وعزيمة
ثاقبة ، وهمة مضرية ، لا تعرف الوهن ، وهو يبحث الخطا جاداً لإدراك
مجدده العريق ، والحقاق بسالف منزلته أيام عزة العرب والمسلمين في عصر بني
العباس ، بهمة قادته العاملين ، ورعاية البيت الهاشمي ، الذي خلص العروبة من
أعدائها الذين كانوا يعملون جاهدين على إفنائها .

هذه المرحلة التي شابتها هذه الأحداث ، فزادتها نقاء ، وزادت جوهرها
تألقاً وتماماً ، أبرزت معروف الرصافي ، الذي يمثلها خير تمثيل ، تمثلت فيه أمانى
بلاده . وتمثلت فيه عقلية وطنه ، هذه العقلية التي تقلبت تقلب هذه الأحداث ،
وكان شعره صدى لما يضطرب في بيشته من الأمانى والآلام .

معروف



الرصاصى فى عنفوان شبابه

[الرصافي - أبواه - أسرته - تعلمه - أساتذته - اشتغاله بالتدريس مواهبه الشعرية - سفره إلى تركيا - قصة زواجه - اختياره عضواً في مجلس المبعوثان - مغادرته تركيا بعد الحرب العامة الأولى - في الشام - إلى فلسطين - استدعاؤه إلى وطنه - توظيفه في الحكومة - في الصحافة - في مجلس الأمة العراقي - في الفلوجة - أخريات أيامه - وفاته ، وصيته] .

١

هذه بغداد تتأهب بعد إغفائها الطويلة أكثر من ستة قرون، والأمر بها ليس لأحد من أهلها، ولسكنها مدينة المنصور، إن أدركها الوسن فألى يقظة، وإن أصابها الخمول فلا بد لليل العاكر من آخر، ولا بد من صحوة ذات بشائر، ودون إشراقة النهار وإشعاع الشمس تنفس البليغة في جوف الغسق .

وهذاك دجلة يجري من قديم الأباديين الأودية والوهاد، فيخترق بغداد من الشمال إلى الجنوب كما يسرى الشريان بحياة الجسد فألى ضعفته الغربية تجد الحى العتيق، الذى يسمى (السكرخ) وإلى ضعفته الشرقية النصف الثانى من بغداد الذى يدعى (الرصافة) وبينهما الجسر العتيق الذى أنشد فيه ابن الجهم .

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
ورصافة بغداد سمية رصافة أخرى ببلاد الشام هى التى عناها الفرزدق حين قال مخاطباً راحلته ، وممنيا نفسه بالوصول بعد الحفا والوحد والذميل :

متى تردى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى

جاء العراق بعلم من أعلام المعرفة الربانية، وقطب من أقطاب التصوف الإسلامى، هو « معروف » الذى نسب للكرخ فكان (معروف السكرخى)، وخلد السكرخ بـ معروف .

لم يسأثر (السكرخ) بالخلود دون شقيقته (الرصافة) فلقد جاد الزمان على أهل الرصافة (بـ معروف) الذى تردد فتيا على علم من أعلامها هو العلامة

(السيد محمود شكري الألوسي) (١) الذي أحبه وتوسم فيه الذ كما وعرف ما يعدله نفسه من الخلود بمواهبه الفريدة التي أيقن أن سيكتب لها الخلود ، فنسب الفتى إلى هذه الرصافة المنسية المذكورة فكان (معروف الرصافي) .
 وخلد معروف بمواهبه وعبقريته وفنه ، وخلدت الرصافة بـمعروف !

٢

نحن الآن في العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجري (٢) وفي مطلع الربع الرابع من القرن التاسع عشر الميلادي (٣) وتمخضت الليالي عن وليد نابه لم يكسب النباهة من سبيل ثروة خلفها أبوه ، أو مجد تليد تعلق بأسبابه ، أو علم تميزت به أسرته ، أو نسب شرف به .
 فليس لدينا خبر مأثور عن ماهية البيت الذي ينتمي إليه شاعرنا ومن يوثق بروايته من الرواة ومن كسب هذه الثقة من معاشره الرصافي ، وصحبته أمدأ غير قليل لا يجزمون بمعرفة أكيدة عن حقيقة الأسرة التي ينتمي إليها الرصافي فهذا عالم جليل صاحب الرصافي أكثر من ربع القرن صحبة الأخ بله صحبة الصديق يقول :

« كان الرصافي - رحمه الله - قليل التحدث عن نفسه وعن أسرته ، وإذا

(١) السيد محمود شكري ابن السيد عبد الله بهاء الدين ابن أبي الشناء شهاب الدين محمود الألوسي من كبار علماء العراق وأدبائه نشأ في بيت كريم من أعرق بيوتات العراق علما وفضلا وورعا ، تخرج عليه جماعة من أفاضل العلماء ، وخيرة الشعراء « منهم الرصافي » وله كتاب جليل « بلوغ الأرب في أحوال العرب » مطبوع في ثلاثة مجلدات . توفي سنة ١٩٢٤

(٣) سنة ١٨٧٣ الميلادية

(٢) سنة ١٢٩٢ الهجرية

أراد محدثه أن ينتزع منه شيئاً من هذا القبيل كان عليه أن يستعمل اللباقة والمداورة للحصول على بعض ما يريد ، « ثم يقول : « أما أصله وأهله فلا يتحدث عنهما إلا إذا جذبته الحديث إليهما جذبا ، فيضطر إلى الإيماء والإلماع دون التبسط والإسهاب » ويخلص المحدث الكريم إلى الجزم بقوله : « ومن قال لك : إن أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا فقد أبعد ! فإني على وثيق صلاتي به لم أسمع منه حرفاً واحداً يشير إلى هذه الجهة » (١) اهـ

ونستطيع أن نستخلص من هذه العبارات أن معروفاً نشأ في أسرة غير مذكورة ، فهذا الذي صحبه أكثر من ربع القرن لم يعرف عن شئ عرنا شيئاً عن أبيه ، ولا شيئاً عن أمه ويخلص من ذلك كله إلى الجزم بأن من قال : إن أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا فقد أبعد !

ولا يزال الناس في لهفة وولع بالأحساب والأنساب وكثيراً ما سألوا الرصافي عن أبيه ، ولكنه لم يجبه إجابة تشفي غلتهم في معرفة نسبه ، وهو حين يجيبهم يعن في الإبهام ، ويزيد الأمر تعقيداً ، استمع إليه يحيب على سؤالهم : قالوا : ابن من أنت يا هذا ؟ فقلت لهم :

أبي امرؤ جدّه الأعلى أبو البشر

قالوا : فهل نال مجدا ؟ قلت واعجبني

أتسألوني بمجد ليس من ثمرى ؟

على أن هذا الجزم لم يعق المواهين بالتعلق بأسباب الأنساب ، والتماس المجد في العظام والأشلاء من نسبة الرجل من جهة أبيه إلى قبيلة عربية ، ومن نسبته من جهة أمه إلى قبيلة عربية أيضاً . وقد تعجب أشد العجب من هذه الأقوال ، إذ اعلمت أن قائلها أنفسهم يقولون في عبارة صريحة « أما أبوه فمن عشيرة كردية تقطن في نواحي كركوك تسمى الجبارة ، وتدعى هذه العشيرة أنها

(١) صديق الرصافي : للمرحوم الأستاذ طه الراوي . مجلة عالم الغد البغدادية

علوية النسب، ويسلم لها جميع أهالي كردستان بذلك، فإن صح ادعاؤها فهي عربية الأصل. وأما أمه فمن عشيرة القراغول^(١) وهم بطن من شمر القاطنين في سهول العراق. وكانما استكثروا على شاعر العروبة وبلبلها الصداح الذي غذى بلبانها وعاش ببغداد مستقرها، أن يكون أبوه وأمّه غير عربيين. فلندع حديث النسب والأنساب فما نظن أن في هذا البحث كبير غناء، ولا نرى شاعرنا الخالد يعنيه هذا النسب، ولو كان في شغل به لشغل نفسه بالتحدث عنه والمباهاة به ولو لذلك الصديق الصادق الذي صحبه أكثر من خمسة وعشرين حولاً ونظنه لو وجد فيه سبب فخر لفخر به وباهي الناس الذين يحتفلون بذلك احتفالاً كبيراً. ولما قال: «أبي امرؤ جدّه الأعلى أبو البشر» وإنما الذي يعنيه أنه شاعر العراق وشاعر العروبة بلسانها المستقيم وخواطرها وعواطفها وآلامها وآمالها:

عهدتك شاعر العرب المجيدا	فمالك لا تطارحنا النشيدا ؟
فتحن إليك بالأسماع نصفي	فهل لك أن تفيد فنستفيدا ؟
بشعر لا تزال تنسوط منه	بجيد بدائع الدنيا عقودا
إذا أنشدته الحسناء تاهت	كأن قلديها درأ فريدا ..
وأنت إذا قرعت به عبيداً	رددت إلى الحرار به العبيدا
ولو تستنهض الجبناء يوماً	به لتقحموا الدنيا أسودا
ولو كررته للقوم ألفا	لأعسم سامعوه بأن تعيدا

(١) يصعب الجزم بأن هناك عشيرة تسمى «القراغول» هي من أفخاذ شمرو في قضاء الشطرة في متصرفية المنتفك عشيرة تدعى القراغول لا تفرق عن عشائر المنتفك في شيء إلا أنهم يقولون بأنهم تحدرُوا من أصول غير عربية.

(العلامة الشيبيني)

هذه مفخرة الشاعر وتلك معجزته، التي يتباهى بها غير منتحل نسباً، ولا مدح أباً.

وهؤلاء الذين أجهدوا أنفسهم في نسبة الشاعر، أو نسبة أبيه وأمه إلى قبيلتين عربيتين، لم يدلونا على الوقت الذي انتجعت فيه هذه الأسرة بغداد من موطنها الأصلي : بين كركوك وجمجمال في بلاد الكرد (كردستان) .

ولم نعرف شيئاً عن أبيه أكثر من أن اسمه «عبد الغنى» من قبيلة عربية أو كردية، على الخلاف الذي رأيت، وأنه كان رجلاً رقيق الحال. أما أمه التي صحبت الشاعر حياته الأولى فامرأة عربية من عشيرة القراغول وهي بطن من شمر، متوسطة الحال، ولكنها عريقة الأصل، كريمة المحدث.

نشأ الرصافي في بيت جده في بغداد في دار قديمة الطراز قديمة البناء في محلة من محلات بغداد، تدعى محلة القراغول، وكانت له في هذه الدار غرفة صغيرة مظلمة، تسمى بلغة عامة ببغداد «كفشكان» وكان لإقامته في تلك الغرفة أثر بعيد في ميل شاعرنا إلى العزلة عن لداته، فلم يشر بهم في لعبته أو تسليته على الرغم من ولوعه بالعبث ولوعا كان من أثره أن فقد إحدى أصابعه حين كان يعبث ببعض الأدوات الحديدية.

ولم تسكن هذه العزلة عن لداته من صبيان الحى فحسب، بل تجاوزتها إلى الانقباض عن أهله وعشيرته الذين كانوا يعاشره ويساكنونه، ويحنون عليه إذا استثنينا أمه التي تعلق بها تعلقاً ما عليه مزيد وبكاها أمر البكاء بعد وفاتها.

وترعرع الرصافي في حجر أمه، وكان من الطبيعي لمن في مثل حال الرصافي من رقة الحال أن يطمح أو يطمح له ذووه إلى طرق باب التعلم التماساً لما يحركه العلم من الرزق وفتح أبواب العيش.

ولا بد لرواد العلم أو رواد العيش إذ ذاك من أن يسلكوا أحد نهجين ،
لا ثالث لهما :

أما النهج الأول وهو السائد إذ ذاك في أكثر بلاد العربية فهو تعلم العلوم الدينية ، فالأزهر في مصر قبلة القاصدين من المصريين وإخوانهم المسلمين في سائر أرجاء المعمورة ، وفي العراق مسجد النجف الأشرف ، ومدرسة الإمام أبي حنيفة ، وإلى جانب هذين المنهلين حلقات للدرس في مساجد بغداد الكبرى ، أو في منازل المقتدرين من جلة العلماء ، والشبه قريب بين ما يدرس في الأزهر ، وما يدرس في هذه المساجد والمعاهد . ومادة الثقافة في هذه المعاهد إسلامية عربية تتناول العلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث ، وما يتصل بها من علوم المنطق والكلام وإلى جانب هذه العلوم الدينية العلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة وعروض وأدب ، وإلى هاتين المجموعتين قدر لا يذكر من العلوم السكونية .

ومصير المتخرج في هذه العلوم ، هو مصير أسيادها : يتصدر للتدريس ويؤمهم الطلاب ، ويحظى عليه رزق من وزارة الأوقاف إذا أسندت إليه الإمامة والخطابة في أحد مساجد العراق .

أما النهج الآخر فدراسة لا تمت إلى السابقة بصلة ، فقد أنشأ مدحت باشا والى العراق العثماني (١٨٦٨) — وكان رجل إصلاح أينما حل يجذب إليه قلوب الناس بما يسدى للبلد الذي يتولاه من العناية والأخذ بيده إلى النهوض حتى لقد اتهمته الدولة العثمانية بسبب هذا التقرب إلى من يليهم بأنه يطمع أن يكون له بالعراق ما كان لمحمد علي باشا في مصر — أنشأ هذا المصلح الكبير — فيما أنشأ — عدة معاهد للتعليم كالمدرسة الرشدية العسكرية ، والرشدية الملكية والحيدية ، والصناعات ، ومدرسة للضباط . واللغة التركية هي لغة التعلم في أكثر هذه المدارس . وأهم هذه المدارس شأنًا ومستقبلًا المدارس العسكرية التي تهيم طلابها لتولي وظائف الدولة ، والتدرب على أعمال القيادة وفنون

القتال ، وكثيرا ما يكون لمخرجها حظ الإيفاد إلى مقر الخلافة في الاستانة وقد عصف الزمان ، وأودى الإهمال بهذه المعاهد إلا المدرسة الرشدية العسكرية . لم يكن أمام الرصافي إلا سلوك أحد النهجين ، فسار يتخبط في حيرة واضطراب . يسير في الطريق الأولى ولا يكاد يصل إلى غايتها ، ثم الثانية ولكنه يخفق فيضطر إلى العود إلى ما انتهى عنه !

ومن الطبيعي أن هذا التردد ليس من ورائه إلا الفشل الذريع والوقوف دون الغاية ، فلم يكن الرصافي بسبب هذه الدراسة فقيها في الشريعة ، ولا أستاذا للغة يتصدر مجالسها ، ولم يكن موظفا يقسم الوظائف العامة أو يقود الجيوش أرسلته أمه في سن مبكرة إلى أحد كتاتيب بغداد فظل به إلى أن أتم حفظ آيات الكتاب الكريم ، وتعلم مبادئ الكتابة . وغادر الرصافي معهد تعلمه الأول ليلحق بمدرسة ابتدائية ، فقضى فيها سنوات ثلاثا حتى أتم الدراسة فيها وحصل على شهادتها ، ولحق بعد ذلك بالمدرسة الرشدية العسكرية ، وهي المدرسة الوحيدة الباقية من آثار الوالي المصلح (مدحت باشا) في دار السلام . ثمكث فيها سنوات ثلاثا وصل فيها إلى الصف الثالث وفي السنة الرابعة لم ينجح في امتحانها فحمله ذلك على ترك المدرسة ، وكان هذا الإخفاق سببا في نكوصه عن متابعة الدراسة .

ولقد أضاع الرصافي هذه الفترة من حياته فيما لم يعد له نفسه ! وانسد بهذا الفشل السبيل الثاني ، الذي يؤهل للوظيفة العامة . والراتب المغري ، والجاه العريض . ولم يفد معروف منه شيئا في علمه ولا زيادة في معرفته . وكان هذا الفشل خيرا للرصافي ولأتمته ، وللغتها ولآدابها ، فكسب ذكرا وخلودا ، ما كنا نظنه يحلم بهما من وراء الوظيفة العامة والراتب المغري والجاه العريض .

ولم يكن بد لهذه الشاعرية المستقرة في قرارة نفسه ، والملكة التي وهبها

من تنمية ورعاية ولا سبيل للتنمية والرعاية غير الدرس والتحصيل والتزود من اللغة وآدابها . فأتاحت له الأحوال بعد هذه الجولة التي آب منها بغير جدوى انتجاع بحر لا قرار له ، يزخر بالعلم والأدب والحكمة هو المرحوم (السيد محمود شكري الألوسي) ، عالم وابن عالم وحسبك أن تعرف أنه صاحب (بلوغ الأرب) ، وصاحب القراءة القرية من أبي الثناء شهاب الدين الألوسي صاحب (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) فإخذ يرد منهله العذب النير ، واتخذ شيخاً وأستاذاً وهو الذي لقبه بلقبه الخالد (الرصافي) فدرس على يديه مبادئ العربية والفروع ولازمه مدة اثنتي عشرة سنة . كما تتلمذ على غيره من أشياخ ذلك الزمان منهم (الشيخ عباس القصاب) و (الشيخ قاسم القيسي) الذي قرأ عليه كتاب الهداية في الفقه الحنفي ، وكتاب الولدية في آداب البحث ، ومن وفاء الرصافي لهذا الأستاذ قصيدته التي بعث بها إليه يذكر فيها هذه التلمذة ويتذكر عهده ، وقد جاء فيها :

إذا قاسم القيسي مر بخاطري	تذكرت عهداً في الصبا مر كالحلم
تذكرته إذ كنت للعلم طالباً	بفكري وسعي مجهد النفس والجسم
فقد كنت أحياناً أزور فناءه	وأنتابه للرشف من منهل العلم
وكم زرته في جامع الفضل راجياً	شفاء لما في مدنف الفهم من سقم
إذا جنته يوماً ثلت كنانتي	فتقف منها كل ما اعوج من سهم
وعدت صحيح الفهم منه قد انجلت	ببقياه عنى غمة الغرم بالغم
هو العالم الحبر الذي من يلد به	يكن فائزاً بالعلم والأدب الجم
بما شاء في التوضيح من واقد الذكا	وما شاء في التقرير من صادق الحكم
بقية أعلام مضوا وكفى به	من العلم طوداً فوق أطواده الشم
له نظر في غامض العلم نافذ	ورأى سيد لا يحوم على الوهم
إذا مات في العلم قتل عويصة	رماها بسهم من فطائسه مصم

* * *

نماه أبوه الشيخ أحمد للعلا فبورك في الآباء من والد شهم
فقد كان فرداً كابنه في ذكائه فجاء ابنه قرماً تولد من قرم
وكان بتقسيم المواريث بارعاً ينيف بها رأياً على ثاقب النجم
فيا رمسه اهناً بالذى أنت رامس سقالك السحاب الجون بالوابل السجم
وقد أثبتنا هذه القصيدة تأكيداً لتلمذة الرصافي لهذا الشيخ وقد جحد
ذلك بعض الناس .

ويقول الرصافي عن نفسه .

«حبب إلي في بدء دراستي العربية التبسط في فهم الشواهد وشروحا وتذوق
ما فيها من بلاغة فكنت أحفظ الشاهد وما يسبقه وما يلحقه من أبيات فاجتمع
في حقيقتي وفي حافظتي منها شيء كثير ، وعندها كنت أحاول أن أنظم الشعر
محاكياً ومحاذاً فقرضت الشعر وسني دون السادسة عشرة فاجتمع عندي منه
طائفة صالحة . وقد كان القريض يأخذ من وقتي الشيء الكثير» (١) .

وكان لهذا الذي يورده معروف عن نفسه أثره البعيد في تنمية استعداداته
وتقوية شاعريته بإمداده بزيادة لغوي كما سنفضل ذلك في موضعه من دراسة شعره
إن شاء الله .

ولكننا نقول الآن إن هذه الدراسة قد هيأت له معرفة كاملة باللغة ، وإلماماً
بغريبها ، ونحوها وصرفها وبلاغتها وأدبها . واستطاع الرصافي بهذا القدر من
الثقافة وما وهب من حدة الذهن وصفاء الطبع أن يكون أستاذاً فذاً في العربية
في أكثر من معهد من المعاهد العالية .

(١) «صديقي الرصافي» للمرحوم طه الراوي . عالم الغد البغدادي . العدد
التاسع من السنة الأولى .

وفي أثناء هذا الجهد في الدرس والتحصيل وقرض الشعر الذي كان يحتاج
 منه إلى وقت غير قليل ، كان الرصافي في حاجة ملحة إلى المال يستعين به على
 الحياة ويتقوى به على متابعة الدرس وينهض بأعباء نفسه ومن يعنى به من ذوى
 رابته وهو الأبى الذي يعاف أن يمد يده . إذن فليعمل ليكسب من العمل
 ما يحفظ ماء وجهه من أن يراق وهو القائل :

لا تشك للناس يوماً عسرة الحال وإن أدامتك في هم وبلبال
 وجانب اليأس واسلك للرجا طرقةً فالدهر ما بين إدبار وإقبال
 واركب على صهوات الجدم مغترباً فيما تحاول ذا حل وترحال
 واطلب على عزة بيض الأنوق ولا تطلب لعمرك أن تحظى بمفضل
 لم يبق غير الذي غلت أنامله إما بأغلال شح أو بإقلال
 وأقرب الأعمال وأيسرها على مثل الشاعر بهذا القدر من الثقافة الذي
 حصله ، مهنة التدريس فامتتها في بعض المدارس الرسمية الابتدائية في بغداد
 كان يتقاضى على هذا راتباً ضئيلاً ، ولكن الأمل بدأ يرسل وميضاً على حياة
 هذا الشاب الذي بدأ يستقبل الحياة . فقد خلت وظيفة التدريس في قضاء
 مندلي (١) ورأت الحكومة أن يكون أساس التعيين التفوق في امتحان
 سابقة يجرى بين الراغبين في هذه الوظيفة وكان عددهم أحد عشر رجلاً أحدهم
 معروف الرصافي ، وقد كتب له الفوز والغلبة على سائر المتقدمين . فكان هذا
 ول فوز يظفر به الشاعر في حياته ويفتح له أبواب الأمل ولكن لم يكديتمتع
 قسطاً ثمار هذا الفوز حتى رغب إليه مدير معارف بغداد بإيعاز من واليها

(١) قضاء من أفضية لواء بغداد « والقضاء » في العراق مثل « المركز » في
 مصر « واللواء » في العراق هو « المديرية » « والمحافظة » في مصر .

(نامق باشا) التركي أن يتنازل عن التدريس في القضاء المذكور على أن يعتاض عنه تدريس آداب اللغة العربية في المدرسة الإعدادية الرسمية في بغداد براتب لا يقل عن راتب التدريس في القضاء المذكور ، وإن السبب الذي من طلب إليه من أجله الاستعاضة عن هذه الوظيفة بتلك غير معلوم ، فقبل ذلك وبقي في عاصمة العراق يقوم بتدريس العربية في المدرسة المذكورة إلى إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م^(١) .
ولقد كان الرصافي مدرسا ناجحاً ، بعلمه وشخصه : مهيباً من طلابه ، محبباً إليهم وهذا أحد تلاميذه^(٢) يقول عنه :

« إنني أذكر الرصافي الذي كان أول مدرس تلقيت عنه اللغة العربية في الإعدادية الملكية قبل التحاقي بمعهد الطب في الأستانة ، أذكر فيه اتزاناً ووقاراً ووالله لقد كان التلميذ منا يفرق لطلعته وهيبته ، ويشعر بالاحترام والطاعة ، ويستجمع شتات أفكاره ، ليصغي ويسمع ، وقد ظلت حلاوة ألفاظ الرصافي بعد هذا العهد الطويل تتمثل لي في مختلف أدوار حياتي ، وإنها تتجدد الآن فكأنها قيلت اليوم »

٥

في هذه الأثناء كان الرصافي يقرض الشعر الرصين ، ويبعث به إلى أمهات الصحف في العراق وسائر البلاد العربية ، فنشر كثير من شعره السياسي والاجتماعي في صحف مصر وسوريا ، ولا سيما صحيفتي المقتبس والمؤيد ،

(١) روفائيل بطي « الأدب العصري في العراق العربي » المطبعة السلفية —

مصر ١٩٢٣ ج ١ ص ٧٠

(٢) هو معالي الدكتور ابراهيم عاكف الالوسي وزير المعارف العراقية

الاسبق

فطوف ذكر الرصافي في بلاد العربية وشرق وغرب وذاع صيته ، واعترف له الفضلاء بالفضل ، والأدباء بالإجادة .

كان بين العرب والترك أخوة يرفرف فوقها علم الإسلام ولكن غلبت على بعض الترك العنصرية فغلبوها على سياستهم وأساء بعضهم إلى العرب فهبوا ينتقصونهم وظهرت بوادر الفتنة ومبادئ الشقاق والتفرقة ، وقامت بعض الصحف التركية تزيد الفتنة اضطراباً ، وصادف أن زار القسطنطينية (السيد رشيد رضا) فهاله ما رأى من انقسام الرأي وبواكير التفسخ وهو من دعاة الوحدة الإسلامية فأذنب بالكارثة ولكن القوم لم يصيخوا له وكان أكثر رجال الصحافة تعتياً وتعصباً وكراهية للعرب (أحمد جودت) صاحب جريدة (إقدام) التركية فقد نال من العرب وتناول على مجدهم ، وعلى رجالهم فقام جماعة من المخلصين للعروبة ، فأهانوا صاحبها كما أهان عروبتهم ، وذهب جماعة من المعتدين للعرب في مجلس المبعوثان العثماني إلى الصدر الأعظم ، وشكوا إليه اتجنى الجريدة وصاحبها فأرضاهم بتعطيل الجريدة ونصايرتها ، ولم يلبث صاحبها أن أعاد إصدارها بعنوان جديد واعتذر إلى العرب عما كان منه ، وأراد أن يبرئ نفسه من سوء النية فأعلن عزمه على إصدار جريدة عربية تشيد بذكر العرب وتقرب الهوة بينهم وبين الترك فأرسل إلى معروف الرصافي يطلب إليه الشخوص إلى تركيا للمساهمة معه في إصدار هذه الجريدة فغمر الرصافي بهذه الدعوة وخذعه الوعد الخلاب فلبى الدعوة وأسرع إلى القسطنطينية ، يحدوه الأمل في خدمة أمته والإشادة بمجدها ولكن خاب فآله إذ وجد أن (أحمد جودت) لم يكن صادق الرغبة فيما وعد فبقى الرصافي هناك لا عمل له وشهد براءاً من الأحداث التاريخية التي اعتورت نظم الحكم في تركيا مما سنشير إليه . بحث « شعره السياسي » .

وفي هذه الأثناء اتصل بأحرار الانقلاب الدستوري وأيدهم وأخذ ينافح

جهاراً عن مبادئ العدالة والحرية، ثم قصد إلى سلاطيك وبقي فيها شهراً ثم نقل راجعاً إلى القسطنطينية وسافر منها إلى بغداد . وفي طريق عودته أعوزته تنفقات السفر ، وهو في بيروت فابتاع مجموعة شعره (محمد جمال) صاحب المكتبة الأهلية — وقد نظم هذه المجموعة وجمعها العالم الأديب (محي الدين الخطاط) في ديوان أصدرته المطبعة المذكورة باسم (ديوان الرصافي) وعاد إلى بغداد ، وقبل أن يستقر به المقام فيها وصلته برقية من إخوانه العرب الذين تركهم في القسطنطينية ومنهم (فهمي المدرس) و (جميل صدقي الزهاوي) وغيرهما يستحثونه على العودة إلى قاعدة الدولة في تركيا بعد أن يسروا له سبيل التحرير في جريدة عربية اسمها (سبيل الرشاد) وكان يصدرها هناك (عبد الله مبعوث آيدين) فلبى الرصافي الدعوة ، وتسلم وظيفته الجديدة ، وظل يحرر فيها نحو سنة وإلى جانب هذا العمل الخطير كان يقوم بالتدريس في المدرسة الملكية العالية، يدرس العربية فيها ويدرس آدابها في مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الأوقاف . وقد طبعت محاضرات الرصافي التي ألقاها في هذه المدرسة عن الخطابة عند العرب في كتاب طبع في تركيا بعنوان (نفح الطيب في الخطابة والخطيب) كما أن مجلة المنتدى الأدبي نشرت بعض محاضراته هناك في الأدب والشعر . وقد بقي الرصافي مدرساً وصحفيّاً حتى انتخب سنة ١٩١٢ مندوباً عن (المنتفق) في المجلس النيابي العثماني ، وقد عرض عليه رئيس الاتحاديين ، وكان الرصافي اتحادياً النزعة إذ ذاك النيابة عن بغداد أو غيرها فأبى الرصافي قائلاً : إن هناك من أشرف بغداد ورجالها من هو أحق بها منه . ورضى أن يكون نائباً عن الناصرية (المنتفق) فتم له ما أراد . فأصبح من نواب المبعوثان وبقي في الأستانة طيلة الحرب العظمى الأولى وكان يساكنه السيد عبيد الله آيدين الذي عرض عليه الزواج لتهيئة أسباب الراحة والاستقرار لزميله الرصافي ولإبعاده عن مواطن الريب والشبهات فتزوج ثيباً من نساء أزمير شقيقة ضابط متقاعد يدرس في المدرسة الحربية العسكرية ، فبنى بها وسكن في بيته .

صغير وكانت عقيماً فلم تنجب ولدا . وقد طلقها معروف وهو في تركة لغير سبب معروف ، مدعياً أن دخله لا يساعده على القيام بأعباء أسرة ينفق عليها ويكثرى لها بيتاً ، هذا هو السبب الذي ذكره الرصافي خاصة أصدقائه . ولكنه طلقها برضى منها بعد أن عزم على الرجوع إلى بغداد وكان راتبه من التقاعد الذي يتقاضاه من حكومة العراق ثمانية عشر ديناراً في الشهر . والواقع أن الرصافي كان رجلاً لا يقوى على تحمل المسؤوليات ولو أراد الولد لكان له مندوحة في التزوج من غير هذه الزوجة العقيم (١) .

كان الرصافي يلبس العمامة في تركة ، ولكنه طالما ضاق ذرعاً بهذا الرمز الديني ، وهو المتحلل من التزمت والتوقر ، فأراد أن يجارى المجتمع بالخروج من هذا المظهر الذي يحد من حريته فخرج للناس في ثوب جديد إذ ترك العمامة التي كانت تشعره بالهرم قبل أوانه وتمنعه من أن يخوض مع الناس كالذي خاضوا ، وذلك ما كان يميل إليه وطالما صرح به فقد سافر مع صديق له من الضباط الأتراك إلى سلا نيك وكان رجال الشرطة إذ ذاك يطاردون ذوي العمام الذين كانوا يشجعون الناس على الثورة وشق عصا الطاعة ، وقد غاب عنه الضابط قليلاً والرصافي في انتظار عودته ، وإذا رجال الشرطة يقبضون على معروف ويقودونه إلى مخفر قريب ظناً منهم أنه أحد المشايخين وقد عدّ الرصافي هذه الحادثة من جنابة العمامة عليه ، وما هي إلا فترة وجيزة حتى

(١) إن ما سقناه عن زواج الرصافي وطلاقه زوجته هو ما استقيناه مما وقع تحت أيدينا من المصادر ، وما يعرفه أكثر الناس ، ولكن معالي الشيبلي (حفظه الله) أنبأنا أن الرصافي أسر إليه حين عودته إلى العراق بعد الحرب العامة الأولى أن له زوجاً في تركيا وأنه يحن إلى العودة إلى تركيا ليلقى زوجته ، وعلى هذا يجوز أن يكون الطلاق قد وقع بعد هذا الحديث الذي سبقت الإشارة إليه (المؤلف) .

خلع الرصافي ما كان عليه من ثياب وغطاء وارتدى ثياباً عصرية ولبس طربوشاً وقبض على عصا مفضضة قصيرة، كان شباب الأتراك يحملونها للزينة إذ ذاك . وقد كان معروف بذلك راضياً مسروراً فرأى نفسه من رجال العصر في فكره وبزته ، واندمج بين الناس ليؤدي رسالته في خدمة العروبة وتناسى ما كان في بدايته من مظهر ديني فخاض في الذي خاضوا وأم المجتمعات وصار رجلاً جديداً في كل شيء . وكثيراً ما خاض في السياسة وهاجم الجامدين من رجال الدين وقد ظل الرصافي في تركيا حتى فتح الانكليز العراق ، ووضعت الحرب أوزارها فغادرها إلى الشام وأقام فيها حيناً غير سعيد ذاق فيه ألم الحرمان بما عرف عنه من الإباء والترفع ، فلم يسعد بما سعد به غيره من المنصب والجاه والعطاء في عهد حكومتها العربية .

ولم يطل به هذا الألم إذ استدعى إلى بيت المقدس ليقوم لتدريس الآداب العربية في دار المعلمين، فغادر الشام وابتسمت له الحياة ولقي من التكريم والتقدير في فلسطين ما هو أهل له ، وقد سجل الرصافي في شعره عتبه على الشام ما لقي في أرضها بما خيب أمله لولا أن فلسطين فتحت ذراعها لإيوائه قال :

فليت سورية الوطفاء مزنتها	عن العراق وعن واديه تغنيني
قد كان في الشام للأيام مذكر من	ذنب محته الليالي في فلسطين
إذا كان فيها (النشاشيبي) يسعني	وكنت فيها خليلاً (للسكاكيني)
وكان فيها (ابن جبر) لا يقصر في	جبر انكسار غريب الدار محزون

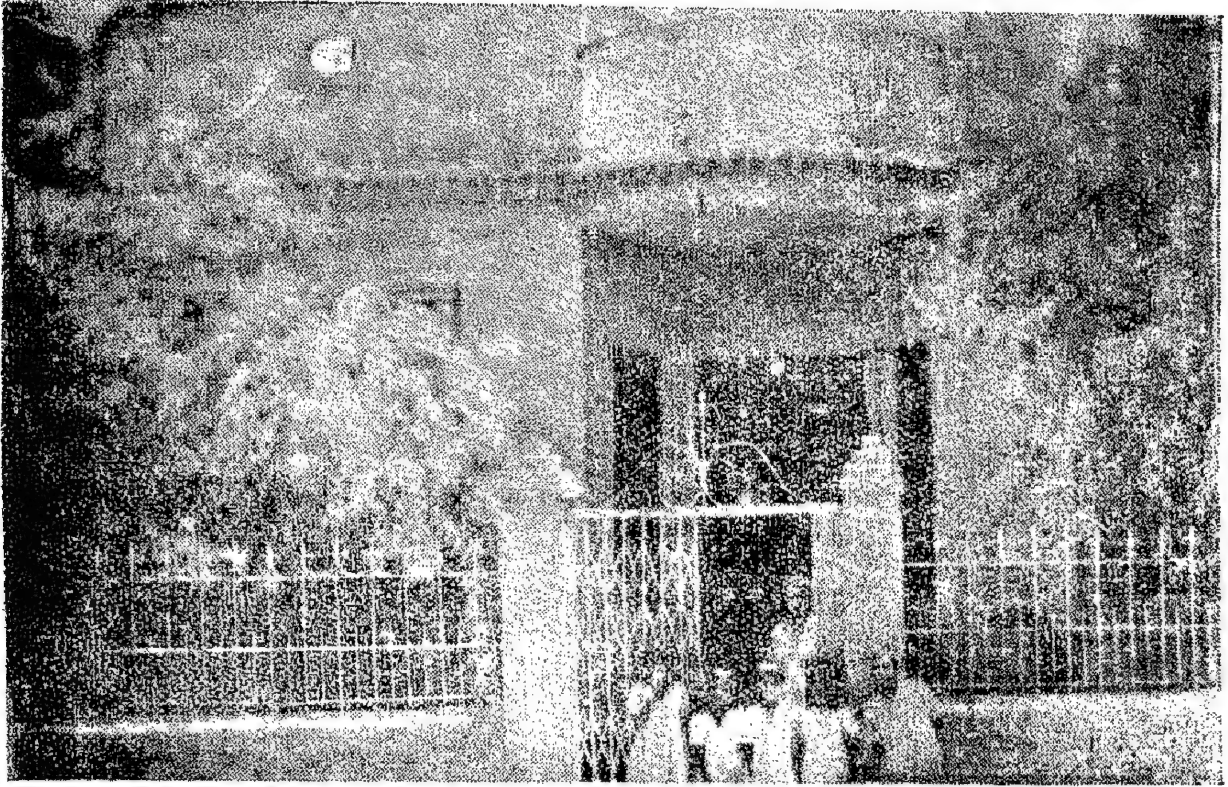
ولما قامت الحكومة الوطنية الموقته في العراق سنة ١٩٢١ دعى الرصافي إلى وطنه ليساهم بعقله وفضله وجهاده في نهضة وطنه فلبى الدعوة واستقبل في وطنه استقبالا رائعا فخاض في السياسة عنيفاً ثم اعتزلها .

وبعد أن انتهى دور الحكومة المؤقتة وذلك على أثر دعوة المجلس التأسيسي الذي سن دستور العراق الحالي وغير ذلك من القوانين الأساسية ، وقد عين في الدستور نظام الحكم في العراق ، وحدد مسؤولية الحكومات أمام المجالس التشريعية إلى غير ذلك من الأصول المدونة في الدستور العراقي ، فمال الرصافي في هذا الدور إلى وظائف الدولة وقد استفادت وزارة المعارف من اختصاصه في العربية وآدابها فعين مفتشاً للغة العربية لأول مرة ، وذلك حينما تقلد منصب وزارة المعارف صاحب المعالي الأستاذ رضا الشيباني وذلك سنة ١٩٢٤ وكان رئيس الوزارة في هذا الوقت السيد ياسين الهاشمي السياسي العراقي المشهور وقام الرصافي في وظيفة هذه بمجولات في شمال العراق وجنوبه لتفتيش المدارس وله في هذا الباب تقارير مفيدة وظل حتى سنة ١٩٢٩ يعتزل التفتيش والتعليم حينما ويعود إليه حيناً آخر حتى كانت آخر وظيفة تولاهما تدريس الأدب العربي في دار المعلمين العالية في بغداد وقد طبعته محاضراته التي ألقاها على طلابه فيها في كتاب سماه (دروس في تاريخ آداب اللغة العربية) .

وعقب اعتزاله التعليم أصدر جريدة يومية اسمها (الأمل) ولكنها احتجبت بعد مدة قصيرة ، وسافر في أثناء ذلك إلى بيروت مرتين مؤثراً الهجرة عن وطنه على مقاساته آلام الحرمان فيه ولكن لا يلبث الشوق أن يدعوه إلى بلده الذي أحبه ووفى له

وفي سنة ١٩٣٠ انتخب نائباً عن الأمة في المجلس النيابي العراقي الذي عرضت عليه المعاهدة الأنكليزية ، فكان الرصافي من معارضيها وأعيد انتخابه في ذلك المجلس مرة أخرى وأعيد انتخابه مرة ثالثة سنة ١٩٣٧ وكان قد غادر العاصمة إلى الفلوجة منذ سنة ١٩٣٣ ، واتخذها دار إقامة ، فقدم له صديقه الخيم (السيد عبد العزيز آل عريم) داراً جميلة تطل على الفرات ومن حولها حديقة جميلة وقد بقي هناك موفور الكرامة ينتجعه أهل الأدب والمعجبون به في أنحاء العراق . وهناك ألف كتابه (الشخصية المحمدية) وأوحل اللغز المقدس

وفي منتصف سنة ١٩٤١ غادر الرصافي الفلوجة إلى بغداد فسكن دارا في
الاعظمية في شارع رجب جميل .



(المنزل الذي قضى فيه الرصافي أخريات أيامه في الاعظمية من ضواحي بغداد)

وكانت هذه الفترة من حياته مضطربة يصل إليه المال الكثير فلا يلبث أن
يتلفه ويبقى سائر أيامه جائعاً ، حتى لقد مرض مرضاً سببه هذه الفاقة ، فرثت
ثيابه وأحاطت به المصائب إلا أن كل ذلك لم يفقد الرجل عزته وإياه
وسمع سيد من سراة القوم هو السيد (مظهر الشاوي) بما يعاني أديب
العراق فأخذته النخوة العربية فبادر إلى إسعافه وإعانتته وأغدق عليه الأموال
والكسا ، واستبدل بعصاه النخرة عصا جديدة من الأباوس زينها الصابنة
وصاغوا لها مقبضا بالفضة مطعما بالذهب على شكل حية فشكره الرصافي
بقصيدة نسجها :

أنا شيخ وذى عصاى فتيه قد أتتني من مظهر لى هديه
صاغة الصابئين قدألبسوها حلية ذات صنعة عبقرية
وشحوها من مظهر بكلام معرب عن مودة أخويه
فسأمشى بها قويا سويا بعد ما كنت ماشيا كالحنية
وستبقى الذكرى بها لإخاء موثق بالوشائج الأدبية
شرف قد أفادنيه إخواني لكريم من أسرة حميرية

وعاد هذا المحسن الكبير إلى إظهار الشاعر بما هو أهله من المنزلة في قومه فأهداه سيارة يستعين بها على التنقل ، ولكن الرصافي قدأبى هذا الفضل لأنه لا يجد نفسه في كبير حاجة إليه وقد كتب إليه شاكرآ ومعتذرا عن قبول هذه العطية السخية ، وزاد الشاوى في تفضله فأمر بإجراء راتب شهرى قدره أربعون دينارآ على الرصافي يقبضها كل شهر مادام حيا وأقر على نفسه أمام كاتب العدل أن هذه الهبة باقية ماعاش فإن مات لزمته ورثته كما كان هنالك شهم أنى هو فخامة (السيد حكمت سليمان) الذى تعهد الشاعر خير تعهد وشاركه فى هذا التفضل أخوه (السيد خالد سليمان) رحمه الله . وظل الرصافي على هذه الحالة حتى فاضت روحه الكريمة يوم الجمعة ١٦ آذار سنة ١٩٤٥ .

توفى وحيدا فى هذه الدار التى كان يسكنها فى الأعظمية من ضواحي بغداد مع خادمه (عبد بن صالح) الذى لزمه أمدا غير قصير وكانت تربط الرصافي بهذا الخادم الوفى والتابع الصفى روابط العطف والحنان وكانت منزلته من سيده منزلة الابن من أبيه . والرصافي هو الذى زوجه فأعقب بنات وظل عبد على الوفاء لأبيه الروحى والولاء لمولاه حتى النفس الأخير ، وإنك لتقرأ الوصية التى كتبها الرصافي بخط يده فلا ترى إلا إشادة بهذا الخادم الأمين الذى أوصى له بكل ما خلف . وماذا خلف الرصافي ؟

خلف عصارة ذهنه وسلافة عبقريته في أسطوره وكتبه وهو ينصح بنشرها،
إذالم تمد له الحياة في حبها، وأن يكون ريعها لهذا الخادم الذي شجعه الرصافي



وقتل الرّدى قتل جبار فلم تكن لتدرك فيه ثأرها نفس ثأري

(الرصافي)

على الزواج والإنجاب، وحمل نفسه أثر هذا الوزر، وألقى عليها تبعة هذه الجناية
فهو يكفر عن ذنبه بهذه الوصية بهذه الآثار وليس لدى الرصافي شيء أثنى
من هذه الآثار

اخلاقه

وكيف يُصبحُ من دنياهُ في دعة
من بات في نفسه الآمالُ تزدحمُ؟

(الرصافي)

١

نشأ الرصافي على ما قدمنا هذه النشأة المتقلبة التي لا تكاد تستقر : سواء في ذلك حياته التعليمية بين كتاب ، ومدرسة رسمية ، ومدرسة عسكرية ، ودراسة دينية ، وحياته العملية أو التعليمية والصحفية في تركيا وفلسطين وفي بلده ومسقط رأسه العراق .

فهي حياة ملأى بالمضامرات التي لامبعت لها إلهام الشاعر بالحرية والطلاقة ، وكأنه خشي في كل مرحلة في هذه المراحل الحافلة أن يتحكم فيه العمل ، وتقيد العادة فيحد ذلك من حريته ، ويأسره في قيود قوائمه ونظمه وهو الحر الطليق الذي لا يعترف بعالم السدود والقيود .

فالخلق المتميز في الشاعر هو تعشقه للحرية وكان هذا الخلق وحده هو الذي اختط له سبيل المجد وفتح له أبواب النبوغ وهو القائل :

إذا لم يعش حراً بموطنه الفتي	فسم الفتي ميتاً وموطنه قبراً
أحريقني إني اتخذتك قبلة	أوجه وجهي كل يوم لها عشراً
وأمسك فيها الركن مستلهاً له	وفي ركنها استبدلت بالحجر الحجراً
إذا كنت في قفر اتخذتك مؤنسا	وإن كنت في ليل جعلتك لي بدراً
وإن نابني خطب ضدّ مماتك لأثماً	فقبلت منك الصدر والنحر والثغراً
وإن لأمني قوم عليك فإني	لملتبس للقوم في جهلهم عنراً

وئمة صفة اتصف بها وما أجدره بها وهو الإنسان والشاعر المرفه
الحس الرفيق الشعور الحاد العاطفة . وهي صفة إنسانية وفضيلة نفسية طبع
عليها وهي خلق الوفاء . والمظهر العام لهذا الخلق البارز والصفة المتميزة له وفاقه
لوطنه الأكبر وطن العروبة التي ينمى إليها ويحيا في كنفها ، ووفاءه لوطنه
العراق الذي أظلمت سماءه ، ورواه ماؤه ، وغذته أرضه ونماؤه ، وحسبنا هنا
التلخيص والإشارة فسنعرض لذلك عرضا وافيا حين دراسة شعره .

هنا هو المظهر العام لهذا الخلق البارز عند الرصافي . أما مظاهره الخاصة
فلانرانا محتاجين إلى التدليل عليها ، فهذا وفاقه لأمه يحدثنا عنه صديقه الحميم^(١)
فيقول : « زرتة ذات مرة في بيته فلبحت على وجهه أمارات الانفعال وآثار
الدموع فلم أكنم عنه ما لمحت فقال لي : سمعت قينة إلى جوار منزلي هذا ، تغنى غناء
شجياً أذكرني البيت الذي كنت أعيش فيه ، وعلى الأخص أمي التي كانت تحنو
على حنوا ما عليه من مزيد . وقد كانت تتعهدني بالعناية جسما وروحاً ، فتغنى
بنظافة ثيابي وجسمي ، وتسألني عما كنت أقرأ في الكتاب والمدرسة . وكانت
- رحمها الله - لا يقر لها قرار حتى تراني إلى جنبها ، ولا أزال أذكر لها اهتمامها
بمطعمي وملبسي وكل ما يدور حول تهذيبي وتعليمي .. ومهما تطاولت في
الأيام فاني لا أزال أذكر عيشتي تلك معها وأحن إليها .. ولما رجعت إلى بغداد
بعد طول الغيبة . وقد انتقلت إلى جوار ربها .. لم أقو على رؤية البيت الذي
كننا نعيش فيه ، بل لم أستطع سلوك الطريق الذي يتصل به . »

ويؤكد هذا الوفاء لأمه تلك المحاولة التي حاولها أحد أقاربه ليبتر منه ما
يستطيع من المال فلم يجد وسيلة توصله إلى غايته إلا أن يأتيه (من نقطة الضعف)

(١) هو المرحوم العلامة الأستاذ طه الراوي .

التي يعرفها فيه وهي حبه لأمه فزعم له أن قبرها قد تهدم وأنه في حاجة إلى الإصلاح
فنفذه الرصافي كل ما كان يملك من المال ليقوم بهذا الواجب المقدس نحو أمه
التي أحبها في حياتها وبكاها بعد وفاتها .

ثم وفاؤه لهذا الخادم الذي وفي له فقد جعله الرصافي شريكاً في حفظه وقسيمه
في رزقه ، وقد قام الرصافي دونه باحتمال أعباء الحياة وفعل معه ما لا يفعل كثير
من الآباء مع أبنائهم فقد رعاه وزوجه ورزق بنات ، ولدن في كنفه ونشأن
في منزله وصارت أسرة تعمر الدار ، وعميد هذه الأسرة ورعها المستول معروف
وحده ، وتلك عاطفة ما نظنها اتخذت هذا المظهر في أحد بني آدم ، كما ضمن
لهذا الخادم وبناته الرزق ما استطاع بما أوصى به من كتبه ومخطوطاته ليكون
رعيها راتباً يجري عليهن بعد وفاته .

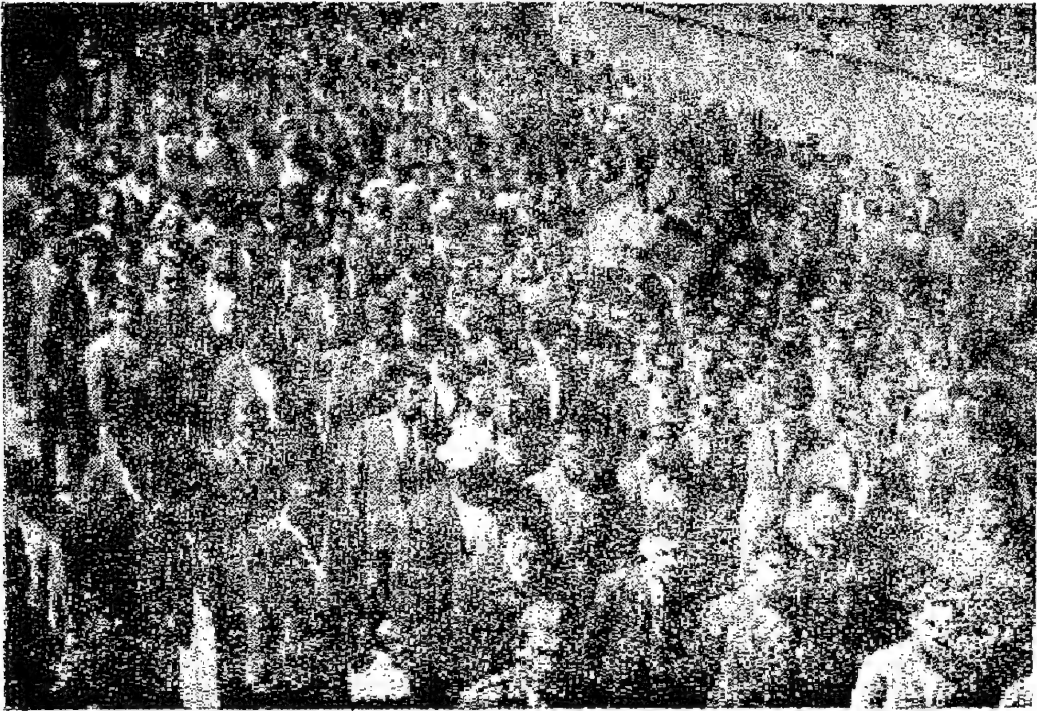
هذا هو الوفاء ، وهذه هي الإنسانية الكاملة ، تتجلى في الشاعر البائس الذي
وهب نفسه للبائسين ووهب شعره وشاعريته ، وهو لاء هم ملهموه أغرق صائده ،
وأروع شعره كما ستري ، وهو القائل :

من ليس يسيكه من أبناء جلده بكأؤهم فهو من جنس التماسيح !

وسنجتزئ الآن بإثبات هذا الجزء من وصية الرصافي الخالدة لترى قدر
العناية من السيد الأبى ، بخادمه الوفي :

(. . بما أن عبد بن صالح الذي هو معاو في العيش في مسكني ، كنت
أنا السبب في زواجه ، وقد ولد له بنات صغار ، وليس له من أسباب المعيشة
والسكسب ، ما يجعله قادراً على إعاشتهن ، أرجو من أهل الخير في الدنيا ومن
أصدقائي السكرام الأحرار ، أن يسعوا في إيجاد شغل له يكسب به ما يقوم
بإعاشتهن ، وإن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين .

كل ما عندي من الكتب المخطوطة ، التي كتبها أنا ، تباع لمن يرغب في شرائها ، على أن يكون له حق الطبع والنشر ، ولا يكون لي فيها سوى الاسم ويدفع المال الحاصل من بيعها إلى بنات عيدي ..



(جموع الشعب العراقي تشيع الشاعر الأكبر إلى مثواه الأخير فوفت له كما وفي لها)

أما وفاء الرصافي لأساتذته واشادته بذكرهم ، وقيامه بشكرهم ، على ما أوردوه من موارد المعرفة فحدث عنه وأطرب ولا حرج . ومن كبار أساتذته الذين مدحهم ووفي لهم بما قاموا به نحوه من رعاية (السيد محمود شكري الألوسي) وقد رثاه الرصافي بعد وفاته بأكثر من مرثية من خير شعرة ، ومن قوله فيه بما تلمح فيه أثر الفجيرة في قصيدته التي سماها (واشيخاه)

إذا ذكرناك يوما في محافلنا فمنا لذكراك تعظيما وإجلالا
إني أخف لدى ذكراك مضطربا وإن حملت من الأحزان أثقالا

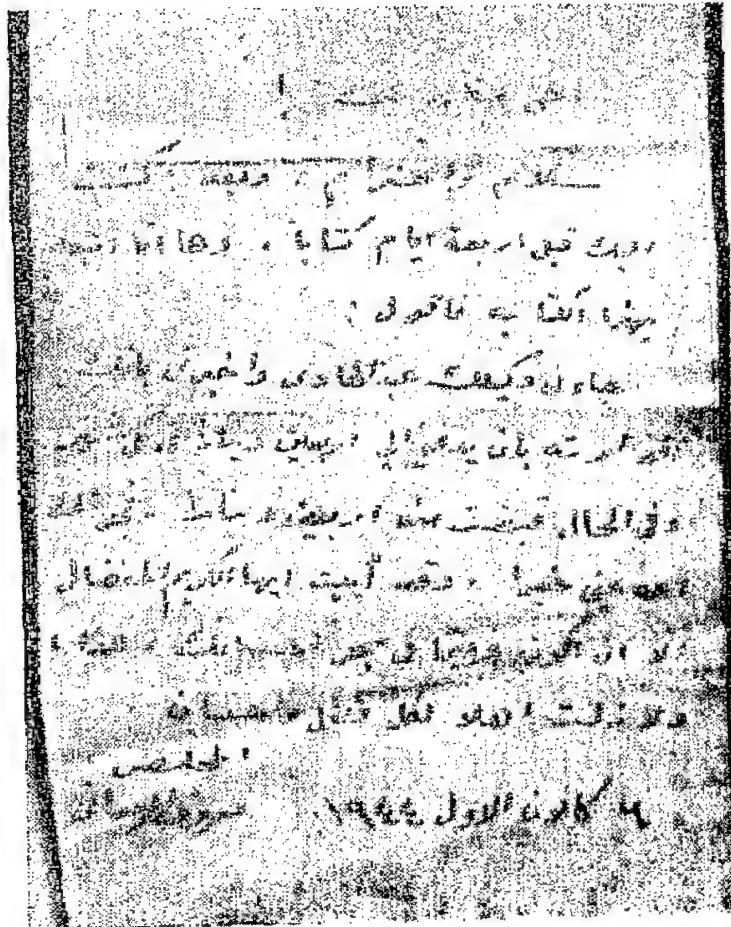
لا شكر لك يا (شكري) مدى عمري وأبكينك أبكاراً وأصلاً
 فأنت أنت الذي لقتني حكاماً بها اكتسيت من الآداب سرباً
 أوجرتني من فنون العلم أودية شفت من الجهل داء كان قتلاً
 فصح عقلي وقبلاً كنت مشتكياً من علة الجهل أوجاعاً وأوجالاً
 أنا المقصر عن نعمائك أشكرها ولو ملأت عليك الدهر إغوالاً
 فاغفر عليك سلام الله ما طلعت شمس وما ضاء بدر الليل أولالاً
 ومن صور وفائه لأساتذته كذلك تلك الآيات العاطفية العذبة التي بعث
 بها إلى أستاذه الشيخ (قاسم القيسي) ، وقد سبق

٣

وثمة سمة ثالثة اتسم بها الشاعر، وهي اعتزازه بنفسه اعتزازاً يدل عليه شمه
 وترفعه عن المواربة طمعاً في مغنم أو دفعاً لمغرم ، وكانت هذه الصفة وما
 تفرع عنها من الصفات سبباً من أهم الأسباب في نفور الناس عنه إذ هو يحاسبهم
 في غير أناة على ما يفرط منهم بما يراه مأساً كرامته أو ينال من شخصيته .
 كما كانت هذه السمة من عوامل إخفاقه في الحياة التي تحتاج إلى شيء من
 محاولة استرضاء الناس وكسب عطفهم والاحتياج لجلب مودتهم ، ولا سيما أولى
 الأمر منهم الذين يملكون له أكثر مما يملك لهم ولكن هذا وإن جرت به
 العادة ورضيه القوم فبهيات أن يرضى به الرصافي . ولعله لو صانع مع
 المصانعين وأدلى دلوه في الدلاء لما امتنع عليه منصب وإن سما وما تأبى عليه
 مال وإن كثر .

ولم يكن جزاء الرصافي غير جزاء غيره من الأحرار الذين تشبثوا بأذيال
 الحرية وآلوا على أنفسهم أن يكونوا ضحايا وشهداء ، فقاوسوا قسوة الزمن
 وأشربوا نغب التهمام أنفاساً .

وكان جديراً بالرصافي وقد نشأ في هذه الأسيرة الرقيقة الحال المحدودة الموارد من جهة ، وعانى ما عانى في بعض فترات حياته من ألوان الحرمان من جهة أخرى أن يكون حريصاً على ما تصل إليه يداه من مال يستعين به على حرب الأيام إذا ما صار حته بالعداء أو ليساعده هذا الحرص على الاحتفاظ بالإباء ، وهو الخلق الذي تمكن منه وجرى في عروقه مع دماء الحياة .
ولكن الشاعر الحر لم يقيم لما كسب - وإن كثر ما كسب - وزناً . فلم يعرف عنه حرص ولم يعهد عليه ميل إلى الادخار وإنما كان ينفق كل ما وصل إلى يديه وإنه لكثير .



(صورة كتاب الرصافي إلى السيد مظفر الشاوي ينبئه فيه بتسليمه راتبه الشهري الذي أجراه عليه ومقداره أربعون ديناراً)

حتى لقد أعوزته الدراهم وهو في الشام ، فلم يستطع العودة إلى العراق بعده
رحيله من تركيا ، بعد مجده في الصحافة ومجده في التدريس ، ومجده في التمثيل
النيابي ، ودخل ليس بالقليل ، ويضطر الشاعر لبيع نفثات قلبه ، وجواهر
شعره ، وهي كل ما يملك فيبيعها ساعة نافقة في سوق الأدب بعد جهد ومساومة .
وإن بدا على الرصافي في أخريات أيامه شيء من الحرص فلم يكن
ذلك حرصاً وإنما كان اضطراراً لرعاية خادمه وبناته الكثيرات اللاتي
شأن في كنفه وتحت ظلاله مما أشرنا إليه حين عرضنا لصفة الوفاء فيه .

ولم يحرم الرصافي نفسه شيئاً من لذائذ الدنيا ومتعها فنهز مع الغواة ، وأسام
سرح اللهو حيث أساموا ، وهو الذي لم يكون بيتاً يأوى إليه ولم يبق على زوج
سكن إليها ولم يعقب غلاماً ولا جارية .

كان له أن يعوض عما أفقده الزمن إياه في مجالس الأئس ، ومعاقرة السكاس
ولهو برىء ، وغير برىء ! . قال يخاطب نفسه الأمانة بالسوء :

نهيته عن هواك فما انتهيت ولكن قد فعلت كما اشتيت
فيا نفسي عن الشهوات كفي فانت عليك يا نفسي جنيت
وما أمانة بالسوء يوماً سعت في المنكرات كما سعت

ومن أخلاق الرصافي المتطرف ، ترى هذا الخلق في آرائه السياسية
تصريحاً في قوله :

سأقول فيها ما أقول ولم أخف من أن يقولوا شاعر متطرف !
ويتطرب في معاقرة الخمر ، فيسرع إليه السكر ، فيبذره ويبنه خمس دقائق :
إذا ما عقدنا مجلس الأئس بالطلا فبيني وبين السكر خمس دقائق :

جهاراً عن مبادئ العدالة والحرية، ثم قصد إلى سلا نيك وبقي فيها شهراً ثم نقل راجعاً إلى القسطنطينية وسافر منها إلى بغداد . وفي طريق عودته أعوزته نغفات السفر ، وهو في بيروت فابتاع مجموعة شعره (محمد جمال) صاحب المكتبة الأهلية — وقد نظم هذه المجموعة وجمعها العالم الأديب (محي الدين الخياط) في ديوان أصدرته المطبعة المذكورة باسم (ديوان الرصافي) وعاد إلى بغداد ، وقبل أن يستقر به المقام فيها وصلته برقية من إخوانه العرب الذين تركهم في القسطنطينية ومنهم (فهمي المدرس) و (جميل صدقي الزهاوي) وغيرهما يستحثونه على العودة إلى قاعدة الدولة في تركيا بعد أن يسروا له سبيل التحرير في جريدة عربية اسمها (سبيل الرشاد) وكان يصدرها هناك (عبد الله مبعوث آيدين) فلبى الرصافي الدعوة ، وتسلم وظيفته الجديدة ، وظل يحرر فيها نحو سنة وإلى جانب هذا العمل الخطير كان يقوم بالتدريس في المدرسة الملكية العالية، يدرس العربية فيها ويدرس آدابها في مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الأوقاف . وقد طبعت محاضرات الرصافي التي ألقاها في هذه المدرسة عن الخطابة عند العرب في كتاب طبع في تركيا بعنوان (نفح الطيب في الخطابة والخطيب) كما أن مجلة المنتدى الأدبي نشرت بعض محاضراته هناك في الأدب والشعر . وقد بقي الرصافي مدرساً وصحفيّاً حتى انتخب سنة ١٩١٢ مندوباً عن (المنتفق) في المجلس النيابي العثماني، وقد عرض عليه رئيس الاتحاديين ، وكان الرصافي اتحادياً النزعة إذ ذاك النيابة عن بغداد أو غيرها فأبى الرصافي قائلاً : إن هناك من أشرف بغداد ورجالها من هو أحق بها منه . ورضى أن يكون نائباً عن الناصرية (المنتفق) فتم له ما أراد . فأصبح من نواب المبعوثان وبقي في الآستانة طيلة الحرب العظمى الأولى وكان يساكنه السيد عبید الله آيدين الذي عرض عليه الزواج لتهيئة أسباب الراحة والاستقرار لزميله الرصافي ولإبعاده عن مواطن الريب والشبهات فتزوج ثيباً من نساء أزمير شقيقة ضابط متقاعد يدرس في المدرسة الحربية العسكرية ، فبنى بها وسكن في بيت

عقيدته

على أن لي في معرض لشك ربصة

وَرَبِّ يَقِينٍ ناله المتربص

(الرصافي)

ولا بد لنا أن نعرض لعقيدة الشاعر التي شغل بها كثير من رجال العلم والأدب ، ولا سيما في أيامه الأخيرة ، وأصبحت حديث الأندية والصحافة حتى حار الناس في أمره فمنهم من نسبته للإيمان ، ومنهم من ضمه إلى جماعة الزنادقة والملاحدة ، فاختلاف الناس في عقيدته اختلافاً في فيلسوف المعرة (أبي العلاء).

١

ولكي نساير هذه العقيدة منذ نشأتها ، ونعرف ما اعتورها في سائر حياة الشاعر علينا أن نسجل بيتين ، نظمهما الشاعر ونقف عندهما وقفة ، لأنهما المرحلة الوسطى ، أو الحد الفاصل بين نظرتين : أولاهما إيمان وتسليم ، وثانيتهما نظرة حيرة وتردد فيما بدأ من الإيمان والتسليم ، وهذان البيتان :

لقنت في عهد الشباب حقائقاً في الدين تقصر دونها الأفهام
ثم انقضى عصر الشباب وظيئه فاذا الحقائق كلها أوهام
يسجل الشاعر في البيتين : يمانه الذي لقنه في منزله على يداًمه . ومن يلوذ به من أسرته وهو إيمان تقليدي ، اعتقده الشاعر لاعتن بصيرة وتفهم ، ولكنه إيمان لا فضل لعقله فيه . وتدين كسبه بالوراثة ولا أثر لتفكيره في كسبه ،

وشب الشاعر فتلقى هذا الإيمان عن أشياخه الذين رسخوه في قلبه ، وثبتوه بما استطاعوا من أدلة العقل والنقل .

ومضى الشباب ، زمن التعلم والتلقي والتلقين ، فإذا هو يجد هذه الحقائق أوهاما ، ويجد أن ما كسبه في حاجة إلى التثبيت وإعادة النظر .

وإلى هنا لاضير على الشاعر فإننا لا نجد طعنا صريحا في دينه وعقيدته ، وهو إذ يقول ذلك يصور مرحلة التردد والشك ولكنه لم يصرح بنقض هذه العقيدة وإحلال ما ارتضى من العقائد محلها على أن هذه الحقائق التي أشار إليها الرصافي لم يوضحها ، ولسنا ندرى إن كان الشاعر يريد أصول العقيدة أم إنه يرمى إلى نقد ما في البيئة التي يعيش فيها من الترهات والأباطيل والخرافات ، التي غشت الناس في أعقاب الفترة المظلمة ، فجعلتهم يزاولون هذه الخرافات ويحسبون أن لها أساسا من الدين والعقيدة ، فجعلوها حقائق ، وهي أوهام ؟ وهذه الحيرة هي أول مراحل اليقين الذي سيجد الشاعر في تحقيق أسبابه ، ليدلنا على هذه الحقيقة التي اهتدى إليها ورضيها واطمأن إلى اعتناقها :

على أن لي في معرض الشك ربصةً ورب يقين ناله المتربص
ونعود إلى البيتين لنرى حظ الشاعر من الجدل في هذه المقالة ، فهو يقول إنه لقن هذه الحقائق الدينية في عصر شبابه . وعصر الشباب هو عصر القوة وعصر الفتوة في الجسم والعقل ، ولو قال الشاعر إنه لقن هذه الحقائق في عصر الطفولة لكان له عذر فيما ذهب إليه من القسر والإكراه ، بدل الشباب الذي هو عهد الطوعية والاختيار .

على أن وصفه عهد الشباب بالخفة والطيش لا يكاد يلتئم مع الإيمان الذي لفته إذ التلقين يستلزم الهوادة والاستسلام لا الطيش ولا النزق اللذين رمى الشاعر بهما نفسه فنحن أمام اضطراب وتناقض وكأن الشاعر كان يريد أن يقول فلم يقل شيئا ، ولم يأت بجديد بل هي محاولة الهدم الذي لم يقم على أساسه بناء جديد .

وعندى ما منى به الشاعر من إدمان القراءة والاسراف فى الاطلاع هو الذى زج به فى هذا المضيق الوعر ولا سيما فى هذا العصر الذى فتن فيه الناس ببعء الصيت وذبوع الشهرة فكان التشكك سلاحهم الذى صبوا به إلى هذه الغاية حتى يعدم الناس فى المفكرين وأولى الرأى ، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى هذه (الحقائق الوهمية) بعد أن يقضوا وطهرهم ويسموا إلى غايتهم ولا يعجزنا فيما نذهب إليه دليل ، ولا يعوزنا تمثيل بأقطاب العلم والأدب فى عصرنا الذى نعيش فيه .

٢

نشر الرصافى « رسائل التعليقات » وهى ثلاث رسائل كتبها تعليقا على ثلاثة كتب أصدرها بعض الكتّاب فى السنوات الأخيرة وهى وإن كانت مختلفة الموضوعات ، فإنها تجمعها جامعة واحدة وهى الجامعة التاريخية . تبحث الرسالة الأولى فى الرد على بعض ما جاء فى كتاب « التصوف الإسلامى » الذى ألفه الدكتور زكى مبارك ، وتبحث الثانية فى الرد على بعض ما جاء فى كتاب (النثر الفنى) للبولف نفسه ، أما الرسالة الثالثة فقد تناولت الرد على بعض ما ذكره المستشرق الطليانى « لئون كاتانى » فى كتابه التاريخ الإسلامى^(١)

والجزء الأول من هذه الرسائل هو أخطرها شأنا ، وهو الذى تناول فيه مسائل الدين الإسلامى جميعا ومعتقدات المسلمين كلها ، وتأولها التأول الذى ارتآه .

وأهم ما حلاله وأحلى ما أهمه القول (بوحدة الوجود) عند متأخرى المتصوفة وفلاسفة الإسلام القائلين بالكشف وفيما وراء الحس : يريدون أنه

(١) مقدمة رسائل فى التعليقات بقلم الشاعر نعمان ماهر السكنعانى .

تعالى الموجود المطلق وأن غيره لا يتصف بالوجود أصلاً حتى إذا قالوا ،
(الإنسان موجود) فعناه أن له تعلقاً بالوجود وهو الله تعالى .

ومن أقوالهم في ذلك : (إن جميع العوالم كلها على اختلاف أجناسها وأنواعها
وأشخاصها موجودة من العدم بوجود الله تعالى لا بنفسها محفوظ عليها الوجود
في كل لحظة بوجوده تعالى لا بنفسها وإذا كانت كذلك فوجودها الذي هي به
موجودة في كل هو وجود الله تعالى لا وجود آخر .

فالعوالم كلها معدومة من جهة نفسها (بعدمها الأصلي) وأما من جهة
وجود الله تعالى فقط فموجودة وجودها الذي هي به موجودة ، وجود واحد
هو وجود الله تعالى فقط ، ولا وجود لها من جهة نفسها .

إن الوجود الحق عين ذات الحق تعالى وهو وجود واحد ، لا ينقسم ولا
يتبعض ولا يتجزأ ولا ينتقل ولا يتغير ، ولا يتبدل أصلاً ، وهو مطلق عن
الكيفيات ، والكميات ، والأماكن والأزمان والجهات ولا يتصور فيه
الحلول في شيء ، إذ ليس معه شيء سواه وإنما جميع الأشياء موجودة بوجوده
الذي هو عين ذاته ^(١) .

وهم يسمون هذا وأشباهه (علم الحقيقة) وأشار إليه الإمام الغزالي
حيث قال :

(العارفون بعد العروج على سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا في
الوجود إلا الواحد الحق ، واستهوت عقولهم الفردية ، فصاروا كالمبهوتين
فيه ، ولم يبق فيه متسع لذكر غير الله . ولا لذكر أنفسهم أيضاً ، فسكروا
سكراً وقع دونه سلطان عقولهم ، فقال بعضهم (أنا الحق) وقال الآخر

(١) الأستاذ محمود البشبيشي في مذكراته في علم الكلام نقلاً عن الشيخ
عبد الغنى النابلسي من كتابه (إيضاح المقصود في معنى وحدة الوجود)

(سبحاني) وقال غيره : (ما في الجبة غير الله) فلما خف عنهم سكرهم ، وردوا إلى سلطان العقل ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد ، بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان سكنا بدنا
فاذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا
ومن أعلام القائلين بوحدة الوجود (محي الدين بن عربي) و (ابن الفارض)
و (أبو مدين التلمساني) الذي عبر عن المذهب وأدلته في هذا الشعر :
الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالسكل دون الله إن (حقته) عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال
والعارفون فنوا به لم يشهدوا شيئاً سوى المتكبر المتعالى
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا في الحال والماضى والاستقبال

والرصافي يرى التصوف مذهباً فلسفياً ، ويرى القائلين بمثل ما سبق من الأقوال فلاسفة مفكرين لا عباداً متزهدين ، وإن بدا عليهم شيء من الزهادة فتلك وسيلة لتصفية الفكر ، وإعداده لفهم هذا المذهب واعتناقه أعنى مذهب وحدة الوجود ، ويقول في ذلك (إذا قلنا التصوف فلا نعني به سوى مذهب قلنا الصوفية فلا نعني بهم أهل الخانقاه والتسكية ، ولا هؤلاء الدراويش من لابسى الصوف والمرقعات ولا هؤلاء المشعوذين من حاملي الدبابيس وضاربى الدفوف وناطحى الجدران بالرموس . . . وإنما نعني بهم رجالاً من المسلمين أولى الأفكار الحرة والنفوس الزكية الطاهرة القائلين بوحدة الوجود) (١)

ومع إصابة الرصافي لحدا ما في قوله الأخير إلا أننا يجب أن نتذكر كما يقول جولد زيهر (لا يمكن عد الصوفية مذهبا منظما في الإسلام له نظام واحد بل ظهر بأشكال مختلفة ، ولتؤسس الطرائق الصوفية أثر في هذا التباين)^(١) والرصافي حين يقول بهذا الرأي وهو وحدة الوجود يقول : (ليس حديثي هذا بالمرجم ولا اعتقادي بالمتوهم ، فقد اتضح لي كالشمس في رآد الضحا أن محمداً « رسول الله » جاء بحقيقتين ناصعتين : إحداهما وحدة الإله والثانية وحدة الوجود . أما الأولى فقد قالها بمنطوق العبارة ، لكي يحرر بها الناس من كل عبودية لغير الله وهي : « لا إله إلا الله » ، وأما الثانية فقد قالها بمفهوم العبارة لكي يوصل بها أولى المواهب الفطرية العالية إلى الكمال النفساني الذي لا يتم إلا بمعرفة الله ، وهي « لا موجود إلا الله »)^(٢) ويأخذ الرصافي في عرض جملة من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ويؤولها بما يوافق هذا المذهب ويؤيده ، وقد يجمع به القلم في القماس هذا التأيد .

هذه هي وحدة الوجود وهذا هو المذهب الذي دافع عنه الرصافي في تعليقاته .

وقد أثارت هذه التعليقات نائرة جمهور المسلمين في بلاد العربية ولغظت به الصحف والمجلات وقتاً غير قصير ولم يعدم الرصافي مؤيدين يذهبون إلى أن يقول كل إنسان ما شاء ويعتقد ما يشاء ويرون أن تعقب أمثال الرصافي فيما ذهب إليه إنما هو حجر على العقل وقتل للنواهب ووأد للحرية في العقيدة والقول في القرن العشرين ومعارضين أشفقوا على المؤمنين أن تؤثر مثل هذه الأقوال في معتقداتهم ولقد اقتحم الرصافي بين هؤلاء وهؤلاء ميدان الجدل فما شفي غلة ولا تقع صدى .

(١) الدكتور عبد العزيز الدوري في محاضراته التي ألقاها في نادي القلم العراقي عقيب ظهور رسائل التعليقات . (٢) رسائل التعليقات : ص ١٢

ولسكنه كما قلنا قرأ ، وقرأ كثيراً وتأثر تأثراً ليس كثيراً بما قرأ ، يدلنا على قلة هذا الأثر في عقله وعقيدته أنه كان وقتياً لم يلبث أن تبخر مع الأوهام وعادت الحقيقة الراسخة إلى موطنها من قلبه وعقله .

٣

والرصافي مع إيمانه بالبعث لا يؤمن بالصفة التي قيل إن الإنسان يبعث عليها ، ويرى أن البعث من المغيبات التي يكتفى في الإيمان بها بالنقل إذ لا مجال للعقل في إدراك الصورة التي يبعث عليها الإنسان .

والإيمان بالبعث عند الرصافي مع ذلك معقول مقبول : (لأن الغاية المقصودة منه هي اعتقاد المؤمن بيوم الدين الذي هو يوم الحساب والجزاء ، ذلك اليوم الذي فيه يجازى المحسن ويعاقب المسيء ، ولا ريب أن الإنسان إذا كان مؤمناً بيوم الدين إيماناً صادقاً ، اجتنب الشرور وكف عن العدوان ، وبذل الجهد في الأعمال الصالحة ، وهذا هو كل ما تريده جميع الأديان في كتبها السماوية ، وجميع الحكومات في قوانينها الأرضية ، وعليه فلا مزية في أن الإيمان بالبعث يكون من أهم الوسائل المؤدية إلى السعادة في الحياة الدنيا لأن المؤمن بيوم الجزاء يستحيل عليه عقلاً وعادة أن يرتكب الشرور وأن يعمل غير الصالحات . ومتى كان كذلك كان صالحاً للحياة الاجتماعية في الدنيا بكل ما اشتملت عليه من حقوق وواجبات

وتالله إنى لا أرى في الوسائل العلمية والأدبية وسيلة تؤدي إلى إصلاح الإنسان في حياته الاجتماعية أنفع ولا أنجح ولا أروع من إيمانه بيوم الجزاء المترتب على إيمانه بالبعث ولا ريب أن الفضل كله في ذلك راجع إلى دين الإسلام القائل بالبعث دون غيره من الأديان)

هذا ما قاله الرصافي في رسائل التعليقات عن كل هذه المعاني السامية وأنت ترى أنه غلب الغاية الاجتماعية ، ولا شك أن من جملة الغايات الكبرى التي

ترى إليها الأديان المنزلة صلاح المجتمع وإزالة أسباب الفوضى والاعتداء فيه
أما مسألة بعث الموتى بأرواحهم وأجسادهم ، فرأيه أنه عقيدة قائمة على
الإيمان الصرف ، وليس للعقل فيها مجال ، ولا يخفى أن الإيمان بالغيب يتسع
لأكبر منه وأبعد ، وبما لا غناء فيه إقامة الأدلة العقلية على أمور لا تقوم
إلا بالإيمان في جميع الأديان ، وليس الدين في بعض نواحيه إلا إيماناً بالغيب كما
جاء في القرآن الكريم : (الذين يؤمنون بالغيب) فالإيمان بالغيب هو من
أسس الأديان كلها . وعقول البشر عاجزة عن إدراك بعث الموتى من قبورهم
شعشعاً غبراً ينفضون التراب عن رموسهم .

هذه آراء الرصافي استقيناها مما كتبها بخط يده ، ولعل في هذه الأقوال
الضافية الصريحة ، ما يزيل كل لبس وغموض في إيمان الرجل وعقيدته ، مع
ما عرفناه من عدم رضاه بغير إيمان من ورائه عقل يؤيده ، وفكر يشد أزره
ويعاضده

٢

وقد لعل الرصافي ولوعاً شديداً بحكيم المعرة وفيلسوفها (أبي العلاء) وكتابها
(في سجن أبي العلاء) يرينا هذا الولوع والإعجاب ، فقد نصب نفسه للدفاع
عن أبي العلاء ورد السكيد عن إيمانه ، وشرح أفكاره . وتحييد نظرياته .
وغير خفي أن هذا الولوع ، وهذا الإعجاب دعا جماعة من الناس إلى
تبعه وتعقبه في كل ما يكتب ، والذهاب بكلماته إلى غير ما يقصد منها ، فمن
ذلك المحاورة الخيالية بين أبي العلاء وبينه ^(١) (وقد ذكرت له « للمعري »
أحد العظماء من البشر بما أوتي من سؤود وشرف فقال لي منغضاً رأسه
ومنغضياً عينه :

وأشرف من ترى في الناس قدراً يعيش الدهر عبد فم وفرج
فماج عليه من هاج من الناس وثاروا ووجدوا في هذه الرواية الخيالية مطمئناً
يشبعون منه نهمهم فرأوا أنه يقصد بقوله (أحد العظماء) محمداً رسول الله
صلى الله عليه وسلم. ولم يطق الرصافي صبراً على هذه الفرية فدحضها عند من
يهمهم التثبت من أمر طويته، وحقيقة عقيدته، واتهم مبتدعيها بمرض نفوسهم
وعمه بصائرهم، ورد بأنه يرى أن العظماء من البشر إنما هم عظماء بالنسبة إلى
سائر الناس، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما هو عظيم بالنسبة إلى
عظماء البشر لا بالنسبة إلى سائر الناس، وأن هذا الرأي في رسول الله لم يقله الآن
بل هو مدون في كتابه منذ أكثر من عشر سنين. فلو كان يقصده في هذه
المحاورة الخيالية لما قال أحد عظماء البشر (١)

ثم هو يؤكد لكل من يدرك معنى صحيحاً للشرف في ذهنه، سواء اتصف
به أم لم يتصف، أنه في هذه المحاورة الخيالية عند ما قال (أحد العظماء) لم
يخطر على باله، ولم يدر في خلده أي شخص معين من البشر، لامن الأولين
ولامن الآخرين، وإنما جل مقصوده، هو أن يذكر لأبي العلاء هذا البيت
الناطق بحقيقة، لا يمتري فيها كل من عرف نفسه أنه من عباد الله.

ويرى بعد كل هذا أن أبا العلاء لم يأت في هذا البيت بشيء من عنده،
وإنما أخذ هذا المعنى من الحديث النبوي المشهور (إنما يسعى المرء لغاريه :
بطنه وفرجه (٢))

ذلك مارد به الرصافي كيد معارضييه، ودحض به حجة الذين كانوا

(١) من رسالة خاصة بعث بها الرصافي إلى أحد خاصة أصحابه في (١٨-٢-١٩٤٤)
نشرت في مجلة (الوادي) البغدادية من ٢ العدد ٦ السنة ٢ الصادر يوم السبت (٢٣
آذار سنة ١٩٤٦).
(٢) المصدر السابق.

يتسقطون كلمات تصدر عنه ، ثم يؤولونها تأويلا يرضونه ولا يرضاه الرصافي .
ولقد كان ما طبع عليه الشاعر من الاعتزاز بنفسه ، والاعتداد برأيه هو
الذي جعله يقتنى مقتفيه بالرد والإيضاح ، ودحض ما يعرض من شبه في
شعره وفي آرائه ، رده ثرا كما رأيت ، ورده شعرا في هذه الآيات :

أيا بعداد لا جازتك سحب ولا حلت بساحتك الجدر
تطاول ساكتك على ظانا فضاق على مغناك الرحيب
وكم نطقوا بالسنه حداد يسيل بها من الأشداق حوب
رمانى القوم بالإلحاد جهلا وقالوا عنده شك مريب
وهكذا يعد هذه الحملات عليه ظلها وحوبا ، وعلل لذلك بجهلهم ، وغرقهم
في بحور الضلال والخرافات ، ثم ينكر عليهم معرفة طويته وهم المحجوبون
عن الغيب ، ثم يقول إن له موقفا معهم أمام الله ، ويعلم إيمانه صريحا بأن
الله مطلع رقيب :

ألا يا قوم سوف يجد جدى وسوف يخيب منكم من يخيب
فمن ذا منكم قد شق قلبي؟ وهل كشفت لكم في الغيوب؟
فعند الله لى معكم وقوف إذا بلغت حنا جرها القلوب
يقينى شر فريتكم يقينى بأن الله مطلع رقيب

٥

ولعلنا بعد كل ماوردناه لانجد أنفسنا في حاجة إلى تعمق كثير في حقيقة
طوية الشاعر ومعتقده ، فقد كفانا مؤونة البحث وأغنانا عن تتبع النصوص
الواردة في شعره أو في ثره ، ولو فعلنا ذلك لوجدنا كثيرا من الآيات التي
لا يلتئم ظاهر معناها مع صدق الإيمان وصحة العقيدة .

فمن ذلك قصيدته التي سماها (حقيقة السلية)^(١) وفي وصفه هذه الحقيقة

بالسلب ما يؤيد قولنا آتفا من أنه وقف موقف المتشكك الذي يريد أن ينقض الحقائق التي أخذها بالتلقين فوقف منها هذا الموقف السلبي :

أحب صراحتي قولاً وفعلاً وأكره أن أميل إلى الرياء
فما خادعت من أحد بأمر ولا أضمرت حسوا في ارتغاء
ولست من الذين يزون خيراً بإبقاء الحقيقة في الخفاء
وهذه الأبيات وما يليها أكبر الظن بالرصافي أنه أنشدها في حال ثورة
نفسية عنيفة على العقائد ورجال الدين الذين لم يرقه إذ ذاك ما كانوا يفعلون
أو لعل الرصافي وقد ولع بأبي العلاء ولوعاً شديداً اقتفاه في تسجيل جميع
خطراته فجاءت مزيجاً من متضاربات ومتناقضات .

وآخر ما قرأنا للشاعر وصيته . وفيها القول الفصل والله تواب رحيم
وقد أثبتنا الوصية كاملة ، وسترى فيها ما ثبت إيمانه بالله ورسوله إيماناً لا يتطرق
إليه الريب ولا يتسرب إليه الشك .

وصية الرصافي

١

إلى إخواني الكرام

أراهم يراجعون علي المواقف باسم الدين ، وما اظنهم يتركونني حتى يقدموا في الحياة
وليس لي من التبعي اليه سوى الله وكفى بالله حافظا وحسيبا ، وليس لي
من الاقارب من اعهد اليهم بوصيتي سوى معارف من الاصدقاء الاحرار من
هذا البلاد ، فلذا كتب هذا اليهم عسى ان يقوموا بتنفيذ ما واهم من الله الاجر .
كل ما كتبت من نظم ونثر ، لم اجعل هدفه منه منفعة الشخصية ، وانما
تخصت به منفعة المجتمع الذي عشت فيه ، والقوم الذين انا منهم ونشأت
بينهم ، فلذا لم اوفق الى شيء في حياتي يسي بالرفاهية والسعادة في الحياة .
لا املك شيئا سوى فراشي الذي انام فيه . وثيابي التي البسها ، وكل
ما عد ذلك من اللذات المحقيرة الذي في مكنتي . ليس لي بل هو مال
الله الذين ياكلونني .
كل من اعتدى علي في حياتي فهو في حل مني ، وان كان هناك من
اعتدى انا عليه فهو بالخيار ان شاء الله عفا عني ، والا قضى بيني وبينه
الله الذي هو احكم الحاكمين .

انا والله الحمد مسلم مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله ايمانا
صادقا لا اراي فيه ولا ادجي ، الا اني اخالف المسلمين فيما
أراههم عليه من امور يرونها من الدين ، وليست هي منه الا بمنزلة .
الفتور من اللبابة ، ولا يهمني من الدين الا جوهره الخالص . وغايته
المطلوبة التي هي الوصول الى شيء من السعادة في الحياة الدنيوية والاجتماعية
والحياة الاخروية ما امكن الوصول اليه من ذلك بترك الشرور و
وبعمل الصالحات ، وكل ما عد ذلك من امور الدين فهو وسيلة

تفضل معالي السيد كامل الجادرجي فأغارنا هاتين الصورتين عن الأصول
الذي كتبه الرصافي بخط يده ، فلا يسعدنا إلا أن نسجل لمعانيه أجزل الشكر .

وصية الرصافي

٢

اليه « ذرا محبطة له لينه الا

بما انني عبد بن صالح الذي هو معاو في علي العيش في مكنتي ،
كنت انا السبعة في زواجه ، وقد ولد له بنات صفار ، وليس له
من اسباب المعيشة والكتب ما يجعله قادرا على اعاشته ، ارجو
من اهل الخير في الدنيا ومن اصديقي الكرام الاحرار ، ان يسعوا في
ايجاد شغل له ينسب به ما يقوم باعاشته . وان الله تعالى لا يضيع
اجر المحسنين .

كل ما عهدي من الكتب المخطوطة التي كتبتها انا ، تباع لمن يرغب
في شرائها على ان يكون له حق الطبع والنشر ، ولا يكون له فيها سوى الاكم
ويدفع المال الحاصل من بيعها الى بنات عبد .
ادفن ناي مقبر ذ كانت ، على ان يكون قبري في طرف منها .
وان يكون في ارضي مظلمة وهي التي لم تحفر قبلا .

ان كانت الحياة نعمة سابقة من الله على عباده ، فان الموت
رحمة واسعة منه عليهم ، فالموت هو رحمة الله الواسعة التي
وسعت كل شيء ، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام

المؤمن بالله وحده

لا شريك له

معروف الرصافي

شعر ٤

١

في سبيل الوطن

ألا إنما حرية العيشِ عادةً مني كل نفسٍ وصلها ووفودها
يُضيء دجنات الحياة جبينها وتبدو المعالي حيث أطلع جِيدُها
لقد واصلت قوماً وخلت وراءها أناساً تمنى الموت لولا وعودها
وقد مرضت أرواحنا في انتظارها فما ضرَّها ، والهفتا ، لو تعودها؟

(الرصافي)

في العهد العثماني

* * *

لئن عاش كثير من الشعراء في هذا العصر، وعاش شعرهم في الفترة المظلمة، فإن معروفًا عاش بشخصه وشعره في هذا العصر واتخذ من سماته سمات لشعره، فكان طائر الغريد، الذي يردد آياته في الصباح والمساء، ويرسل ألقانه في أجواز الفضاء، فاستوحى لحنه من الحياة الجديدة الزاخرة بصنوف التجديد في الماديات والمعنويات.

بدأ الرصافي حياته في أخريات القرن التاسع عشر، والشعراء يصعدون عن نزعة واحدة ويوقعون لحنًا واحدًا على مزهر واحد أصابه البلى، أغراض تافهة لا تمثل حياة الأمة ولا تعبر عن غاياتها وأهدافها التي تصبو إليها من خلع ربقة الاستعباد، والثورة على الأوضاع القائمة والحكام الغاشمين، والثروات المستنزفة والجهل النافر ألويته على ربوع العراق وغيره من البلاد العربية، والفاقة التي تسود أكثر طبقات الأمة، وتذرهم في ضلالهم يعمهون. والولاة يفكرون في كل شيء إلا الاهتمام بما تعانيه هذه الأمة البائسة التي أسلمتها الأيام إلى الذل والهوان.

وهناك طبقة قليلة العدد ولكنها تتمتع بكل ما بالعراق من مال ومنصب وجاه، ورجال هذه الطبقة هم أولو الأمر والنهي وأصحاب الحل والعقد في البلاد، هم أولئك الولاة والعمال الذين تغدق عليهم تركيا الرواتب والرتب ولكنهم لا يقنعون بها للإلفاق على حاجاتهم، والانصراف إلى ما تستلزمه وظائفهم من العناية والسهر على خدمة الأمة التي وكل إليهم العناية بها.

ولكنهم يقضون مدة ولايتهم وعماليتهم في جمع مال يضمن لهم غنى الحياة إذ هم مهذبون دائماً بخطر الخلع والإبعاد عن المنصب والجاه والمال. وأكثرتهم ذكاء وأبعدهم نظراً من يشتري هذا المنصب أو يشتري البقاء فيه، مامت له الأيام في حبس البقاء. ولا سبيل إلى هذا الأمل المحبب، إلا إرضاء الباب العالي وما أدراك ما الباب العالي؟ وما السبيل إلى إرضائه؟ أهو الإخلاص للوظيفة، والقيام بمقتضياتها في السلم، من توفير السعادة في ربوع البلاد التي يتولونها، وصون الأمن في ربوعها. ونشر العلم بين ظرائر سكانها، ورعاية العدالة والإنصاف، وبسط الرغد والرفاه كما تقتضي كل أولئك الإنسانية، وحقوق الولاية، وكما يحتم الدين القويم. الذي يحكمون البلاد باسمه وكما يليه الواجب الملقى على عاتق هذا الذي يتسم مقعد رسول الله ومقعد خلفائه الراشدين؟؟ والقيام بمقتضياتها في الحرب، من إمداد الدولة بالرجال والعتاد إذا دعا داعي الجهاد في سبيل الدين، ولذود الطامعين، ومنتهكي الحرمات، والعائنين في الأرض بالفساد؟

ليس كل أولئك، ولا شيئاً من أولئك، ولكن هناك وسيلة فريدة يعرفها الراسخون في علم الولاية، العارفون ما يرضى الباب العالي، وما يغضب الباب العالي 1

وقوام تلك الوسيلة، التقدم بالهدايا والألطف والتحف، وأنى لهؤلاء الولاة بالهدايا والتحف والألطف؟ إنها ستؤخذ قسراً أو سيؤخذ ثمنها كرهاً من أهل البلاد الذين ليس عليهم إلا الغرم، والمستعبدون منهم الغنم، وليس لأبناء العراق، نصيب من حكم أنفسهم، وهؤلاء الولاة، المستبدون يعيشون عيشة البذخ والإسراف، على خطام الموتى من أبناء البلاد.

وبقية هذه الطبقة القليلة، جماعة قليلة أيضاً، من أبناء البلاد هم أثارة من رجال العلم، وبقية من رجال الدين، وهؤلاء يحظون بقدر محدود، من الحياة

المناسبة بالنسبة ، إلى غيرهم من إخوانهم أبناء العراق (١)

تلك حال العراق إذ ذاك ، ظلم صارخ ، وفتنة في الأرض وفساد كبير ،
والذين يقال إنهم الشعراء الذين هم لسان أمتهم ، المعبر عن شكاتها ، المطالب
بحقها لا تجد أحدهم ، إلا مادحاً والياً ، أو مثنياً على عظيم ، أو متوجعاً من
حسابة ، أو واصفاً مجلس هو تدار عليه فيه ابنة الخان ، أو باكياً الدمع والأطلال
وهو في كل ذلك مقلد للسابقين ، تقليداً لا استقلال فيه ، وصدى لآحياة فيه .
ومن المجالين في هذه الحلية عبد الغفار الأخرس ، الذي عرف بمديحه ووصفه
وغزله ، في ثوب تقليدي ، لا أثر فيه للجدة . ولا أثر لأمانى بلاده فيه ثم
عبد الباقى العمرى ، الذى عرف بموالاته للمولاة ، ومدائحه للخلفاء وآل
البيت فى أسلوب بديعى ، يظهر عليه التكلف والصنعة ، ثم محمد سعيد الحبوبى (٢)
الذى اشتهر بموشحاته الغنائية ، وشعره الوجدانى ، وكاظم الأزرى وحيدر

(١) الواقع أن الأتراك لم يرسخ حكمهم إلا فى بعض المدن العراقية الكبرى
كبغداد والبصرة والموصل وأما المدن الصغرى والأرياف فكانت الحكومة
فيها من قبل زعماء القبائل وبعض الأمراء الاقطاعيين وذلك وفق النظم
القبلية ، وقبلما استتب الأمن والطمأنينة على عهد الأتراك فى أرياف العراق
شمالاً وجنوباً حتى أن جباية الضرائب كانت تستدعى فى كل سنة تجهيز حملة
عسكرية كبيرة ولا يمكن بدون ذلك استيفاء الضرائب المطلوبة كما أنه لم يكن
لغة التركية ولا للأدب التركى شأن يذكر إلا فى بعض المدن الكبيرة المذكورة
فكانت العربية لغة الأدب والتعليم داخل البلاد : (العلامة الشيبى)

(٢) الحبوبى شاعر العشق المطلق والحب الروحى الطاهر ولا يدانيه من
معاصريه شاعر فى هذا الشأن ولا فى غير معاصريه فى هذه القرون الأخيرة
وقد ترفع بالشعر والأدب إلى المنزلة اللائقة بهما فلم يكن من المادحين إلا فى
الاخوانيات ولم يكن من شعراء المناسبات : (العلامة الشيبى)

الحلى ، ويكاد يكون شعرهما مقصوراً على رثاء الشهداء من آل بيت النبوة
 الكريم ، مع إغراق في الصنعة ، وتكلف للبديع .
 وبين هذه الأصوات ، صوت خافت ، انطلقت به عقيرة شاعر بدوى
 هو عبد الحميد الشاوى الحميرى ، يغرد بالعروبة وأمجادها ، وبكاء ما انتهى
 إليه أمرها من الصنعة والهوان ، وهو أعرق في منزعه البدوى البعيد عن
 الصناعة وأشبه بالبارودى في فحولته ، ولعله أسبق شعراء العراق في عهد
 الأتراك إلى التغنى بالقومية العربية ، وذكرىات أجمادها ، غير أنه كان مقلداً ،
 وصوته كان خافتاً ، فلم يؤثر لاهو ولا غيره من أهل جيله في الطبقة التى
 تلتهم (٢)

ومن هذا يظهر أن شعراء العراق فى القرن الماضى ، لم يفكروا فيما تعانيه
 أوطانهم من صنوف الاستعباد ، والانحلال السياسى ، وأن واحداً منهم لم
 يرفع عقيرته ليكون من دعاة حرية وطنه ، وتحطيم قيوده ، والثورة على
 مستعبدية ، إذا استثنينا هذا الصوت البدوى الخافت الضعيف !
 على أن هناك قلبين امتلاً بسلامة ، وروحين فاضاً حماساً ، ولسانين أرسلتا
 شعر القوة ، فى غير ضعف ولا هواة .

وأول هذين الصنوين جميل صدقى الزهاوى الشاعر الفيلسوف الذى أرسل
 الشعر الحر فى عصر لم يعرف الشعراء فيه معنى الحرية ، وهو الذى انطلق
 بشعر السياسة والحماسة ، يحرض هذه النفوس الذليلة ، المستكينة على الثورة
 وتحطيم القيود ، وفك الاغلال .
 أستمع إليه فى هذا التحريض السافر .

لهف نفسى على رفات شباب طحنهم طحن الرمحى النائبات
 لو سألت الرفات : ماذا دهاه ؟ لاشتكى ظلم الولاة الرفات

فوق خد البيض الحسان سطور كتبت بالدموع فيها شكاة
أرهقوكم ذلاً وأنتم سكوت أين أين الأحرار؟ أين الأباة؟
ثم استمع إليه مرة أخرى يخاطب السلطان عبد الحميد وهو في قاعدة
ملكه وعاصمة سلطانه وهو معدود في رعاياه ، المشمولين برعايته ، الذين
يعيشون على ما يصيبونه من تقرّيبه وبره :

أيامر ظل الله في أرضه بما نهى الله عنه والرسول المبجل ؟
فيفقر ذا مال وينفى مبرأ ويسجن مظلوماً ويسبي ويقتل ؟
تمهل قليلاً لا تغظ ، إنه إذا تحرك فيها الغيظ لا تتمهل !
وأيديك إن طالت فلا تغترر بها فإن يد الأيام منهن أطول
هذا لحن جديد يوقع على وتر الوطنية والإحساس بما يكابد الوطن
الكليم من صنوف الحيف والعسف . ولكنه لحن القوة التي لا تعرف المواربة
ولا تقر المداجاة ولا تعترف بالنفاق .

وثانيهما شاعرنا الرصافي الذي سار مع الزهاوى جنباً لجنب يرددان لحن
الآلم ويرفعان بشعرهما علم الثورة ، ويشعلان النفوس لتعمل وتعمل ، وتظفر
بحقها في الحياة ، وليصل أصحابها إلى ما وصل إليه غيرهم من سكان المعمورة ،
وما كان سكان العراق نسل العرب الأجداد ، وأبطال الجهاد بأقل من غيرهم
استحقاقاً للحرية السياسية وحكم أنفسهم بأنفسهم .

عاصر الرصافي عصر الترك في فترتيه البغيضتين : فترة الاستبداد وفترة
الدستور الذي بشر الأمم المحكومة بالعثمانيين بالحرية التامة فلا يبقى للخليفة
إلا التبعية الشكلية يبقى منها العرض دون الجوهر والاسم دون الرسم .

وقد يندر أن نجد للرصافي تصيدة مستقلة في السياسة ، في الفترة الأولى
فلا تجد من شعره ما عاج الانحطاط السياسي في صراحة وإن كان ذلك لا ينفي
أنه عبر في ثنايا شعره عن انحطاط البلاد في شؤونها العامة نتيجة لعدم الاستقلال

السياسي ، وذلك عجيب من الرصافي أن يقف هذه الوقفة في مطلع حياته وعنفوان شبابه . وماتكاد تشرق على البلاد بارقة الأمل حتى تجد الرصافي في عهد الدستور إنسانا آخر يختلف عن الرصافي قبله ، وفي الآيات الآتية تجد الانتقام والتشفي من السلطان عبد الحميد . ولكن بعد خلعه !

لقد نقص اليمين وخان منها فداق جزاء من نقص اليمين
وقد كانت به البلدان تشقى شقاء من تجبره مهينا
فكم أذكى بها نيران ظلم وكم من أهلها قتل المئينا
وكان يريد من سفه رحاها بجمعجة ولم يرها طحيننا
وقد كانت به الأيام تمضي شهورا والشهور مضت سنينا

ثم يستطرد في ذكر الآلام التي عانتها البلاد التي كتب عليها أن تذلل للسيادة العثمانية وأن تكابد الشقاء المهين وأن تعاني الظلم الفادح وأن تسفك دماء أبنائها الذين يحاولون أن ينادوا بالحرية والانفكاك من هذه القيود .

ثم يقول إن هذه السنوات العجاف كانت تشاقل وتثاقل ، حتى أصبحت الأيام شهورا والشهور غدت سنين . وإليك أبياتا من قصيدة أنشأها عقب خلع السلطان عبد الحميد وإرساله سجيناً إلى سلا نيك وسماها (وقفة عند يلدز) قال يخاطب القصر :

كنت مأوى العلامشار الدنيا مهبط العز مصدر الإذلال
كنت جبا وأى جب عميق بالعا للنفوس والأموال
مورد الحائنين كنت وكانت منك تدنى مطامع العمال
إلى أن يقول :

قصر عبد الحميد أنت ولستكن أين يا قصر أين عرش الجلال ؟
أين خاقانك الذي كان يدعى قاسم الرزق باعث الآجال ؟
ومنها .

قد تخونتنا ثلاثين عاماً جئت فيها لنا بكل محال

تلك أعوام رفعة للأداني تلك أعوام حطة للأعالي
تلك فيما جرت به نقطة سحر داء تسقى بجمهة الأجيال

ويستطرد الشاعر إلى أن هذه الفترة فترة خلافة عبد الحميد ، كانت عنواناً للعسف الذى لا يعرف شيئاً يسمى العدل ، وأنها أرضعت الزمان عاراً ، وسقته شناراً ويصف الوجل الذى حل بالنفوس فخرمها نعمة الأمن والسلامة ، فكل حر خائف أن يعتال ، وأن تستصفي أمواله وأن تعذب ذراريه ، وأن هذه النفوس التى أعمل فيها القتل والتعذيب قد عرجت إلى السماء وترقت إلى ذؤابة أعلى كوكب جوال ، ثم قذفت شهباً متفجرة فأحرقته هذا الطاغية وصعقته .

كيف ينسى أبناء البلاد هذه الخطوب التى أحفظت النفوس وأحقدت القلوب ؟

يوم كنا وكان للجهل حكم خاذل كل عالم مفضال
أمر من عتوه كل أمر يغرس البغض فى قلوب الرجال

فالفساد الذى تسلط على النفوس والكرامية التى تمكنت فى قلوب الناس فقطعت بينهم أواصر الأخوة وهدمت دعائم الوطنية إنما بعث كل ذلك الجور والجهل . فلم يبق للدين من حرمة ولم ترع للعلماء ذمة وامتير كل حكم قائم على مثل ذلك الانحلال والتردى والسقوط والزوال .

ولا يظنن ظان أن الرصاصى حين يذكر عبد الحميد الخليفة المخاوع يعنى فرداً وإنما يعنى نظاماً قام على هذه الأسس من الطغیان وما جر إليه من الفوضى والآلام ، إوان خلفاء العثمانيين وساستهم جميعاً أمثال لهذا الجبار العنيد :

ليس عبد الحميد فرداً أولسكن كم لعبد الحميد من أمثال !

وهذه قصيدة أخرى دعاها (تنبيه النيام) لا يذكر فيها عبد الحميد ولا غيره من سلاطين آل عثمان بل ينحى فيها باللائمة على البلاد وساكنيها ويرميهم

بالخور وضعف الهمة والتفكك وانقسام الرأي بما أطمع فيها المحتل الغشوم :
 أما آن أن يغشى البلاد سعورها وينذهب عن هذى النيام هجودها؟
 متى يتأتى فى القلوب انتباهها فينبجأ عنها رينها وجهودها؟
 ويصرح بحاجة بلاده إلى زعيم باسل ليقف سعى الذئب فى حماها
 بالفساد .

أما أسد يحمى البلاد غضنفر فقد عاث فيها بالمظالم سيدها
 ومثل هذا المعنى ما صرح به فى قصيدة أخرى عنوانها (إيقاظ الرقود)
 وإنك لترى الشبه قويا بين العنوانين غير أن الأولى يغلب عليها الطابع السياسى
 والثانية الطابع الاجتماعى . قال مخاطبا بغداد :

تتابع الخطوب عليك تترى وبدل منك حلوا العيش مرا
 فهلا تنجبن فتى أغرا ؟ أراك عقمت لآتلىدين حر
 وكنت لمثله أزكى ولود

ونعود إلى القصيدة السابقة لترى الرصافى يلقي التبعات الثقال على أبناء
 أمته المتقاعسين عن العمل للتخلص من هذا الأسر الذى طرح بلادهم فى غياهب
 أولئك الحكام القساة ، وهو يعجب لاستكاثتهم أمام هذه الموبقات التى يجترحها
 الولاة واتقاؤهم شر الدولة ، وهم الذين يمدونها بالرجال والأموال وأبناء البلاد
 يكلفون من أمرهم رهقا والحر الأتى منهم ذليل مهين مردود عن قصده بالفشل
 والخيبة ولا ذنب له إلا أنه من دعاة حرية وطنه :

برئت إلى الأحرار من شر أمة أسيرة حكام ثقال قيودها
 عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
 وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها
 إذا وليت أمر العباد طغاتها وساد على القوم السراة مسودها
 وأصبح حر النفس فى كل وجهة يرد مهانا عن سبيل يريدها

وصارت لثام الناس تعلو كرامها وعاب لييدا في النشيد بليدها
 فما أنت إلا أيها الموت نعمة يعز على أهل الحفاظ جحودها
 ثم يعود الرصافي إلى التغني بالحرية التي عبدها واستعبدته وشبهها بغادة
 خود تتمنى كل نفس وصلها ، وشبهها بالشمس التي تضيء دجنات الحياة وأنها
 واصلت قوما فسعدوا بها وذاقو لذة وصلها ، وصدت عن آخرين فتعست
 حالهم ولولا أثاره من الأمل يتعللون بها من وعودها العرقية لآثروا الموت
 على الحياة .

ويعود إلى بني وطنه فيعجب أشد العجب على صبرهم على البلايا وتصبرهم
 على الرزايا مع أن الهوان آدهم وآذاهم ولو حملته الجبال لأثقلها حمله . وآدها
 ثقله ويستفزهم بهذه التشبيهات اللاذعة بالمعزى تهاوين عند ما نزعته عنها فنزت
 فوق الجبال :

ومائلة قد أهملتها رعاتها بمأسدة جاءت لعشر أسودها
 فباتت ولا راع يحامي مراحها فرائس بين الضاريات تييدها
 بأضيع منكم حيث لا ذو شهامة يذب الرزايا عنكم ويذودها
 ثم تدركه الحماسة فينادى بأعلى صوته ، مبكتا حيناً ، ومثير الحمية حيناً
 أنطمع هذى الناس أن تبلغ المنى ولم تور في يوم الصدام زنودها
 فهل لمعت في الجو شعلة بارق وما ارتجست بين الغيوم رعودها
 وأدخنة النيران لو لا اشتعالها لما تم في هذا الفضاء صعودها
 وإن مياه الأرض تعذب ما جرت ويفسدها فوق الصعيد ركودها
 ومن رام في سوق المعالي تجارة فليس سوى بيض المساعي نقودها

هذا قليل من كثير مما جادت به قريحة الرصافي في وصف بلاده في فترة
 الاستبداد وهو شعر كما ترى لا تعوزه الحماسة ، ولا تنقصه الشجاعة ولعلك تجد
 في هذا الشعر ، ولا سيما في القصيدة الأولى تشابها بين الرصافي والزهاوي

فيما أوردناه سابقا ولا غرو فالشاعر ان ينزعان عن قوس واحدة ويرميان إلى غاية واحدة وليست هذه الغاية سوى أن ترد لبلدهما حريته المسلوبة ليتبوأ المأزلة الخليقة بتاريخه المجيد بين أهم الأرض الناهضة .

ويجىء الدستور فيبشر هذه الرعية المتناعمة ، باسترداد حريتها المسلوبة وبالعادل ينشر ألويته فوق ربوع البلاد وبالأمن من كل أسباب الخوف والفزع وليس في حاجة إلى الإيضاح أن شاعر الحرية سيطرب لهذه النعمة، وسيستبويه الطرب ، وتستخفه البشرية فيلال مع الأحرار ، لا نبشاق نور الأمل الذي أبى الوصال زمنا غير قصير وقد عشى ناظراه في ترقبه .

لقد كان إعلان الدستور العثماني في شهر تموز (يولييه سنة ١٩٠٨) فترى الرصافي يشيد بهذا الشهر إشادة يستعيد فيها ما وقع فيه من الخير لبلده ولسائر البلاد وتقرأ التفاؤل في كل لفظ تخطه يمينه بهذا الشهر الجدير بالتخليد والذكر :

أكرم بتموز شهر إن عاشره قد كان للشرق تسكريما وتعزينا
شهر آبه الناس قد أضححت محررة من رق من كان يقفوا إثر جنكيزا
وليس يسع الرصافي الوقوف عند ما منيت به أمته من كرام الأمانى
في هذا الشهر بل يذكر أن لهذا التاريخ فضلا كورا في نهضة الشعوب وتحطيم
الاستعباد فتراه يذكر أهل باريس ويشير إلى تحطيم سجن الباستيل :

سل أهل باريس عن تموز تلق لهم يوما به كان مشهودا لباريزا
كانت لهم فيه لما ثار ثائرهم بسالة هدت الباستيل مبزوزا
ثم يعود إلى حيث بدأ فيقول :
وإن تموز شهر قام فيه لنا على اليفاع لواء العز مركزوزا
في شهر تموز صادفنا لما وعدت بيض الصوارم بالدستور تنجيزا
هي المساواة عمتنا فما تركت فضلا لبعض على بعض وتميزا

أمست لنا قسمة بالملك عادلة حكماً وكانت على علائها ضيزى
 كنا من الجور عميانا وليس لنا من قائدين ولم نملك عكا كيزا
 حتى نهضنا إلى العليا تقدمنا عصاة برزت في المجد تبريزا
 ويقول في الشورى التي كانت من آثار الحرية التي أفاءها الدستور على
 البلاد وحطم بها قيود الاستبداد :

دارت بهاشمس عز الملك حيث لها حرية العيش برج والنهى فلك
 قد أصبح الأمر شورى بيننا فيه على الرعية لا يستأثر الملك
 هذا به نهض الإسلام نهضته من قبل إذ قام يستولى ويمتلك
 باقوم قد حان حين تسخرون به بمن بكم سخر وامن قبل أوضحكوا

وتحدث الحركة الرجعية في ٣١ آذار (مارس سنة ١٩٠٩) أى بعد إعلان
 الدستور بنحو تسعة أشهر ويحاول الرجعيون العودة إلى الخنوع والاستسلام
 لذوى الطغيان المستأثرين بالخلافة ومن استخلصوهم من رجال الدولة الذين
 ينشرون المظالم ويعيثون فى الأرض فساداً :

فقد هاجوا على الدستور شراً بدار الملك كى يستعبدونا
 هموا الأشرار باسم الدين قاموا فعاثوا فى المواطن مفسدنا
 فما تركوا من الدستور شورى ولا أبقوا لنغمته طيننا

وكان الرصافى إذ ذاك فى سلانيك عقب رحيله إليها من القسطنطينية
 فصادف أن نهض جيش سلانيك وزحف بقيادة (محمود شوكت باشا) لقمع
 هذه الحركة الرجعية ، فوصف الرصافى هذا الزحف :

ولما جد جدهم استقلوا على ظهر القطار مسافرينا
 فطاروا فى مراكبه سراعاً بأجنحة البخار مرفرفينا
 وظل الجيش صباحاً أو مساءً تسير جموعه متتابعينا
 فلم يتصرم الأسبوع إلا وهم بربا فروق نخيمونا

ثم يصف باخرة استقلها إلى القسطنطينية ليرى بعينه معركة الحياة والموت
ويصف البحر رهوآ ويتأمل جمال الطبيعة ويستوحىها إلى أن يصل إلى دار
الخلافة ومقر الحركة الرجعية :

أتينا دار قسطنطين صبحا	وقد فتحت لهم فتحا مبينا
وظل الجيش جيش الله يشفى	بحد سيوفه الداء الدفينا
فأزهق أنفاس الطاغين حتى	سقاهم من عدالته منونا
ورد الخائنين إلى جزاء	أحلام المقابر والسجوننا
وحطوا قصر يلدز عن سماء	له فانحط أسفل سافلينا
وأصبح خاشع البنيان يغضى	عيونا عن تطاوله عمينا
خلام من ساكنيه وحارسيه	فلم ترفيه من أحد قطينا

ويجد هؤلاء الأحرار القاضون على فتنة الرجعية أن هذا الفساد والانحلال
الذى أصاب الدولة لا صلاح له ما بقى السلطان عبد الحميد متربعا في دست
الحكم ، فهو رمز القوة الغاشمة ، ولقد تلقى الأحرار درسا ، فإن إعلان الدستور
لم يقو على القضاء على الرجعية والرجعيين ، فلا بد من البحث عن أصل الداء
واستئصاله من جذوره . وليس أصل الداء سوى إبقاء السلطان عبد الحميد
وإن كان هو الذى أعلن الدستور مضطرا فلا بد من خلع هذا الرمز البغيض
للاستبداد البغيض ، فخلعوه في ٢٧ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٩ ، وأجلسوا
على العرش أخاه (محمد رشاد) ونفوا (عبد الحميد) إلى سلا نيك وتنفس الصباح
وتقوض صرح الرجعية وبانت معالم الحرية وبات العراقيون وغيرهم يرقبون
إشراق شمسها على بلادهم بعد هذا الظلام الدامس الذى غشاها ما غشى ، ولسكن
ترى هل حظى العراق بأمله الموموق ، وهنائه المرموق ؟

لا ، فان الأتراك ما يزالون في غيهم يعمهون ، ولا يزالون في طغيانهم سادرين
وإذا الآمال هباء ، وإذا المورد سراب خادع .

ترى هل يسكت الرصافي وقد هال ما شاء له التهليل وكبر ما وسعه التكبير
وطالما ناجى الدستور مناجاة العاشق الذي تيمته الصباية فحظى بالوصال بعد
طول الإعراض؟ ولكن الاتراك يتخبطون في سياستهم يعدون بالعدل
ويظلمون، ويتظاهرون بالإصلاح ويفسدون وعادت النغمة التي شذفت آذان
الناس لحنا ثقيلا، وولى (كامل باشا) الوزارة في العهد الجديد فأساء التصرف
فطالب أعضاء مجلس الأمة بتبرير أعماله فيراوغ ويطلب الإمهال، حتى يستطيع
ذلك فلا يمهله الأعضاء فيضطر إلى الاستعفاء وينشئ الرصافي قصيدته (بعد
الدستور) وفي مطلعها يشرح كيف طرب الناس له :

سقتنا المعالي من سلاقتها صرفا وغنت لنا الدنيا تهنتنا عزفا
وزفت لنا الدستور أحرار جيشنا فأهلا بما زفت وشكرا لمن زفا
ثم يقول إن الناس حمدوا القوة فقد نبهتهم من الطغيان وانتشلتهم من الخضيض
وما كانوا ليحمدوها وهي تبطش بهم وتذيقهم الهوان .
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكرا وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا
ولاحت لنا حرية العيش عندما أماطت لنا الأحرار عن وجهها السجفا
ثم يصف كيف استقبل الناس الحرية استقبال المشوق المتيتم :

نشرنا لها منا لفيف اشتياقنا ونحن أناس نحسن النشر والفا
حللنا الحبا لما أتنا كرامة وقنا على الأقدام صفا لها صفا
عقدنا لها عقد الولاء تعشقا فكنا لها إفا وكانت لنا إفا
رفعنا لواء النصر يهفو أمامها ورحنا على صرف الزمان لها حلفا
فلم تر غير الرفق فينا سجية وإن كان بعض القوم أبدى لها عنفا
ثم يصف ما آل إليه أمر كامل باشا من اضطراره إلى الاستعفاء، ويوجه
نداء حاراً إلى خلفه الصدر الجديد (حسين حلمي باشا) وإلى مجلس النواب
أن يرقى الأمانة حق رعايتها ويلفت نظره إلى ناحية خاصة عنت الرصافي فيما

عناه طول حياته ، ورددها في أكثر أغاريده وتلك الناحية الخاصة إنما هي العلم وأرجاء البلاد مقفرة من هذا العماد الذي لاهياة للأمم إلابه ، ويرجع السبب في عدم استتباب الأمن إلى إهمال هذه الناحية التي جرت البلاد وأهلها إلى الفوضى والانحلال .

ألم تر أرجاء البلاد محولة من العلم فاستمطر لها الديم الوطفا
بلاد جفاها الأمن فهي مريضة فحقق لها من طب رأيك أن تشفى
فإن لأهلها عليك لئمة ومثلك من راعي الذمام ومن وفى
هذه أمنية الرصافي ، وطلبته من مجلس النواب ، والصادر الجديد ، وهي
أمنية عامة ، وطلبته شاملة لسائر البلاد ، المشمولة بالسلطان التركي ، والتي
تظلمها الراية العثمانية .

وجدير بالرصافي في هذا المقام أن يذكر بلده (العراق) فهو مبعث
ما فيه من حرارة ، وسبب ما يعمر قلبه من وطنية ، وهو القائل :
أأمنع عيني أن تجود بدمعها على وطني ؟ إني إذن لبخيل !
إذن فلا بد من التخصيص بعد التعميم ، بعد أن طلب العلم للجميع ،
والأمن في سائر أرجاء المملكة ، فالعراق في حاجة خاصة إلى العناية بترتبه
الخصبة ، والسهر على تنظيم الري ، فإنه مقفر إقفاراً لا سبب له إلا الإهمال
الشائن :

ولا تنس مغبر العراق وأهله فإن البلاء الجم من حوله احتفا
فدجلة أمست كالديجل شحيحة فلا أنبت زرعاً ، ولا أشبعت ظلفاً
وإن الفرات العذب أمسى مرثقا به الماء يحفو ، أوبه الماء قد جفا
سلى الحلة الفيحاء عنه ، فإنها حكمت شمداء الطف إذ نزلوا العلفا
وهو لا ينسى مع هذا التوجيه أن ينحى باللائمة على أهل العراق الذين
توانوا وكسلوا ، فضيعوا مجدهم التليد ، وتراشهم الخالد ، فانطبعت قلوبهم على

الذلة والمسكنة ، بعد الدولة والصولة ، والعزة والكرامة ، وقد هوت حالهم وانحطت عقليتهم ، فأخذوا يلتمسون المجد من غير أسبابه ، ويلجئون البيت من غير بابه ، فهم صرعى أوهام ، وعبيد خرافات ، لا يربطون الأسباب بالمسببات :

فياويل قوم في العراق قد انطوا على الذل إذ أمست قلوبهم غلغا ولم يذكروا مجدا لهم كان ضاربا رواقا على هام السكواكب قدأوفي وكانوا به شم العرانيين فاغثدوا يقاسون أهوالا به تجمدع الأنفا يرجون من أهل القبور رجاءهم ومن يحمل الدبوس أو يضرب الدفا وهكذا نجد الرصافي في جميع (تركيباته) يثنى ما وجد في الثناء قائدا إلى جلائل الأعمال ، ومشجعا على تحقيق الآمال ، وينقد ما وجد في النقد توجيها ، أو التمس به إصلاحا .

وهو لا ينسى أن يبدي ويعيد ، ويكرر تنبيهه إلى حاجة البلد إلى الإصلاح وأهم وجوهه في نظره نشر التعليم ، والعناية بمرافق البلاد التي توفر لها السعادة والرغادة . وكأنه اعتنق قول القائل :

(أخلق بنى الصبر أن يحظى بحاجته ومد من القرع للأبواب أن يلجأ) فلا يزال يردد هذا النداء ، دون ما سامة ولا ملل

لقد ولى الاتحاديون الأمر وأسلمت إليهم مقاليد السياسة في تركيا ، وكانت خطتهم عقب إعلان الدستور أن يؤلفوا الوزارات من غير رجالهم ، ويجعلوها تابعة في أعمالها لما يصدره مركزهم العمومي ، من الأوامر والنواهي فرجال الوزارة يحتملون أعباء المسؤولية أمام الأمة ، ومجلس نوابها ، وهم يأثمرون فيما يفعلون بأمر الاتحاديين ، الذين وعدوا وأخلفوا الوعد . هذه وزارات ثلاث تعاقبت الحكم تحت نفوذ الاتحاديين ، وزارة كامل باشا

فوزارة خاى باشا : ثم وزارة حقى باشا ، ولكنها تجرى جميعا على نهج واحد
وتسلك جميعا سبيلا واحداً فى سياستها الداخلية وفى سياستها الخارجية
والرصاصى الذى فتح ذراعيه للدستور وأشاد بذكر الاتحاديين إذ كان يتوقع
الخير على أيديهم للبلاد ، ماذا يفعل وقد أخلفوا الآمال ؟ استمع إليه فى
قصيدته (شكوى الى الدستور) :

شكاية قلب بالأسى نابض العرق إلى قائم الدستور والعدل والحق
ملوك على كل الملوك ثلاثة لها الحكم دون الناس فى الفتق والرتق
وأقسم أنى لا أكون لغيرها مطيعا ولو من أجلها ضربت عنقى
ثم يوضح شكاته فيقول إنه كان يرجو أن يرى بالدستور نهضة الشرق ،
وأنه صادف أمة أطربتها البشرية وأخذ بلها التفاول فلم يكن عنف فى استقباله
كما حدث فى بعض أطراف السلطنة العثمانية :

بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعد لديهم فيالله للسعد المشقى ؟
قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به وسدوا على من حو لهم منبع الرزق
كأننا لهم شاء فهم يحلبوننا وكم مخضوا أوطاننا مخضنة الزق
وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها ولم يتركوا للساكنيها سوى المذق
وإنك لتسمع فى البيتين الأخيرين لحناً جديداً . هو كما ترى لحن صريح
كل الصراحة ، وقد كنت نرى التليخ فيما ر بنا من الشعر فيما يخص العراق
وقد تجد الصراحة والنقد اللاذع ولكن ذلك كان فى معرض ذكر الوطن
العام ، ونعنى بالوطن العام البلاد المستظلة بلواء العثمانيين ، وكأنه تركى لا يطمع
فى غير إصلاح ما أفسد الدهر من الأوضاع المختلفة والنظم الفاسدة .

ولكنه هنا يشير إلى ما قاست بلاده وكأنها شاء تحلب ، وغيرها يطعم
وهى تشرب السكر وغيرها يسقى الصفو ، وإن أهل البلاد مرت بهم فترة
الاستبداد وهم لا يدرون إن كانوا فى بلادهم أحراراً أم هم فيها أرقاء وعبيد

شملتهم الذلة ولا نصيب لهم من كفاح في سبيل المجد الذي هم أصحابه والعلم الذي هم أربابه .

هذه وزارة مكان وزارة فإذا أجدى التغيير وماذا أفاد التبديل ، مادامت السيادة واحدة ومادام الدستور (حبراً على ورق) ؟:

ولم نستفد إلا سقوط وزارة وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق وماذا عسى يجدى سقوط وزارة إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق ؟ ويشير إلى الحقيقة الراهنة وهي أن الاتحاديين يحكمون من وراء ستار ، فيحتمل غيرهم تبعاً للحكم وهم براء من كل عيب أو تقصير فلا ينالهم لوم ولا تصيبهم مؤاخذه :

وما لهم عندي بالذي قد ذكرته وإن كان يشجيني ويدعو إلى الزعق ولكن وراء الستار أيد خفية تزحزح من شاءت عن الأمر أو تبقى ولولا الغدر والبطش لباح بالسر الذي حرص على إخفائه بين حناياه :

ولولا يد شدت لساني بنسعة لبحث بسر كالشجاء هو في حلقي
فيأيمها الدستور فاقض بما ترى وأبرق ولسكني لا تكن خلب البرق
ولسنا نريد اليوم حكماً عليهم ولكن نناديهم وندعو إلى الحق
تعالوا إلى أمر نساويه بيننا وبينكم في الجل منه وفي الدق

ثم يترك اللين إلى الإنذار ، والإنذار إلى الوعيد والتهديد ، فهذا الحق في المساواة إن لم يهرب عن طواعية واختيار ، فلا بد من الحصول عليه بالقسر والإجبار . فبنو العرب الذين يأبون الضيم قد اختبروا الحرب وخبروها وقد زبنتهم وزبنوها فعرفوها وألفوها وهم الذين لا يعرفون المجد إلا على صهوات الجياد ، وفي أيديهم بيض رقاق المضارب .

فإن يفعلوا هذا فيأمر حبا بهم وإلا فيأمر سحق المعاند من سحق سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا وشيب وشبان على ضمير بلق

بكل ابن حرب كلما شد هزها بعزم من السيف المهند مشتق
 تراه إذا ما عبس الموت وجهه بوجه يلاقى الموت مبتسم طلق
 من العرب مطبوع الطباع على العلا بديع معاني الحسن في الخلق والخلق
 وما كان الرصافي في حاجة إلى هذا الوعيد وذاك التهديد لو أن الاتحاديين
 صدقوا الوعد في إفاضة الخير ، وإرسال شعاع النور على البلاد العربية .

ولكن هؤلاء الاتحاديين الذين سموا أنفسهم (جمعية الاتحاد والترقي)
 أنخلقوا الظنون ، ودعوا إلى فكرة طائشة ومبدأ فاسد ، استمد فسادهم من منافاته
 لطباع الأشياء وما جرت به العادة ، إذ اتخذوا مبدأ (التوسع الطوراني)
 شعاراً لهم ، واستلزم هذا المبدأ المناداة بتريك الشعوب غير التركية . وأكثرهم
 عدداً العرب والأكراد ، ومعنى ذلك القضاء المبرم على هذه الشعوب وسلبها
 أخص خصائصها ، فلاحكم لهذه البلاد بأيدي أبنائها ، ولا دخل لها في رئاسة
 أو سياسة ، ومن اليسير حينئذ أن تدع هذه الأمم لغتها الأصلية فتصبح العربية
 أثراً بعد عين .

وهكذا صرح الشر وأضحى غير مكنون ، وتكشفت النفوس عن حقيقة
 ما تنطوى عليه من إذلال العرب ، والقضاء عليهم قضاء لا نهوض بعده لهم .
 ويشتد النزاع لا بين العرب والآتراك فحسب ، بل بين الآتراك أنفسهم
 ولا نزاع بين القوم ولا اختلاف على شيء سوى الاستئثار بالحكم لما يجرم من
 مغنم وما يتبعه من الجاه والثراء ، لا للمبادئ القويمة يتنافسون على إقامتها في
 خدمة الدستور والحق والعدالة .

وينتهي الخلاف مؤقتاً بسقوط وزارة الاتحاديين وهم الطرف الأول
 للنزاع ، وتولى خصومهم السياسيون (الائتلافيون) الوزارة ورئيسهم الغازي
 (أحمد مختار باشا) فيسجل الرصافي في قصيدته (الوطن والأحزاب) هذا التطور
 والتبدل في الأشخاص ، لافي أساليب الحكم ، قال في مستهلها :

مقي نرجو لغمتنا انكشافا وقد أمسى الشقاق لنا مطافا
ملأنا الجو بالجدل اضطخابا وكنا قبل نمأوه هتافا
ثم يذكر ما أصاب الناس من الاضطراب والبلبلة ، وسريان الشائعات
بينهم ، حتى غم الأمر عليهم ، والتبس عليهم الاهتداء إلى وجه الحق والصواب
فأصبح اللوم موجها إلى الحكومة ، وأصبحت تهمهم بالعسف ولا فرق بين
الراعي والرعية فكلهم أشد ظالما واعتسافا .

وليس البكاء على الوطن من فرط حب له ، فلم يكن إلا مخادعة للوصول
إلى الأمل المنشود وهو التمتع بالحكم واقتطاف ثمراته اللذيذة :

تبا كينا على الوطن اختداعا فأنبتنا بأدمعنا (الخلفا)
أجاعتنا المطامع فاختلفنا لنملا في موائدنا الصحافا
والاختلاف للطامع ولكنه يغطي بغشاء من حب الوطن ، تمويهاً
وسترا للطامع .

ولكننا من الوطن المفدى نخطط على مطامعنا غللافا
والرصافي يتنبأ بما سيفضي إليه الأمر من استفحال الخطب ، ونشوب
الثورات . وشيوع الفتن في أطراف البلاد . ويتساءل في تشكك عن اقتدار
الخلاف على ما عجز عنه السلف :

أرى أنف الحوادث مشمخراً غدا يتشمم الحدث الجرافا
ويوشك أن يمزق منخريه عطاس يملأ الدنيا رعافا
فهل لوزارة (الغازي) اقتدار ترد به الهزاهز والنقاسا ؟
ثم يجاوز هذا إلى الحقيقة الواقعة ، ولو ساء ذكرها القوم وهي أن الناس
في كل الأقطار وسائر الأمصار معرضون للفرقة والخلاف في الرأي . ولكن
هذا الخلاف بين الأتراك هو أسوأ ما عرف من خلاف ، وأقبح ما عهد من
شقاق ، لأنه قذف بالتهم ورمى بالقول :

فلا تغررك أحزاب شداد بأن لهم أقويلا لطافا
 فإن بواطن القوم احتراض وإن أبدت ظواهرهم عفافا
 وما اختلفوا لمصلحة ولكن ليأكل أقوياؤهم الضعافا
 هو الدينار منية كل راج وبغية كل من دأب احترافا
 نحج لأجله بيت المخازي ونكثر حول كعبته الطوافا
 ترى كل الأنام به سكارى وغيرهواه ما ارتشفوا سلافا
 فب سواه في الأفواه جار ولكن حبه بلغ الشفافا
 هو الحرب التي زحفت إليها كتائب كل من طلبوا الزحافا

هذا هو الأمل الوحيد للقوم : جمع للمال واحتجان للثروة ، والتماس
 للغنى من أفواه الذين لا يكادون يجدون القوت ، وإن تظاهر القوم بغير
 ذلك ، فلا يخفاء هذه الغاية وسترها عن عيون الناس ، وهكذا يخادعون
 الأوطان ويخادعون الناس وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فقد
 تنبّهت الأوطان ، واستيقظ الغافلون ، فما تفيد الخادعة وما يجدى الستر
 والقويه ، وأخيرا وليس آخرا هم في الطمع سواء .

لئن خطأت من راموا (اتحادا) فما صوبت من راموا (اتئلافا)
 فان مشارب العدوان منها كلا الحزبين يرتشف ارتشافا
 وهم كأولى الديانة كل حزب يراه أحق بالحق اتصافا
 وماذا نفع أقوال سمان إذا أفعالهم كانت عجافا ؟

وكان أن وقع ما توقعه الرصافي من نشوب الثورات ، وانتشار الفتن ،
 فقد أخذت حكومات البلقان توقد الفتن السياسية في مقدونيا ، وبلاد الألبان ،
 وخرج الخليفة الجديد إلى البلاد المذكورة في زيارة كانت كفيلة باخماد نار
 الفتنة التي نشبت فيها فامتدحه الرصافي بقصيدة عنوانها (عند سياحة السلطان)
 وقد أعجب بها السلطان . فأجاز الرصافي بساعة ذهبية ذات سلسلة ذهبية أيضاً

وفي هذه القصيدة يذكر ما قامت به حكومات البلقان ، ولكن الحكومة كانت غير غافلة عما أعدوه من أسباب الفتنة ، وأنها مستوفزة لهم ، آخذة حذرهما منهم ، وكانت زيارة واحدة للخليفة كفيلاً بالقضاء المبرم على أسباب الشغب وعناصر الفوضى وانتقل من ذلك إلى سوق المديح والإطراء فقال :

يأيها الملك السامي بحكمته والمبدل الناس من ذل بإعزاز
قدعى في وصف ما أوتيت من حكم كلا كلامي إطنائي وإيجازي
غزوت غزو سلام دون غايته غزو الحروب فأنت الفاتح الغازي
وأنه استطاع بحكمته وقدر بحسبته أن يفعل بحفوه ما لا تستطيع أن تفعل
الجيوش الجرارة. ولو شاء شهر السيوف وحمل الرماح لما أعجزه ذلك :
ملست بالعفو والإحسان أفئدة كانت إلى السيف فيها بعض أعواز
وأنت لو شئت إرهاباً لجئتهم بصارم لنواصي القوم جزاز
لكننا جئتهم بالعفو تأخذهم والعفو أفضل ما يجزى به الجازي
فاغمد سيوفك ان العفو منصلت واهناً بشعب محب غير منحاز
بالترك بالروم بالألبان قاطبة بالآرمنين بالبلغار بالالاز
ويشير عاينه في براعة ظاهرة أنه إن أراد الاستنصار فلا نصير له غير
العرب الأوفياء الذين يسمون على سائر رعاياه بالوفاء والإخلاص
ويفضلونهم بالنجدة والبسالة ، ويسأله أن يروض بهم كل صعب ويقتحم بهم
كل هول فهم أهل الصدور ، وهم النصور وغيرهم البغاث :

أما بنو العرب فالإخلاص يرفعهم إلى مقام على الأقوام ممتاز
إذ هم عماد لعرش أنت ماسكه فاضرب بغاث العدى منهم بأبواز
ورضى بهم كل صعب إنهم فئة تبغى الصدور ولا ترضى بأعجاز
وهم ركاز العلا لو زرت أرضهم يوماً لأركزت فيها أى إركاز
إن يعجز الأمر عن شيء فهم سند لو كنت مسنده منهم بعكاز

وان خشيت على البلدان جنتها ففقط بها من نهاهم بعض أحرار
وسيف ملكك إن رئت جمائله أغنوك في رأها عن كل خراز
ثم يتقدم اليه أن يتفضل بزيارة هذه البلاد المخلصة الوفية ليرى بعينه
ما طبع عليه القوم من صدق الولاء وليرى كذلك ما انتهت إليه حال أهلها
من الجهل والفاقة نتيجة الإهمال ، وهو يتوسل إليه أن يستجيب لهذه الدعوة
ولو كانت الزيارة سريعة خاطفة

زر أيها الملك المحبوب موطنهم ولو زيارة بجمالان وبجهاز
وانظر إليه بعين منك شافية مانا به اليوم من جهل وإعواز
أشثم وأعرق ورح من بعد محتجزاً وأيمن بعزم غير هزهاز
ماذا على ملك الدستور من وطن لوجال منه بأطراف وأجواز ؟

ولابد لنا هنا من الإشارة إلى شيء جدير بالإشارة ، ذلك أن هذه
التطورات التي اعتورت الحكم في تركيا لم يسهم العراق فيها بتسبب فهو يقف
منها جميعاً موقف المتفرج الذي لا يذنيه الأمر في قليل ولا كثير ، وكأنه
رضى بالتبعية الأبدية لسلطين آل عثمان .

حقيقة إن حركات قام بها بعض الأحرار العراقيين بين حين وحين ،
ولسكن أصدق ما توصف به هذه الحركات ، أنها كانت حركات فردية فلم
يشارك فيها الشعب العراقي أو بعبارة أخرى لم تكن تصدر عن الرأي العام ،
ومحصير حركات من هذا اللون من الحركات إنما هو الخيبة والفشل الذريع .

وإننا لتساءل أين كان الشعب العراقي الذي عرف باليسالة في تلك الحقبة
العثورية التي كانت البلاد تن فيها أنينا متواصلاً تحت نير الحكم العثماني الغاشم ؟
وما حقيقة موقفه إزاء هذه التطورات ؟ وما بالناس لا نسمع إلا أصواتاً خافتة ،
ن جهرت فبطلب الإصلاح ؟ وأبعد الأشياء عن جهرها المناداة بالحرية

والاستقلال ؟ وكأن السنين بتطاوّلها قد أمانت الشعور الوطنى وقضت على النخوة العربية المتأصلة فى نفوس العراقيين .

أوبالأحرى نستطيع أن نقول إن العقيدة التى اعتورها الوهن هى العلة الكامنة فى هذا الصمت العميق ، الذى أنسى القوم عظمتهم ومجدهم إبان حكم العباسيين ، نفايته من بنى عثمان مكان خليفة من بنى العباس وحاضرة للخلافة فى بلاد الروم مكان حاضرتها فى بلاد الرافدين ، والدين هو الإسلام فى العهدين . وفى هذه المظاهر والقشور الكفاية والغناء لمن أراد الكفاية والغناء ، وكفى الله المؤمنين القتال !

ولم يكن العراق فيما ارتضاه لنفسه بين البلاد الخاضعة للدولة العثمانية فريداً بل كلهم فى الهم شرق .

وكان حرياً بهذه البلاد أن تتحين هذه الفرص المتاحة لتحقيق ما تصبو إليه من أحلام الحرية والاستقلال ، ونستطيع أن نقول : إن هذه البلاد لو حاولت ذلك ، لنجحت محاولاتها وتحققت أحلامها .

ولكن أطراف المملكة العربية وأعنى بذلك دول البلقان ، التى لم تكن الحالة فيها أسوأ منها فى بلاد العروبة كانت كالرجل فى غليانه ، فهى فى ثورة دائمة ، وفى فتن مشتعلة ، لا يخبو أوارها ، وقد تستطيع الدولة أن ترسل جيشاً تجهز به على العصاة والمتمردين ، وتسكن الثورة ، وتقضى على الفتنة ، ولكن ذلك كله إنما هو علاج مؤقت لا يستطيع أن يستأصل الداء من جذوره ، وليس الداء سوى الوطنية المتأججة بين حنايا الضلوع : وفى قرارة الأفئدة ، حتى هؤلاء الشعراء لم يرسلوها كلمة صريحة تصم الأذان ، ولم يحركوا فى أمتهم ساكناً ، وإن حاولوا فأين آثارهم ، وأين الوثبة المضربية ؟

وذلك موقف عجيب لا يعلل إلا بالعلة التى أوجزناها سابقاً . حقيقة كان هؤلاء نقدات للدولة وسياستها أرسلها الأحرار من أبناء الأمة ولا سيما الشاوى

والشاعرين الفحلين جميل صدق الزهاوى ، ومعروف الرصافي ولكن هذه الثورات والأنفاس والنفثات لم تكن ترمى بحال إلى الانفصال عن جسم الدولة العثمانية في هرمها وفي شيخوختها .

هذا الدستور يعلن في قلب الخلافة قهيج الخواطر ، وتثور النفوس في البلاد الغربية التي يخفق فوقها علم العثمانيين وهو هياج الخلاص ، وثورة النجاة المرتقبة في هذه الأطراف ، أما الأطراف الشرقية فلا هياج ولا ثورة وإنما الرضى والاطمئنان والاستبشار فهل أفاد هذا الهدوء ؟ وهل أجادت هذه الوداعة ؟

لقد سجل الرصافي هذا الهدوء وهذه الوداعة في كثير من قصائده في ذلك العهد . وفي قصيدته (بعد الدستور) بيت يتم يشير إلى الحقيقة السابقة بعد وصف البشرى والتفاؤل بالدستور ونعته بأجل النعوت . قال :

فلم تر غير الرفق فينا سجية وإن كان بعض القوم أبدى لها عنفا
وكنا نرغب إلى الرصافي لو أسهب بعض الأسباب ، وأفاض بعض الإفاضة
لنتبين منه ما يريد صريحا لا لبس فيه ولا محاولة إخفاء ، وهو في معرض الاستيعاب والتقصي .

وثمة بيت آخر من قصيدة عنوانها (شكوى إلى الدستور) يذكر هذا المعنى أيضا فيقول مخاطبا الدستور :

فصادفت منا أمة قد تعشقت لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
ولم تبد عنفا حين جئت وإنما هتفنا جميعا بالوفاق وبالرفق
وفي هذه الإشارات مع ما سبق من ثنائه على خلفاء بني عثمان ونقد سياستهم ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن هذه الدعوة التي أرسلها الرصافي في شعره كانت دعوة إصلاح شامل ، داخل حدود تركيا وخارجها دون تفكير في

الانفصال عن جسم الدولة العثمانية أو الدعوة إلى استقلال العراق عن التبعية لها (١)

(١) اطلع على هذا الفصل معالي السيد محمد رضا الشيباني ، وعلق عليه هذا التعليق النفيس وقد آثرنا إثباته كاملا في هذا الكتاب ، لما يحوى من تحقيق تاريخي ، إذ كان من أهم غاياتنا التعريف بالبيئة التي عاش فيها الرضا ، تعريفنا شاملا جهد الطاقة . كتب حفظه الله .

(يقظة قومية في العراق في عهد الحكم التركي)

تشير كثير من الأحداث والاضطرابات التي وقعت في بغداد والحلة وكر بلاه والنجف وغيرها من جهات العراق شرقا وغربا ، وذلك في منتصف القرن الثالث عشر للهجرة ، وفي عصور بعض الممالك ، وفي طليعتهم داود باشا وهي حوادث واضطرابات معروفة في تاريخ العراق ، لا يجهاها العراقيون ولا الأتراك ، تشير هذه الأحداث والاضطرابات إلى وجود ضرب من الوعي القومي في العراق ، فهي ترمي غالبا إلى التخلص من الإدارة المركزية أو من الحكم التركي كيفما كان .

فقد قامت في جنوب العراق وفي البصرة قاعدة الجنوب ، وذلك في صدر القرن العشرين حركة قومية خطيرة ، معروفة في تاريخ العراق الحديث ، اتجه أقطابها ، والقائمون بها إلى فصل العراق أو اقتطاع البصرة وما يتبعها على الأقل عن إدارة الدولة العثمانية ، ومن ثم تكوين دولة عربية حرة ، في هذا الجزء من البلاد على أن ترتبط هذه الدولة ، برابطة الحلف مع الدول والامارات العربية ، المتاخمة للعراق من الجنوب برا وبحرا ، وغربا ، وشرقا ، ومن ذلك إمارة (الكويت) وإمارة (المحمرة) وإمارة (السعود) في شبه الجزيرة ، وإمارة (البحرين) وغيرها من الامارات الواقعة على الخليج الفارسي . وكان السيد (طالب النقيب) السياسي العربي المشهور عميد هذه الحركة القومية ، وقطبها الذي تدور عليه .

لقد أتيح للرصافي أن يسافر إلى تركيا غير مرة وأن يقيم في ربوعها ، فقد سافر إليها لتلبية دعوة صاحب جريدة (إقدام) التركية ليشرّف على إصدار

كان السيد طالب النقيب المذكور جهود فذة في هذا السبيل ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه سياسي لا تجاري في جرائته ، أعلن خصومته للأتراك ، وأذاع مقاصده ، وهي التخلص من سيطرتهم وتحرير كل ما يمكن تحريره من بلاد العرب لإنشاء دولة عربية فيها . على أن تسعى هذه الدولة إلى تعزيز كيان العرب القومي . وقد انقسمت جهود السيد طالب قسمين فقد كان يعمل في جنوب العراق على تنسيق الأعمال ، وتوحيد الجهود ، وإثارة عرب الجنوب في الحواضر وفي الأرياف على طغيان الأتراك ، وخصوصا في الأقاليم القريبة من البصرة ومنها المنتفق والعمارة والكويت والديوانية والحلة وما إلى ذلك كان السيد طالب أيضا اتصال وثيق بكثير من ضباط العرب المستخدمين في الجيش التركي ، كما اتصل بكثير من زعماء القبائل المعروفين في دجلة والفرات وأخذ منهم عهداً على معاضدته وشد أزره ، نعرف من بينهم مثلاً صديقنا المرحوم الشيخ (مبدّر آل فرعون) شيخ مشايخ قبيلة (الفتلة) وغير واحد من زعماء قبائل العمارة والكويت ، ووجهاء المدن هناك وقد قوبلت دعوته بالترحاب والحماس في هذه الأقاليم .

وقد طارد الأتراك بعض أنصار هذه الدعوة ووضعوا خطة للانتقام منهم حيثما وجدوا ، ونحن نعرف أمرة كريمة في الكوت قضى الأتراك على أفرادها جميعاً ، بعد استيلائهم على البلدة المذكورة في الحرب العامة ، ولا سبب للانتقام منها إلا جهودها السابقة في سبيل القضية القومية .

وقد أنشأ السيد طالب في البصرة إذ ذاك حزباً عربياً دعاه (حزب الإصلاح) وصدرت عنه جرائد عربية كانت كلها بمثابة أسان حال للحزب المذكور ، وهي تننكر بجرأة نادرة لسياسة الأتراك العنصرية ، ومنها جريدة تدعى (جريدة الدستور) وفي وسعنا أن نقول : إنه قد وضعت الأسس لبعث حركة أدبية وصحفية في البصرة ، وقد استطاع السيد طالب أن يجتذب إلى

أخت لها عربية، وقد عرفت أن صاحب الجريدة عدل عن فكرته، إذ لم يكن فيها مخلصاً أو صادق الرغبة في محاولة التقريب بين الأمة العربية المحكومة والدولة العثمانية الحاكمة فاضطر إلى ترك العاصمة والسفر إلى سلا نيك للنزهة ثم سحب حملة الأجرام للقضاء على الحركة الرجعية الشهيرة بحركة ٣١ مارس. وقد سافر إليها للمرة الثانية بعد برقية تنبيه بتعيينه مدرسا للغة العربية في المدرسة الملكية العالية وللتنشيط في جريدة (سبيل الرشاد) العربية، وقد عهد إليه في هذه الأثناء بالإضافة إلى هذين العاملين الخطيرين تدريس الآداب العربية في مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الأوقاف ثم انتخابه سنة ١٩١٣ مبعوثا عن لواء المنتفق في المجلس النيابي العثماني وظل بتركيا حتى انتهت الحرب العظمى

عاصمة الجنوب كثيرا من الشعراء والأدباء، الذين كانوا يشيدون في قصائدهم وينوّهون بهذه الحركة القومية، وينشرون الدعوة إلى عضدها وتأييدها، وكان في طليعتهم (السيد عبد المطلب) الشاعر الحلي المشهور، فقد نظم قصائد عديدة مشهورة في هذا الشأن، جابت عليه نقمة رجال الدولة العثمانية، فكانوا يضايقونه ويلحقونه أينما سار في الأقاليم الجنوبية، وخصوصا في الحلة وما إليها مدة غير قصيرة.

هذا من جهة، وكانت للسيد (طالب النقيب) من جهة ثانية صلة وثيقة بأمراء الجزيرة المستقلين استقلالاً تاماً أو شبيهاً بذلك مثل أمراء (الصباح) في الكويت، وأمراء (السعود) في الرياض، وأمير الحمرة (الشيخ خزعل) وغير هؤلاء من أمراء العرب في الخليج الفارسي وقد شرع في عقد حلف عربي بينه وبين بعض هؤلاء الأمراء، ومن مرامي هذا الحلف تحرير العراق، وجزيرة العرب كلها من حكم الأتراك. هذه حقائق تاريخية تتضح منها مساعي أبناء العراق وجهودهم القومية. ومع أننا لا ننكر في هذا الباب فضل الشعراء الذين أشار إليهم المؤلف في بعث الشعور القومي في العراق في مستهل القرن العشرين إلا أن عددهم على سبيل الحصر قول لا يخلو من تجاوز.

(عبد رضا الشبيبي)

وتد اتصل الرصافي مدة إقامته بها حرار الأتراك وأبطال الانقلاب وكان يرمى إلى خير بلاده من وراء هذا الاتصال ، فيسبهم آلام أمته وآمالها ويتحدث إليهم عما تعانيه من جور وانحطاط ولكننا لا نعرف شيئا عن مواقفه البرلمانية في مجلس المبعوثان ولم يصل إلينا حديث عن هذه الفترة من حياة الرصافي التي تعد أزهر حياته من حيث الجاه والأخذ بأسباب التمدن .

غير أنه مما لا شك فيه أن الشاعر أخذت لبه المدنية البراقة التي وجدها في (إسطنبول) و(سلانيك) وغيرهما وما كان ليجد شيئا من ذلك في (دارالسلام) . ولعل ما رأى أكسبه شيئا من الهدوء في تركيا وهو رجل الثورة ، فقد حظى بصداقة كثير من ذوى الجاء والنفوذ الذين أعجبوا به لحسن عشرته وصراحته وقد حداهم هذا الإعجاب إلى أن يهينوا له من أسباب الأئس والمسرة ما يستطيعون .

ولاشك أيضا أن هذا الاتصال عن كذب قد أفاد الشاعر فائدة جلي . فقد درس البلاد وأهلها ، وألم بأخلاقهم . ووقف على ميولهم ، وعرف بنفسه حقيقة شعورهم نحو العرب ، وما يرمون إليه في سياسة العرب ومعاملتهم ، ويبيتون لهم من الأمر فكان من أثر ذلك ما مر من أمثلة لنظمه السياسي وشعره الحماسي .

وأملنا بعد هذه الإفاضة أن نكون قد انتقلنا بك أيها القارئ الكريم مع الشاعر فصحبته خطوة خطوة وسرت معه في تنقلاته وعرفت خلجات فكره ، وحقيقة شعوره ، ويقيننا أننا قدمنا ما فيه الكفاية في شرح اتجاهات الرصافي وموقفه من الأتراك في النصف الأول من حياته .

انتهت الحرب العامة الأولى وقضى القضاء الأخير على هذه الدولة المترامية الأطراف ، ففقدت ممتلكاتها وتقلصت أطرافها ، واقتطعت حواشيها . وقبعت في هذا الجزء المحدود الذي لا تزال تشغله حتى الآن . وزال كل أثر للعثمانيين

وقضى مصطفى كمال (أتاتورك) على معالم الخلافة ، وصيرها شعبية جمهورية ،
بعد الوراثة الاستبدادية . .

ولقد كان القضاء على الدولة والتخلص من سيادتها من أثر عاملين :
أحدهما خارجي وذلك اجتماع انكلترا وحليفتها التي ظلت تحارب العثمانيين
بشتى الوسائل ، وتثير عليهم الحفائظ ، وتهيج عليهم شعور البلدان المحكومة
لهم حقداً وحسداً ، وواتتها الفرصة المشروعة ، إذ انضمت تركيا إلى ألمانيا في
تلك الحرب ، فأصبحت العداوة سافرة ، بعد أن كانت تجري في طي الحفاء
دسائس ومؤامرات .

والعامل الثاني داخلي أو عربي ، وهي الثورة العربية التي قام بها في وجه
الترك الملك حسين بن علي ملك العرب وأبناءؤه البواسل .

ولقد اتحد العاملان وكل عامل يساعد الآخر ويشد أزره ويعاضده ،
ونجح الاتحاد وزال الظل العثماني عن البلاد العربية إلى غير رجعة . وكان أن
سقطت بغداد في يد الإنكليز مدعين أنهم فعلوا ذلك لتخليص البلاد عما تعاني
من استبداد الأتراك العثمانيين .

وهنا يظهر معروف على حقيقته ، ويبدو شعوره نحو العثمانيين واضحاً
جلياً ، وهو شعور الحزن والأسى على زوال هذه السيادة وحلول غيرها
مكانها ، ولقد عبر الشاعر في اثنين وثلاثين بيتاً عما يخالجه من الأسى والأسف
لما انتهى إليه أمر بغداد في قصيدة طويلة عنوانها (نواح دجلة) قال في
مستهلها :

هي عيني ودمعها نضاح كل حزن لماها يمتاح

كيف لا أذرف لدموع وعزى بيد الذل هالك محتاح ؟

قد رمتني يد الزمان بخطب جلل ما لليلة إصباح

ولقد كان سقوط بغداد في نظر الرصافي قاضياً على الشرف الوضاح
الذي أسبغته العثمانيون على وادي الرافدين ويتساءل في لدعة وألم عن حماة

الوادي ، وكيف أمسوا لا يذودون الضيم عنه ، وكيف أصبحت البلاد جيشة ،
بلا قائد وسفينة تجرى بغير شراع ولا ملاح ويصور نهر دجلة نائحا حزينا
هنتجبا يقول :

ليس ذا الموج في موجا ولكن هو مني تنهد وصياح
إن وجدى هو الجحيم ولولا أدمعى أحرقتنى الأتراح
لو درى منبى بما أنا فيه من أسى جف ماؤه الضحضاح
عله قد درى بذاك فهذا هو باك ودمعه سفاح
ومنها ما يدل على أن العثمانيين لا ذوا بالفرار ، وتركوا وراءهم أرض
العراق دون دفاع وذلك ما يعز على العراق وسما كنيه ، فإن هذا الفرار
الفجائى والبعد الذى ما بعده من تلاق يحز في نفوس العراقيين ويعرض أرواحهم
للتلف ويبيح للأعداء استباحة ما يحرس عليه العراقيون :

أين أهل الحفاظ هل تركوني نهبة في يد العدو وراحوا
برحوا وادى السلام عجالا أجد براهم أم مزاح
ما لهم يبعدون عنى انتزاحا وعزيز منهم على انتزاح ؟
أو ما يعلسون حريمى للبعادين بعدهم مستباح ؟
فلئن يبعدوا فإن فؤادى لإلهم بوده طماح
تركونى من الفراق أقاسى ألما ما تطيقه الأرواح
لو رأونى سبيا بأيدي الأعداى لبكوا مثلبا بكيت وناحوا
لامسائى بعد البعاد مساء يوم بانوا ولا الصباح صباح
ثم يبنى الشاعر نفسه أو يبنى العراقيون أنفسهم بأن الأتراك لم يغمض لهم
جفن منذ غادروا العراق مضطرين وأنهم لا بد سيعيدون الكرة لاستخلاصه
لأنفسهم ، وإنقاذه من أيدي أعدائهم

أنا أدري بأنهم بعد هجرى لم يذوقوا غمضا ولم يرتاحوا

بل هم اليوم عازمون على الزحف ف بجيش به تغص ، البطاح
 إن تأنوا فربضة الليث تأتي بعدها وثبة له وكفاح
 وإنا لنعجب العجب كله من هذه العواطف الثرة والشعور الفياض من
 معروف الرصافي . اللهم إلا أن يكون حقه على الحركة الجديدة والانقلاب
 الجديد ورجاله هو الذي دعاه إلى الإشادة بذكر الذين أذلوا العراق واستنزفوا
 ثروته وأعملوا فيه الجور والفساد وقضوا على مافيه من آثار المجد الطارف
 والتليد .

وكيف يحن الرصافي إليهم ؟ وكيف يصف عهدهم بأنه زان وادى الرافدين
 بما أسبغ عليه من الحب والوداد ، وأنه قد توج بتاج من فخر بني عثمان وأنه
 اتخذ هلالهم له وشاحاً ورمزاً ؟ :

كيف يغضون عن إغاثة واد زانه من ودادهم أوضح ؟
 فعليه من فخر عثمان تاج وله راية الهلال وشاح
 ومع هذا الأنين والحنين ليس يسع الرصافي أخيراً إلا أن يعترف
 بالحقيقة وبأن هؤلاء الأتراك قد أدموا فؤاده . وما كان له أن يحدد ذلك
 وهو الذي سجل بيراعه ماقاسى العراق من ويلات الأتراك ونكباتهم:
 أنا باق على الوفاء وإن كا نت بقلبي ممن أحب جراح
 فيأليهم ومنهم اليوم أشكو بلغيم شكاتي يارياح

في عهد الانتداب - في عهد الحكم الوطني - في عهد الاستقلال

يا مَوْطِنًا لستُ منه في مُوَادِعَةٍ عِشْ بَعْدَ مَوْتِي عِشْ الْوَادِعِ الْهَانِي
فَكُلُّ مَنْ فِيكَ تَعْنِينِي سَعَادَتُهُمْ وَكُلُّ أَبْنَائِكَ الْأَعْدَاءِ إِخْوَانِي
إِنْ سَرَّكَ الدَّهْرُ يَوْمًا مَرَرَنِي، وَإِذَا أَذَاكَ بِالْمَزْعَجَاتِ الدَّهْرُ أَذَانِي
(الرصافي)

ولفظ هذا العهد الطويل المظلم آخر أنفاسه ، وطويت آخر صفحاته ،
وجاء الإنكليز يُمِنون بالحياة بعد الموت ، والعلم بعد الجهل ، والغنى بعد الفقر ،
والصحة بعد المرض ، ويستقبل الرصافي هذا العهد بما ودع به عهد الأتراك
أنفاه، ينتدبه بالتشاؤم ولا يزال متشاؤماً طوال مدة الانتداب، بل يتماذى في تشاؤمه
في عهد الحكومة الوطنية ، وفي عهد الدستور ، وفي عهد التمثيل النيابي ، وفي
عهد المعاهدة ، وفي عهد العلم وعهد النور ،

وهكذا يقف الرصافي موقفاً سلبياً لم يكن له من "مبرر". فأساء بالناس
الظنون وأساء الناس به الظنون ، فبقي هذه المدة حتى وفاته يحيا حياة العزلة ،
وإن شئت فقل إنها حياة المنبوذين :

وما كان أغنى الرصافي عن هذا التطرف في التشاؤم الذي أسخطه على الحياة
وأسخط عليه الحياة .

لقد دنت الآمال ، وتدلّت قطوفها وصار الأمر بيد أبناء البلاد ، وابتعد العدو عن الميدان قليلا قليلا ! فما باله لم يمد يده ليضعها في أيدي من يتوسم فيهم الخير وصدق الوطنية ، ليدهم في هدوء بما يستطيع من أسباب النصيح الذي يقود سفينة البلاد إلى ساحل النجاة ؟ ! وكان حسب الرصافي أن يتسّم ذروة الشعر ينفتح به أمتة الفينة بعد الفينة ، وهو في هذا الميدان حاكم وأمير له شأنه ، والجماهير تهتف باسمه وتردد نفحاته ، وتبث نفثاته ، قبل أن يخط منها حرفا يمينه ؟ !

الواقع أن الرصافي بارتضائه هذا المسلك لم يكن التوفيق رائده ، ولم يكن يحدوه الرشد ، وقد كان له العذر كل العذر أيام الانتداب ، وليس له شيء من العذر أيام الحكم الوطني ! فيعيش بعيداً عن الميدان الذي يتطلب من كل ذي موهبة أن يكون جندياً من جنود الوطن ، يذود عنه ضربات المعتدين ، ويرد عنه كيد الكائدين .

استمع إليه في قصيدته التي دعاها (ولسون بين القول والعمل) وهو صاحب المبادئ المشهورة ، مبادئ الحرية تر الرصافي يبدى تشاؤمه وفزعته من عدم موافقة العمل الجدى القول البهرج الخداع وآية التشاؤم قوله :

أيها المسلمون لستم من الغرب	ب بحال تستوجبون احتراماً
إنما أنتم لدى الغرب قوم	خلقوا عن سوى الشرور نياما
فإذا ما وسعتم الناس حلما	عده الغرب شرة وعراما
وإذا ما ملائتم الأرض عدلا	عد جوراً ، أو مفخراً عددا
وإذا ما فعلتم الخير يوما	حسبوه جناية وأثاما
وإذا زلة لكم دفن الدهم	رأملوا بنبشها الأقالما
وإذا ما افترى عليكم عدو	أيدوه ، وصدقوا الأوهاما
وإذا ما جنى عليكم أناس	سكتوا عنهم ، ومروا كراما

وقبل هذا التشاؤم الواضح يبدي حنينه إلى الدولة البائدة وحنقه على
الذين صدعوا بنيانها، وشجعوا الثورات في البلقان عليها رامياً إياهم بالتعصب
الديني إذا استباحوا حتى أزمير نهياً وسلباً واستحلوا سفك دماء بريئة .

مد (ولسون) في السياسة جبلاً جمع النقض فيه والإبراما
فلبعض الأنام كان عصاماً ولبعض الأنام كان خصاماً
ملاً الدهر في (فيومة) فخراً وبأزمير أخجل الأياما
إن إزمير صيرت (مالولسو ن) من الفخري (فيومة) ذاماً
ويندد بتفرقتهم بين الغرب والشرق في المعاملة، فالمساواة والعدل والحرية
حقوق ولكنها للغربيين دون الشرقيين :

فهل الحق عنده في سوى الغر ب حقير أقل من أن يحامى ؟
أو هل الشرق وحده في الأقال يم مباح أن يستبي ويضاماً ؟
أو هل القوم عاهدوا الله في أن لا يراعوا للمسلمين ذماماً ؟
ما لهم أرهقوا بني الشرق ظلماً وعلى الترك أشلوا الأراماً ؟
فاستباحوا حريم أزمير نهياً واستحلوا من الدماء حراماً
حيث جاسوا خلالها بجنود ركبت في عتوها الآثاماً

واستمع إليه مرة ثانية في قصيدته (غادة الانتداب) ترشاعرية فذة
وروحاً قوية، فقد كسا الشاعر هذه الغادة أجمل الكسا وألبسها تاجاً من
الدروياقوت، وجعلها تسير محتالتهوى في هذا الزى البارق الأخاذ خضراء
الدمن، تبدى تلطفها وجمالاً وتحنى لؤماً وشناراً وتسترجباً وعاراً .

فالغش في لحتها والسدى وكل ما يدعو إلى الارتياب
قال جليسى يوم مرت بنا من هذه الغادة ذات الحجاب ؟
قلت له : تلك لأوطاننا حكومة جادها الانتداب
نحسبها حسناء من زينا وماسوى (جنبول) تحت الثياب

ظاھرھا فیه لنا رحمة والویل فی باطنھا والعذاب
مصائبنا أمسى فظیعا بها یارب ما أفضع هذا المصاب!
تالله قد حق لنا أننا نحشو علی الأروؤس کل التراب

وفی قصیدة أخرى سماها (کیف نحن فی العراق) یحمل علی الحكومة
حملة شعواء ویقول إنها لیس لها من الحكم إلا اسمه ، ومن السلطان إلا رسمه ،
فهذه أعلام ترفرف فی الفضاء ، والبلد یئن من الفقر والإملاق والغریب فی
العراق سید ، وکل أهله مسود حتی للهنود ، وأبناء البلاد فی ظاھر أمرهم سادة
وإن كانوا فی حقیقتهم عبیداً للأجانب وهو بعد کل هذه الحملات عديم الثقة
بهؤلاء الإنکلیز وبهذه الوعود التي یرسلونها ، ولیست هذه الوعود فی نظره
إلا قيوداً یقیدون بها الأحرار من أبناء البلاد ، ومن العبث أن تلتمس من
الذئب الجائر شفقة علی الحمل الودیع الضعیف ، والعراقيون فی أيديهم أسارى ،
ویصب جام غضبه علی المخذوعین بهذه الوعود حتی لتتفر القروء من قرابة
هؤلاء السادة علی أبناء جلدتهم ، العبيد لغيرهم من یوجهونهم الوجهة التي یرضونها
وقصیدته (حكومة الانتداب) یعنف بها أقصى العنف ولیس یبالی بعد
ذلك أن یرمی بالتطرف :

أنا بالحكومة والسیاسة أعرف أألام فی تنفيذها وأعنف ؟
سأقول فیها ما أقول ولم أخف من أن یقولوا : شاعر متطرف

ثم یتابع خطته السابقة من تناول أبناء البلاد الذین یتربعون فی دست الحكم
بالنقد اللاذع فیصفهم بأنهم یتظاهرون بالسطوة والصولة ، ولیس ذلك عن
حقیقة ولكنه تصنع وتكلف ، فقصدھم التویه والغش لیوهموا أبناء البلاد أنهم
القادة والسادة ، لحقیقتهم حقیقتان : أولاهما ظاهرة خداعة ذات بطش
وثانیتهما باطنة خفية مستکينة ، ویین المظهر والخبر بعد محیق وبون شاسع
هذا رأیه فیهم یركره ویؤكدہ .

علم ودستور ومجلس أمة كل عن المعنى الصحيح محرف
 أسماء ليس لنا سوى ألفاظها أما معانيها فليست تعرف
 من يقرأ الدستور يعلم أنه وفقاً لصك الانتداب مصنف
 من ينظر العلم المرفرف يلقه في عز غير بني البلاد مرفرف
 من يأت مطرد الوزارة يلفها بقيود أهل الاستشارة ترسف
 وهي طويلة تبلغ ثلاثة وأربعين بيتاً كلها على هذا المنوال من العنف
 والتطرف ، بما لم يسبق للرصافي مثله في عصر الاستبداد أيام الحكم العثماني .
 وعندنا أن الرصافي بذلك كان حراً في قول ما يريد وفيه دلالة على أن
 الحكومة كانت تنهج نهجاً ديموقراطياً وهذه هي الحرية التي يستطيع المستظل
 بظلمها أن ينقدها دون خوف ولا رهبة . ولو كان هنالك طغيان حقيقي لما
 استطاع الرصافي أن يقول ما يشاء وأن تصدر عنه هذه الحملات الجريئة .
 ويذكر المعاهدة التي ربطت العراق بحلف انكلترا فلا يراها محددة الحقوق
 والواجبات بين الدولتين المتعاهدين ولكنه يراها بمنظاره الأسود ، وبما عرف
 عنه من التطرف في التشاؤم ، قيوداً من قيود الذل والاستعباد ، وصكاً من
 صكوك الأسر والعذاب للعراق وساكنيه .

نشروا المعاهدة التي في طيها قيد يعرض بأرجل الآمال
 والعهد بين الإنكليز وبيننا كالعهد بين الشاة والرئبال
 من ذا رأى ذئب الذئاب مصاحفاً بتودد حملاً من الأجمال ؟
 لكنهم خافوا انفسك قيوذنا فاستوثقوا منهم بالأقفال
 كتبوا لنا تلك العهود وإنما وضعوا بها قفلاً من الأغلال
 شلت أكف موقعيها إنهم حلت عليهم لعنة الأجيال
 هب أنهم أمنوا انفسك قيوذنا أفيأمنون تغلب الأحوال ؟
 وقد عرفت أنه كان عضواً في البرلمان العراقي الذي أمضى هذه المعاهدة

وكان أول معارض لها . ومن ثمرات هذا التطرف في الرأي الذى منى به
 الرصافى أن أصبح يرى الوزارة لا تقوم إلا إذا رضى عنها الانكليز .
 إن الوزارة لا أبالك عندنا ثوب يفصل فى معامل لدنا
 لا يرتديه سوى امرىء أضحى له طبعاً وداد الانكليز وديدنا
 عجيب هذا والله من الرصافى أن يصف قادة البلد بهذه الأوصاف التى
 لا تلتئم مع ما عرفوا به من صدق الوطنية ، وإنك لتعجب أكثر من ذلك إذا
 رأيت تقربه إلى هؤلاء ومدحه الرنانة لهم ، وهو فى هذه المدائح يضيف عليهم
 ثياب الوطنية السابغة والإباء الذى لا يرقى إليه الشك ، مدح منهم عبد المحسن
 السعدون ومدح نورى السعيد وغيرهما بغرر شعره ، وفرائد نظمه ، وحسبك
 أن تقرأ هذه القصيدة ينهى بها نورى السعيد حينما أنعم عليه ملك البلاد
 بوسام الرافدين فى يوم ٢٦ من أذار سنة ١٩٣٢ :

ته يا وسام الرافدين بصدر من هو فى العلا للرافدين وسام
 نورى السعيد أبو صباح من به سعد العراق فثغره بسام
 قد أنعم الملك المطاع به لكى يزدان فيه وزيره الضرعام
 يا حبذا ذاك الوزير وحبذا الملك المطاع وحبذا الإنعام
 زهى الوسام بصدرة فكأنه تاج المليك يحفه الإعظام
 صدر إذا الخطباء لهم تلاتات فيه السجايا الغر والأحلام
 وإذا تنهدت الصدور لحادث بدت الشجاعة منه والإقدام
 ليس التفاخر بالوسام بهمه ولو انه افتخرت به الأقوام
 بل همه أن تستقل حكومة ويتم فى أمر البلاد نظام
 فعلى البلاد من الرئيس تحية وعلى الرئيس تحية وسلام
 وقد نستطيع أن نلح علة العلل فى الحملات التى أشرنا إليها مع هذا الشاء
 الزاخر الذى رأيت نموذجاً منه ، وذلك أن الشاعر كان يرى نفسه من أقطاب

بلاده ، وأنه خدم هذه البلاد بروحه ، وبقلبه ، وبشاعريته ، وأنه قد أتيح له في العهد التركي الوصول إلى ذروة ما يصبو إليه أمثاله إذ ذاك ، وهو تمثيل بلاده في المجلس النيابي التركي ، وذلك أمل من أعذب الآمال لمن يريد أن يسهم في الخدمة العامة لبلاده .

كان الرصافي يتوقع في العهد الجديد عهد الحكم الوطني أن يكون من ذوى المراكز الممتازة والمناصب العالية ، وكان يرى أن الأدباء في العصر العباسي قد وصلوا بأدبهم وحده إلى منصب الوزارة كالحسن وسليمان ابني وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن سهل ، وغيرهم كثير ممن أصبحوا في مناصبهم وسطوتهم وسلطتهم يلون الخليفة في منصبه وسطوته وسلطته . فإياه وهو من ذكرنا وفي ديار العباسيين نفسها يضمن عليه بمالم يضمن به على نظرائه ممن لم يكافؤوا كفاحه ولم يلوا بلاده ولم يجاهدوا جهاده في سبيل الوطن وحرية ؟

وعنده أن هذا التقدير للأدب والأدباء وإحلالهم هذه المنزلة السكرية إنما هو خاصة من خصائص العروبة الحية ، وظاهرة من أدل الظواهر على التفوق ، فإذا انعدمت هذه الظاهرة فعنى ذلك أن العروبة قد زالت آثارها ، أو فقدت أحسن خصائصها . وفي الآيات التالية ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن حرمانه من الجاه والنفوذ الذي كان يصبو إليه ويرى نفسه جديرا به كان من أهم الأسباب في هذه الثورة العادلة أو الجائرة :

قد كان للعرب الأكارم دولة	من بأسها الدول العظيمة ترجف
عاش الأديب منعماً في ظلها	والعالم التحرير والمتفلسف
أيام كان المسلمون من الورى	في ظلها لهم المحل الأشرف
ثم انقضى عهد العروبة مذغدا	عنها الزمان بسعده يتحرف
حتى تقلص بعد من سلطانها	ظل بأقصى المشرقين مورف

وغدت ممالكها الكبيرة كلها لسهام كل دويلة تستهدف
فبنو العروبة أصبحوا في حالة منها العروبة لا أبالك تأنف
والمسلمون بحالة من أجلها تالله ضج بما حواه المصحف

ويؤكد ما ذكرناه قصيدة أخرى عنوانها (بعد النزوح) قالها في بيروت
سنة ١٩٢٢ وكان قد غادر بغداد ساخطا على ألا يعود إلى العراق ، وفي هذه
القصيدة تستشف أن سوء المعاملة التي عومل بها الشاعر الحر هو سبب هذه
الثورة الجارحة فهو متعلق ببلده تعلق الطائر بعشه ، والعصفور بوكره ، ولكنه
لا يسعده فيضطر اضطراراً إلى الهجرة عنه تربصاً لما تأتى به الأيام ، ومطلع
هذه القصيدة :

هي المواطن أدنيا وتقصيني مثل الحوادث أبلوها وتبليني

وهي قصيده ألّمة تفيض أسى ولوعة وتلوح منها أمارات الحزن العميق
على ما أصابه من فشل في الحياة وخيبة في الآمال في وطنه الذي رواه بدموعه
وأسى جراحه بالحناءه :

حتى متى أنا في البلدان مغترب نوائب الدهر بالأنياب تدميني ؟
فتارة في المواصي فوق موقرة وتارة في الطوامي فوق مشحون
كم أغرقني الليالي في مصائبها فعمت فيهن من صبرى بدلفين
أنا ابن دجلة معروفها أدبي وإن يك الماء منها ليس يرويني
قد كنت بلبها الغريد أنشدتها أشجى الأناشيد في أشجى التلاحين

إلى أن يقول في هذه الآيات العاطفية التي تثير الأسى وتهيج الشجون :

ويل لبغداد بما سوف تذكره غنى وعنها الليالي في الدواوين
لقد سقيت بفيض الدمع أربعها على جوانب واد ليس يسقيني
ما كنت أحسب أني مذ بكيت بها قومي بكيت على من سوف يبكييني

إلى أن يقول وهنا بيت القصيد :

أفى المروءة أن يعتز جاهلها وأن أكون بها فى قبضة الهون
وأن يعيش بها الطرطور ذا شمم وأنه أسام بعيشى جدع عرنين
تالله ما كان هذا قط من شيمى ولا الحياة على النكراء من دينى
ولست أبذل عرضى كي أعيش به ولو تأدمت زقوما بغسلين
وبعد شيء من الفخر والحكمة يقول :

ما كنت أحسب بغداداً تحلنى عن ماء دجلتها يوماً وتظمينى
تالله ما ضاع حقى هكذا أبداً لو كنت من عجم صهب العثانين
علام أمكث فى بغداد مصطبراً على الضراعة فى بحبوحة الهون؟
لأجعلن إلى بيروت منتسبى لعل بيروت بعد اليوم تؤوينى
خابت ببغداد آمال أو ملها فهل تخيب إذا استدرت بصنين؟

وفى هذا القدر الذى أوردناه الكفاية للتعريف بالرصافى فى عهد الحكم
الوطنى لتبين منه شعره السياسى فى هذه الفترة وتعرف نوازعه ودوافعه .

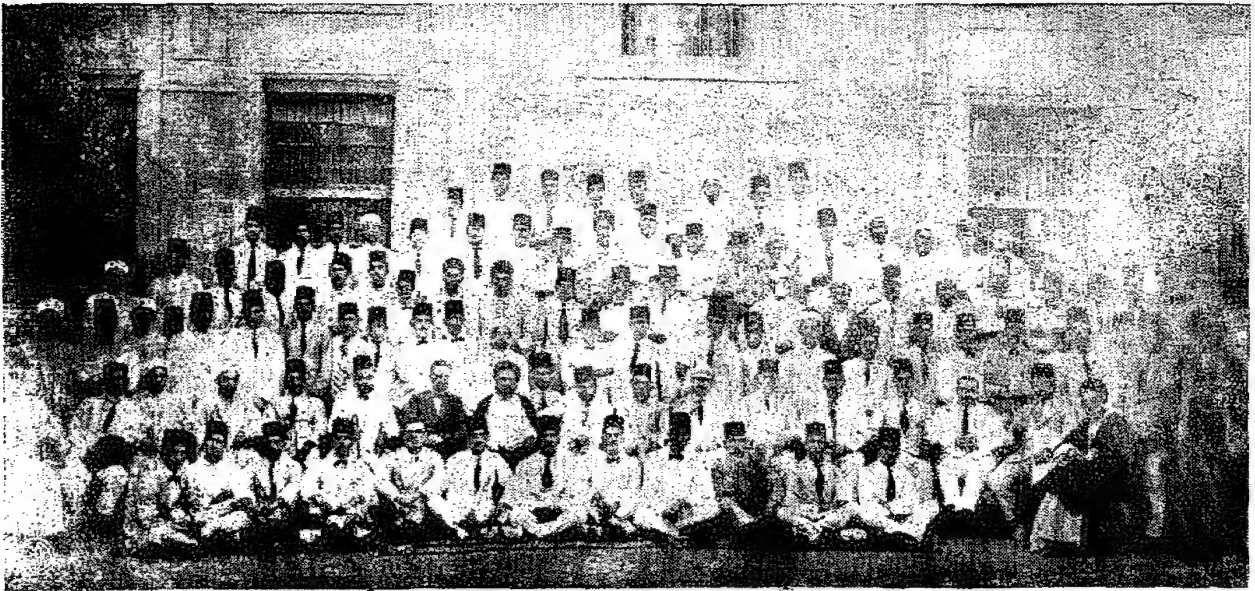
إن الإباء الذى عرف عن الرصافى هو الذى أوردته موارد الحرمان الذى
قاساه فترة طويلة من حياته ، وجعله يحيا حياة الغريب ، فى بلده الحبيب ومن
عادة الأحرار قلة الشكوى ، والصبر على ما يصيبهم ، احتساباً لمبادئهم التى
اعتنقوها ، وتضحية فى سبيل أوطانهم التى هاموا بها ، ولكنك تجد الرصافى
شاكياً حيناً ، بل أحياناً ، ولقد عرفت سبب أناته ، ومبعث شكاته ، وهو شعوره
بهضم حقه ، وعدم إحلاله ما هو أهل له من المنزلة والمنصب .

وها هو ذا يردد الشكاة ، وينشدها فيلسوف الفريكة ، وكاتب العروبة الحر
(أمين الريحانى) وليست شكوى الحر إلى الحر غريبة عند أهل النظر :
(شكوت وما الشكوى لمثل عادة ولكن تفيض الكأس عندما تملأها)
يقول :

فديتك ! هل تصيخ فإن عندى شكاة لا تصيخ لها الخطوب ؟

إلى كم أستغيث ، ولا مغيث وأدعو من أراه فلا يجيب ؟
ثم يصور حياته بين قوم ملأت قلوبهم الأحقاد ، وتسرب إلى نفوسهم
الفساد حتى أصبح لا يطمئن لصديق لطول ما قاسى من شرورهم ، فهم ينكرونه
إذا رأوه ، وهو ينكر منهم نفوسهم التي انضمت على الإحن ، وقلوبهم التي
تكاد تميز من الغيظ :

أقمت ببلدة ملئت حقوداً على فكل ما فيها مريب
أمر فتنظر الأبصار شزراً إلى كأنما قدم زيب
وكم من أوجه تبدى ابتساماً وفي طي ابتسامتها قطوب
وقد انتهى به المطاف إلى حياة أصح ما توصف به أنها حياة الشريد ،
الذي لا يجد مأوى يأوى إليه ، ولا إلفاً يحنو عليه :
سكنت الخان في بلدى كأنى أخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه لأنى اليوم فى وطنى غريب
ثم يبرر شكواه ، وهو الذى لم يعرف الشكوى !
وإن أك قد شكوت فما شكائى إلى ذى خلة شىء معيب



في الحفلة الترحيبية التي أقامتها وزارة معارف العراق لفيلسوف الفريقكة امين الريحاني عند قدومه بغداد وقد جمعت حشدا من رجال العلم والأدب يتوسطهم سماحة الشهرستاني يجلس إلى يساره السادة مع حفظ الألقاب: الريحاني فالزهاوي فالخصري فالجلبي فالرصافي، وفي الجالسين إلى يمينه السادة مع حفظ الألقاب: إبراهيم صالح شكر فيوسف عز الدين فطه الراوي فمخير القاضي (من مجموعة معالي السيد هبة الدين . صورت في آبول سنة ١٩٢٢)

في سبيل العروبة

لننتقل بك أيها القارئ الكريم إلى لون آخر من شعره السياسي الذي تناول به وطنه الأكبر بلاد العروبة ، ولقد بان لك مما سبق من سياسياته في العهد التركي تغنى الشاعر بالعروبة وتفاخره بها ، وإشادته بأمجادها ، ووعيده بغضبتها المضرية ، مما لم يبق معه ستسع لتحليل قصائده العامة التي تتصل بهذه الناحية .

كان الرصافي من أول العاملين بما أرسله من الشعر الحى على بعث الأمة العربية من رقادها ، ونهضتها من الهوة التي تردت فيها ، وطرح أسباب المنافسة ، ونبد أسباب الشقاق بينها ، وسد أبواب الخلاف التي يفتحها الأجنبي للحيلولة دون اتحادها ، واجتماع كلمتها ، ذلك الأجنبي الذي اتخذ لنفسه المبدأ المعروف (فرق تسد) ، وجعل منه تفرع سياسته ليصل بها إلى ما يبغي من غرس الأحقاد ، وحين ذلك يستطيع أن يغرس جذور الاستعمار ، ليحوله الاستغلال مادام قد استطاع أن يصرف الناس من حوله إلى حرب النفوس ، ويصدق عليهم حينذاك قول الله تعالى « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين » .

وأول من تنبه لذلك ونبه إليه معروف الرصافي الذي شعر بما لم يشعر به غيره . وصرح بأن الاتحاد قوة ، بل هو ضرورة من أهم ضرورات البقاء لمن يطمح في البقاء .

كان الاتحاد بين شعوب الأمة العربية حلما من أحلام المخلصين ، ولكن ما كان أحد يظن أن تحقيق هذا الحلم اللذيذ يمكن في عالم الحقيقة ، وتسرب إلى النفوس كثير من اليأس من تحقيق هذه الغاية المثلى ، فأدى ذلك إلى المكسل

وأسلم العرب الى التراخي ، وأصبح العراقي يظن أن لقاءه أخاه المصري أو الحجازي أو الشامي أمل بعيد الوقوع أو على الأقل ولكن دون ذلك أهوال أو من هذا اليأس في الداخل ، وديسائس الأعداء نشأت هذه الفرقة واتسعت الهوة بين الإخوة ، ونشأ تبعاً لذلك الإهمال الذي أدى إلى الجهل أو التجاهل بكل شيء مما يجب أن يعرفه العربي عن أخيه العربي ، وإلى عهد غير بعيد كان المصريون في عزلتهم عن إخوانهم لا يعرفون من أحوال العراق شيئاً في عصره الراهن . لقد قرءوا عنه كثيراً ! ولكن أين ؟ في كتب السابقين الغابرين .

وتلك حالة تدعو إلى العجب ، بل إلى الدهش ، فتاريخ الأمة العربية في عصور الجاهلية البعيدة يدرسه ويحققه ، وتاريخ السيرة النبوية وعهد الخلفاء يعرفونه معرفة مؤرخيه ، وتاريخ الأمويين ، وتاريخ العباسيين ، كل ذلك درسه دراسة فاحصة ، تتعدى الإجمال إلى التفصيل ، والمتعلمين إلى العامة . أما تاريخ إخوانهم المعاصرين الذين أصبح اتصالهم بهم سهلاً ميسوراً ، فما أجملهم به ، وما أقلهم معرفة بما قطع العراق وغيره من أشواط في نهضته الحاضرة . السبب في ذلك هو هذه الهوة العميقة التي احتفرها العدو المشترك بينهم وبين من يحبون ، وأدى هذا إلى عدم إلمامهم بأحوالهم في عصر توثبهم ، والناس أعداء ما جهلوا !

كان لهذه الحالة الأليمة أثرها في نفس الشاعر ، فعرف هذا الجفاء وتبين أسبابه ، وعرف أنه خلاف غير طبيعي بين الأخ وأخيه ، وأن هذه النفوس المتفرقة أيدي سباً لا بد أن تعود لها وحدتها الطبيعية كاملة غير منقوصة . ولا نعرف شاعراً في هذا العصر آمن بهذه الوحدة . إيمان شاعرنا الخالد الرصافي ، ولا نعرف شاعراً تغنى بها ومامل الغناء ، والناس عنه في شغل حتى أصغت الآذان إليه وأصاحت القلوب لألحانه مثل الرصافي .

ففي قصيدته (بين تونس وبغداد) التي أنشدها في حفلة التأهيل والترحيب

بالزعيم التونسي (عبد العزيز الثعالبي) عند قدومه بغداد سنة ١٩٢٥ يعبر عن
عواطف الحب التي تفيض بها قلوب البغداديين نحو إخوانهم أهل تونس :
أتونس إن في بغداد قوماً ترف قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب إلى من خص منطقهم بضاد
ودين أوضحت للناس قبلا نواصع آيه سبل الرشاد
فنحن على الحقيقة أهل قرى وإن قضت السياسة بالبعداد
وماضر البعاد إذا تدانت أو اصر من لسان واعتقاد ؟
وإن المسلمين على التآخي وإن أغرى الأجانب بالتعادي
أتونس إن مجدك ذو انتماء إلى عليا نزار أو إياد

وفي هذه القصيدة ترى الشاعر جمع بين رابطتين وربط بين جامعتين ،
أولاهما جامعة اللغة التي تميز القوم عن القوم والجنس عن الجنس ، وتلك
جامعة العروبة ، وثانيتهما جامعة الدين ، أي الجامعة الإسلامية ، وهي وشيخة
تصل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها مصداق قول الله تعالى : « إنما
المؤمنون إخوة » .

وقد كان لكلتا الجامعتين مقام ، وانقسم الناس أحزاباً ، منهم من يريد لها
جامعة العروبة الشاملة كل من ينطق بلسان عربي دون نظر إلى دين أو طائفة
أو مذهب . وإنما تتكون هذه الجامعة من مجموعة الأمم التي تضمها وحدة
اللسان والجنس والعادات والتقاليد وهي بهذا المعنى أعم من الجامعة الإسلامية
التي تضم كل من شهد أن (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) فيدخل في
الجامعة العربية المسلمون والنصارى دون نظر إلى تعدد النحل وتشعب المذاهب
واختلاف الطوائف ، وهي أخص من الجامعة الإسلامية من ناحية أخرى
لأنها تنفي عدداً غير قليل من الأمم التي تدين بالإسلام وليست عربية الأصل
واللسان كإيران وأفغانستان والهند وكرديستان وتركيا ومعتنق الإسلام
عامة في أوروبا وفي غيرها .

وفي زمن الرصافي كان للمذهبيين أنصار. ويتمثل أنصار الجامعة الإسلامية فيمن يفضلون بقاء الاستقلال بالراية التركية والسيادة العثمانية ولأن الجالس على عرشها خليفة المسلمين وأمير المؤمنين .
وأنصار الجامعة العربية يتمثلون في جماعة العرب الثائرين على الحكم التركي الذي اعتوره في بعض فتراته شيء من التعصب الديني .

وإنك لتقرأ الوحدة العربية في أكثر قصائد الرصافي فترى دعوته إلى طرح الخلافات الدينية والنعرات الطائفية ، لأن كل أبناء الوطن سواء في التمتع بخيراته والنهوض بواجباته وتبعاته ، كما تجده لبعض ما قدمنا من الأسباب من دعاة الوحدة الإسلامية أحيانا ، اقرأ له في قصيدة « في سبيل الوطن » وكلها نداء لإخواننا المسيحيين لينسوا الأضخان ولتبنى الأوطان على أساس من الأخوة والتعاطف .

علام التعادى لاختلاف ديانة وإن التعادى في الديانة عدوان ؟
وما ضر لو كان التعاون ديننا فتعمر بلدان وتأمين قطمان ؟
إذا جمعتنا وحدة وطنية فماذا علينا أن تعدد أديان ؟

والإنجيل والقرآن كتابا الله نزلا لإسعاد البشر فكل من حدثته نفسه بدعوة إلى التفرقة متعصبا لدينه ، فدعوته باطلة ، لا يقره عليها شرع ولا يشد أزره سند من دين ، وإذا كان هذا الدين سبب الشقاء بسبب حماقة بعض الجهال والمتكسبين به فاتباع الدين عند الرصافي خسران !

الوطن هو الأم الروم الذي غذى أبناءه بدره ، وهو المستقر والمستودع وفي قلبه العطف والحنان لسكانه أجمعين . ولذلك ترى الرصافي يعتب على بعض بني العروبة من غير المسلمين ، هذا التصابر والتواني في سبيل الوطن . وواجبهم النهوض لافتدائه وذود الطامعين فيه .

مواطنكم يا قوم أم كريمة تدر لكم منها مدى العمر ألبان

ففي حضنها مهد لكم ومبابة
 فما بالكم لا تحسنون وواجب
 أصبراً وقد أمسى العدو يهينها ؟
 أجل إنكم تأبى الحياة نفوسكم
 ألستم من القوم الذين علاؤهم
 نمتكم إلى المجد المؤئل (تغلب)
 فلا تنكروا عهد الإخاء وقد أتت
 أجب أيها الندب المسيحي مسلماً
 وفي قلبها عطف عليكم وتحنان
 على الابن للأم الكريمة إحسان ؟
 أما فيكم شهم على الأم غيران ؟
 إذا لم يكن فيها على المجد عنوان
 تقاعس عنه الدهر وانحط كيوان ؟
 كما قد نمتكم للكارم (غسان)
 تصالحكم فيه (نزار) و (عدنان)
 صفا لك منه اليوم سر وإعلان

فإذا ما تمت هذه المؤاخاة واستجاب الأخ لأخيه فلا ضير على الوطن
 ولا خشية من عدو كان يعمل جاهداً لإحداث ثلثة في الصفوف ، وتفريق
 الأهواء وعادت البلاد عريناً لا تستطيع الدنو منها الثعالب التي همها العمل
 على الفرقة والقضاء على الألفة .

وتملك الحماسة العريية على الشاعر حسة فينطلق في غر فاخر ، وشجاعة
 مضرية يهدد بالضراغم الشداد تهديداً يثير النقع ويعبث بالبعض الهندوانية
 والمشرقية اليمانية ، ووراء كل ذلك النهضة التي يرقبها لهذه الأمة الألية .

سنتنهض للمجد المخلد نهضة
 وتقترن من أرض الشام (دمشقها)
 وتقرب في (البيت المقدس) صخرة
 وتحسن للعرب السكرام عواقب
 يقربها (حوران) عينا و (لبنان)
 وتهتز من أرض العراقين (بغداد)
 وترتاح في (البيت المحرم) أركان
 فيحمدها (مفت) ويشكر (مطران)

هذه هي العاطفة العريية المشبوبة في نقشات الرصافي ، وهو يرحب بكل
 حركة تحريرية ، وفكرة إصلاحية يصيب الوطن العربي منها خيراً أو يزيل
 عنه بها حيفاً .

فلقد قام (الإصلاحيون) في بيروت ، يطالبون الدولة العثمانية بالإصلاح

فقام الرصافي يؤيدهم ويدعو العرب جميعا إلى الانضمام إليهم فصاغ قصيدته (في معرض السيف) وفيها يذكر حاجة هذه الأمة إلى القوة التي تجعل حقها مشهورا، بعد أن ثبت في مرات كثيرة أن هذه الأمة لقيت الدستور باللين والرفق، فلم يجدها اللين ولم يفدها الرفق، فلاحق بعد ذلك إلاما تؤيده القوة:

فالعالم ما قارنته البيض مفخرة والحق ما وازرته السمر محترم
وإنما العيش للأقوى فمن ضعفت أركانه فهو في الثاوين مخترم
والعجز كالجهل في الأزمان قاطبة داء تموت به أو تمسخ الأمم
والمجد يأثل حيث البأس يدعمه حتى إذا زال زال المجد والكرم

هذه أبيات من القصيدة التي استقبل بها الرصافي حركة هؤلاء (الإصلاحيين) وهي طويلة فارجع إليها في ديوانه^(١)

ولسكنه لا يلبث أن يطلع على لائحة هؤلاء الإصلاحيين فيرى فيها ما يبدد أحلامه ويقض مضجعه وهي الدعوة إلى التمرة الطائفية والعصية الدينية فتأخذ اللوعة لحية آماله فيهم، ويوجه إليهم قصيدته التي عنوانها (ما هكذا؟) وفيها يندد بهم ويعيب عليهم ما ذهبوا إليه من الدعوة إلى الفرقة وهم في أول طريق الوحدة، وأصبح يوسعهم لو ما وتقريبا على هذه الدعوى الباطلة، وقد كان يعهدهم لا يعرفون غير العروبة دينا.

راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا
قد كافوا شططا فيها حكومتهم وخالفوا الحزم فيها والتجاريا
عدوا النصراري وعدوا المسلمين بها ونحن نعهد طرأ أعاريا
قد حكموا الدين فيها فهي معربة عما يكون لدعوى القوم تكذيبا
إلى أن يقول:

أنى مصالح دنياهم وهم عرب جاءوا على حسب الأديان ترتيباً ؟
 ما ضرهم لو نحوا فى الأمر جامعة تنفى الكنائس عنها والمحاربا ؟
 لكنهم أمة تأبى مشاربهم إلا التعصب للأديان مشروباً
 ثم تأخذ الشفقة عليهم فانهم لم يلتمسوا للنجاح أسبابه ، ولم يلجوا للفوز
 أبوابه ، وإنما اشتطوا ، فما يغنى عنهم طيشهم واشتطاطهم :
 قد حاولوا الحق واشتطوا بمطلبه حتى بدا وجهه كالليل غريباً
 قد يطلب الحق طياش فيبطله ما كل طالب حق نال مطلوباً
 ويعود فيذكر القوم بما رحب بهم حين عرف أنهم يريدون إصلاحاً ،
 وقد طلب لهم فوزاً وتوفيقاً ، وكيف شجعهم بشعره الذى غازل فيه الآمال
 حتى بدا الشر فى لائحتهم التى إن دلت على شيء فإنما تدل على فساد رأيهم ،
 وكأنهم بهذا الشطط أفسدوا مطالبهم ، وقضوا على حقهم بأيديهم ، والحق
 لا يحين إلا إذاتهيأت له النفوس يداً واحدة وقلباً واحداً .
 وأعجب الأعاجيب أن أحد زعمائهم (حقى العظم) وكان إذ ذاك فى
 مصر يبرق برقية إلى جريدة (الطان) الفرنسية يطلب فيها إلى حكومة
 فرنسا أن تنقذ سوريا بالتدخل فى أمرها ، وهنا يحمل الرصافى عليه حملة
 شعواء فيقول :

وهل تعمد (حقى العظم) فعلته لما نى خبراً (للطان) مكذوباً ؟
 إذ راح يستنجد الأفرنج منتصفاً كأنه حمل يستنجد الذيباً
 أرايت أيها القارىء هذه الثورة العنيفة يرسلها الرصافى شواظاً من نار على
 هؤلاء الذين أفسدوا الوحدة الجامعة بهذه الأوهام التى خلقوها والنعرات
 الطائفية التى ابتدعوها فشوهت حقهم البين الواضح فى الحرية والاستقلال ،
 وأظنك تجده هذه الثورة العنيفة لم يقصد بها الشاعر مدينته بغداد ولا وطنه
 العراق ، وإنما أرسلها صيحة مدوية فى الآفاق فى سبيل هذه العروبة التى يكلمها

أن يتفرق أشياعها وأن يتيهوا في بيداء التعصب والضلال ، فكانوا كمن سعت إلى ختفها بظلفها ، وما يجديهم التقرب إلى الفرنسيين الذين أخذوا يعيشون بين البلاد السورية اعتساف الدثب في أودية الفرائس يبحث عن ضحية يتلهى بها وفريسة يشبع نهمه من دماؤها وأشلائها .

لكن باريز مازالت مطامعها تنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا ولم تزل كل يوم من سياستها تلقى العراقيل فيها والعراقيا هل يأمن القوم أن يحتل ساحاتهم جيش يدك من الشام الأهاضيا؟ وبعد هذا العتب الممض واللوم الجارح ثار على الرصافي قوم منهم وأخذت صحفهم تشنع عليه وترميه بما هو منه براء . وذلك بأن اتهموه ظلما بأنه يعمل على إبقائهم مصفدين في أغلال الاستعباد حرصاً منه على إرضاء الدولة الحاكمة التي كان يقيم في حاضرتها (الاستانة) إذ ذاك

قلق الرصافي لأن القوم فهموا انصحه على غير وجهه ولسكنه لم يكن بهم في هذه المرة رفيقاً فصب عليهم جام غضبه ، ورماهم بطرفي الفضيلة وكلاهما رذيلة ولم يعمل الرصافي لبقائه في خطابهم فكان أيضاً مسرفاً كما كانوا مسرفين فجانب النصيح والإرشاد إلى الهجاء والإقذاع ولم يكن يجدر به أن ينحو هذا المنحى وهو الذي نصب نفسه مرشداً ومعلماً في مدرسة الوطنية التي يترفع فيها الزعيم عما يصيب شخصه أو يناله من كيد الكائدين ، ومن ذلك قوله فيهم :

قل للآلى انطقوا بالضاد مدغما لم يدغم الضاد آباء لكم فرطوا
أحسن اللحن إذا باؤكم فصحوا ؟ أم يحسن العجز إذا باؤكم نصحوا ؟
فيكم غلو وتقصير وبينهما ضاع المراد أأنتم أمة وسط ؟
ويدع هذا إلى الهجو المقذع الذي يذكرنا بمناقضات جرير والفرزدق حين احتدم بينهما الخصام (١)

(١) في القصيدة التي هجا بها أهل الشام هجو مقذع للعرب لا يقدم عليه

إني ابتليت بقوم يعرون على أعقابهم وإذا عنفتهم ثلثوا
 شطوا بأفواههم حتى لقد غضبوا إذ قلت : يا قوم في أقوالكم شطط
 فبدلوا القول إن صحت عزائمكم فعلا وإلا فإني يأس قنط
 قد جرت في الأمر : إني حين أسخطهم يرضون عني وإن أرضيتهم سخطوا
 وعند الرصافي أن قوما يسرفون في الاتهام ويختطون لأنفسهم هذه
 الحيلة التي عابهم عليها ، وهي الانحياز للهوى والتعصب ، غير جديرين بنسبتهم
 للعروبة ، التي تتناسى في سبيلها الغايات الشخصية ، والنزعات الطائفية :
 قل للأعاريب قد هانت مكارمكم حتى ادعاها أناس : كأنهم نبط
 برئت للعرب العرباء من فئة ينمون للعرب إلا أنهم سقط
 أين المكارم إن هم أصبحوا عربا فإنها في طباع العرب تشتط ؟
 إن يغمطوني لأنني جئت أنهمضهم فأى مستنفض ذى نجدة غمطوا ؟
 ويعود الرصافي مرة أخرى إلى الهجو المقذع والتشبيهات القبيحة والعيوب
 يلصقها بهم مما يأبى القلم أن يسطره فارجع في ذلك إلى ديوانه إن شئت .

من يجري في عروقه دم عربي ولو كان ناقما من قومه ، وكان موقف الرصافي
 من الحركة القومية الاصلاحية التي بعثها شباب العرب في بيروت وغيرها من
 الديار السورية ، وقد ساهم فيها فريق من الجالية العربية في مصر وقد طولب
 فيها الأتراك على لسان إخوانهم العرب بالكف عن الاستبداد في الحكم ،
 ونحس حقوقهم في إدارة شؤون بلادهم خصوصا في عهد الدستور . كان موقف
 الرصافي من هذه الحركة موقف الخصم الشديد ، وهو لا يقل عن موقف أي
 تركي معتز بنعرتة القومية ، والدليل على ذلك أنه أقذع في الهجاء ونسب إلى
 العرب مانسبه من المساوى والمعايب التي نسبها إليهم الشعوبيون ، بل أعاد
 ماقاله الشعوبيون في هذا الباب ، وله في هذا الموضوع عدة قصائد أثارت
 عليه شباب الأمة العربية العاملين في أكثر بلاد الدولة .

(العلامة الشيببي)

وكم للرصافي من قصائد يزخر بها ديوانه ، تناول فيها بلاد الغرية جميعا
وكأنه سليل هذه البلاد جميعا ، فلم يقف شاعريته على العراق ، ففي قصيدة
(إلى هرير صموئيل) تراه يشيد بموقف هذا المندوب السامي في فلسطين ، وما
وعده به العرب من مواعد سياسية طرب لها العرب ، وطرب لها الرصافي ،
وسجل هذه الوعود ، وحث على تحقيقها ، قال :

وعدت فأمسى القوم بين مشكك ومتنظر الإنجاز منشرح الصدر
فكذب ، وأنت الحر من ساء ظنه فقد قيل : إن الوعد دين على الحر
ولسنا كما قال الألي يتهموننا نعادى (بنى إسرائيل) في السر والجهر
وكيف وهم أعمامنا وإليهم يمت ياسماعيل قدما بنو فهر ؟
وإني أرى العرب للعرب تنتمى قريبا من العبرى ينمى إلى العبر
هما من ذوى القربى ، وفي لغتهما دليل على صدق القرابة في النجر
وتليها قصيدة رائعة عنوانها (مظاهر التعصب في عصر المدينة) قالها بعد
ما ألقى الجنرال (غورو) على المسلمين خطابه المشهور في بيروت ، بعد الهدنة
وقد غر (غورو) بأجداده الذين أثاروا الحروب الصليبية ، فنكأ جرحا
كان قد التم . وأعاد إلى نفوس المسلمين ذكريات بطولة أسلافهم :

وقلت عن الإفرنج قومك : إنهم لأبطال هاتيك المعارك أنسال
فحزنا كان في الشرق ساكنا وجددت عهدا منه في الشرق أوجال
أسأت إلينا بالذى قد ذكرته من الأمر فاستاءت عصور وأجيال
ذكرت لنا الحرب الصليبية التي بها اليوم قد تمت لقومك آمال
وتلك لعمري قرحة قد نكأها بما قلته فاهتاج بالشرق بلبال

ولا يدع الرصافي هذا الموقف يفلت من يديه ، قبل أن يناجى قبر البطل
(صلاح الدين) الذى رد الصليبيين على أعقابهم مدبرين . ويود لو انشق
هذا القبر ليعث منه حامى الذمار ، ليرد على (غورو) قوله :

خليلي قوماني نطأ طيء رءوسنا
لدى الحدث الفرد الذي فيه قد ثوى
فنبكى على الأوطان حول رجائه
ونستترف الدمع الغزير لتربه
حنانيك يا قبر ابن أيوب فانصدع
إليك صلاح الدين نشكو مصيبة
لدى حدث تغول من ضم أجبال
من الملك الفرد (ابن أيوب) رثبال
كما قد بكت من فقدتها الأم أطفال
كما استنزفت دمع المحبين أطلال
لينهض ثاوي مطاويك مفضل
أصيب بها قلب العلاف هو مقتال

واقرا له قصيدة (يا محب الشرق^(١)) التي أنشدها في حفلة أقامها الحزب
الوطني في بغداد لتكريم المستر كراين المأثرى الأمريكى المعروف بمناسبة مجيئه
إلى بغداد سنة ١٩٢٩ لترى ترحيب الرصافي بهذا الأمريكى حينما رأى فيه
ادعاء محبة الشرق ، وأنه لا يقل شأنا عن (ولسون) صاحب المبادئ المشهورة
ويرجو أن يكون (كراين) داعية خير للعروبة والشرق .

ومما يدل على يقظة الرصافي وانتباهه إلى أحداث البلاد العربية ، وجزعه
لما ينزل بها من خطوب قصائده الكثيرة التي ترى فيها هذا التبع
السكرام للوطن العربي .

فمن ذلك قصيدته (دمشق تندب أهلها) ينشدها أهل بغداد لحثهم على التبرع
السخي ، والبذل السكرام في سبيل إخوانهم أهل الشام ، استمع إليه في
وصف مؤلم :

بكت في ظلام الليل تندب أهلها
وباتت وقد جل المصاب حزينة
تئن وقد مد الظلام رواقه
إذا هي مدت في الدجنة صوتها
وتلهب منه في الفضاء شرارة
بصوت له الصخر الأصم يلين
بها في ضواحي الغوطتين أنين
وخيم صمت في الدجى وسكون
تميد له في الغوطتين غصون
فتبصرها في الرافدين عيون

وتهبوا له في ساحل النيل هبوة أبو الهول منها واجد وحزين
وهكذا يرى الرصافي خطب أهل الشام بحريتهم خطب يزد العروبة
جميعاً يتجاوب صدى في وادي الرافدين ، وفي وادي النيل ، وذلك لتدحض
هذا المعنى في كثير من قصائد الرصافي ، وأعني بذلك أسي أرجاء العروبة
جميعاً إن أملت بإحداها عليه . كما رأيت ذلك في قصيدته (واشيخاء) التي رثى
بها أستاذه (محمود شكرى الألوسى) وغيرها من القصائد
وتقرأ بحجة المليك الشاب (فاروق الأول) فلا يساورك شك في أنه واحد
من أبناء السكينة يحس ما يحسون

وفي قصيدة « في حفلة شوقي » تراه بعد أن يثني على شاعرية شوقي بما هي
أهل له ، يعرض لما كان في مصر من ثورة على بعض أصحاب الأقلام ،
الذين أحدثت كتاباتهم ضجة ودويًا ، فيعجب لتكريم شوقي ، وقذف غيره
من المفكرين بالزندقة والإلحاد :

إذا احتفلت مصر بشوقي فماذا تقيم على الأحرار في العلم حاجرا ؟
فقد أسمعنا ضجة أمطرت بها علينا (١) وطه (٢) حاصبا متطائرا
فما بال هذا عد في مصر مارقا ؟ وما بال هذا عد في مصر كافرا
إذا لم تكن الأفكار في مصر حرة فليس لمصر أن تكرم شاعرا
وهكذا تجد الرصافي لا يقف شاعريته المهمة عند هذا الوادي ، بل يطلق
عنانها لتطوف في هذه الآفاق البعيدة التي هأم بها الرصافي هيأما لم يقع لكثير
من شعراء العربية في العصر الحديث .

هذه أمثلة سقاهما لبيان أن الشاعر آخر في شعراء النسيان قد وهب نفسه
لهذه العروبة التي ونح بها ولوعه ظاهرا وعنف في سبيلها من يروجونهم المتصرة

(١) هو الأستاذ علي عبد الرازق بك

(٢) هو الدكتور طه حسين بك

على تحقيق آماله في رفعة العروبة والسمو بها إلى الغاية التي يرجوها لها^(١)، ولهذا
الشعر السياسي أمثال كثيرة، فهو لا يختص به قوما دون قوم، ولا بلداً دون بلد
فهو يشيد بما يراه في أرجاء البلاد العربية المتراصة الأطراف من ممدوح وما أثر
يرى فيها سبباً من أسباب النهوض بالوطن العربي والقومية العربية وينتقد ما يرى
فيها مما يحط من شأن العروبة، أو يقف عثرة في سبيل حريتها المساوية؛ أو
أملها المرتقب من التمتع بالكرامة بين أمم الأرض قاطبة. استمع إليه
مرة أخرى يستنهض الأمة العربية ويدعوها إلى غايته التي جهد في الدعوة إليها
وهي الوحدة التي تجمع الشمل وترد العدو على أعقابها :

لحنى على العرب أمست من جهودهم حتى الجمادات تشكو وهي في ضجر
أين الجحاح من يتمون إلى ذؤابة الشرف الوضاح من (مضر)
قوم هم الشمس كانوا والورى قمر ولا كرامة لولا الشمس للقمر
راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عقبا ناموا عن الأمر تفويضا عن القدر
أقول والبرق يسرى في مراقدهم ياساهر البرق أيقظ راقد السر

(١) ولذا في هذه الناحية صفات متباينة فهو أي الضمير ككثير شاعر مرهف
الحس رقيق الشعور يميز أقوى تمييز بين محاسن الاخلاق ومساوئها ومن شأنه
أن يدعى في شعره إلى الترغيب في السجيا الخيرة الجميلة والترهيب في الصفات
البشعة الذميمة كل ذلك من شأن الشاعر الجيد وفي شعر الرصافي شواهد
عديدة من هذا القبيل غير أنه قد سلف في كثير من الأحيان إلى مستوى شعراء
المناسبات فمدح وهجاء بل أغرق في المدح وأقذع في الهجاء وهذا في رأينا
مما لا يأتلف مع تلك الاخلاق الرفيعة وكان الرصافي على الأغلب مدفوعا في
كثير من قصائده ومقطعاته التي نظمها في الهجاء بدافع الحقد والضعف من
يعتقد أنهم لم يقدرُوا أدبه ونبرغه حق قدرهما ولم يكافئوه على ذلك :

(العلامة الشيبني)

بأيها العرب هبوا من رقاكم فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر
ثم يأخذه الأسى لو عورة المسلك والعرب منقسمون :
كيف النجاح وأنتم لا اتفاق لكم يا أكثر الناس عدأ غير منحصر
ويتجاوز الرصافي هذه الدائرة الواسعة التي شملت البلاد العربية إلى دائرة
أوسع ، وكأن هذا الرجل يعنيه ما يعنى كل مظلوم فأصبح يبكى لكل ملة
وإن نزلت بغيره فتراه ينظر إلى ماحاق بالهند نظرة الوله المتحير في العدد
الكثير الذى أصبح مستعبداً لفئة قليلة من المستعمرين وفي قصيدته (الفيل
والحمل) التي خاطب بها الزعيم الهندي (مولاي محمد علي) عند مروره ببغداد
سنة ١٩٢٩ ترى الرصافي يستبدل بتحية هذا الزعيم الضيف عتاباً فيه التهم المر
والآلام المعض على ما انتهى إليه أمر الهند التي تزخر بالناس والخيرات ، وتقاسى
من مصائب الاستعمار ما تقاسى وفي هذا دلالة على أن الشاعر عدو للاستعمار
ولاستعباد الشعوب حيثما وجد :

إليك زعيم الهند أورد هاهنا	سؤالاً له أرجو الجواب تفضلاً
فنحن هنا في مجلس ذى أمانة	فلم يخش فيه الحر أن يتقولا
إذا ما سمعت الهند في قول قائل	تخيلت فيلا بالحديد مكبلاً
تزجيه كف الأجني مسخراً	فيمشى بأعباء الأجانب مثقلاً
ويبرك أحياناً على الأرض رازحاً	له أنه من ثقل ما قد تحملاً
وينحس أحياناً فنعلوه رجفة	فيمضى على رغم القيود مهرولاً
وإني أظن الفيل صاحب قوة	تكون له لو شاء من ذلك موثلاً

ثم يستحث الهنود على الثورة واستجماع القوى وجمع الكلمة وليس
يعجزهم بعد ذلك الوصول إلى حقهم في الحياة :

فلوقام هذا الفيل واستجمع القوى طزها شم الجبال وقلقلاً
وكم جرت هذه الجرأة والصراحة من الجراثر على الشاعر بقدر ما بثها في

كل بيت من أياته وفي كل نفثة من نفثاته، فقد أغضب إخوانه واتهم أصدقاءه،
وتعداهم بسخطه إلى من ييدهم الأمر، فكان ذلك للشاعر نكالا وعليه وبالا
ولم يصن شعره عن هجو الأمراء، ودم الوزراء، ولو كانوا في غير بلده مما
أحفظ عليه قلوب أكثرهم وجعلهم يناون عنه .



في الحفلة التكرمية التي أقامها المغفور له حمد الباسل باشا ترحيباً بالرصاص وصحبه حين
زار مصر في ربيع سنة ١٩٣٦ ، وقد جمعت هذه الصورة بعض زعماء مصر وقادتها وأدبائها
وقد توسط الجالسين المغفور له أحمد ماهر باشا وإلى يمينه معالي مكرم عبيد باشا فالأستاذ
محمد بهجت الأنصاري وإلى يساره معروف الرصافي (بالزى العربي) وقد وقف الباسل باشا
يحوي ضيوفه .

فى سبيل المجتمع

مَنْ لَيْسَ يُبْكِيهِ مِنْ أَبْنَاءِ جَلْدَتِهِ بُكَاءُهُمْ فَهُوَ مِنْ جَنْسِ الْمَسِيحِ
(الرصافى)

نقل ابن خلدون فى مقدمته عن الحكماء قولهم « الإنسان مدنى بالطبع »
ويأخذ فى شرح هذه العبارة ، وبيان المقصود منها ، وخلاصة ما ذهب إليه أنه
مدنى بالنسبة إلى المدينة ، التى هى أصل المجتمع الإنسانى ، ومن فى هذه المدينة
أو من فى هذا المجتمع ، لا يسعه بحال من الأحوال ، أن يستغنى عن غيره ، أو
يحيا فى منأى عن حياة الجماعة ،

وهذا المعنى الذى قرره الحكماء فيما سلف من الأزمنة حبراً على ورق
من حيث السعى لتحقيق هذا الهدف الأسمى ، والغاية المثلى ، التى رعى إليها
العلماء أصبحت الحوادث فى عصرنا تؤثقه ، وأخذت الأيام تحققه ، فلم تبق
المنفعة هى الرابطة التى تربط الأخ بأخيه فى الإنسانية ، وتصدر عنها صلات
الأخوة وصفات الإنسانية ، بل تجاوز ذلك المعنى هذه الغايات النفعية التى
كانت تسيطر على الإنسان فى عصور الممجية والظلام ، ولقد أصبح من سمات
هذا العصر ألا يسمى إنساناً من كان يعيش لنفسه فقط ، وإنما الإنسان فرد
فى هذه الجماعة يحس ماتحس ويشعر بما تجد ، وهذه هى الإنسانية التى أصبحت
الوشيجة المثلى ، والعروة الوثقى ، بين بنى الإنسان .

ولا نكاد نجد شاعراً من شعراء العربية فى سائر عصورها أهمهم المجتمع الذى

ينحيا بين ظرائفه ما أهمه الرصافي الذي هتف بأسباب علائه ، وشاد بعوامل
ارتقائه ، وبكى ما يجد من تعاسته وشقائه .

١

نشأ الرصافي في البيئة التي وصفنا ، وهي بيئة سادها التأخر والانحلال
بنتيجة الإهمال الذي كانت تعانيه من حكامها وولايتها ، الذين لم يفكر واحد
منهم في النهوض بها من هذه الهوة التي تردت فيها لأنه قد يجد في إنهاضها عاملاً
من عوامل كسر شوكته ، والثورة على سلطانه ، إذافهم الناس حقوقهم في الحياة
وعرفوا واجباتهم تجاهها .

أما الواجبات فإنهم يعرفونها في إذعان ، ويؤدونها في سخرة ، واستعباد
في ضرائب يؤدونها راضين أو كارهين ، وفي جنديّة ينتظمون في سلكها ، وفي
حرب يخوضون غمارها ، ويصلون تارها ، وليس لهم في هذا الخوض نفع
كثير أو قليل .

إنهم يعرفون هذا الواجب جيداً ، وإن لم يعرفوه طائعين ، فسيعرفونه
قسراً وإرغاماً ، ولكنهم لم يعرفوا الواجبات المتطلبة منهم نحو إخوانهم في
الوطنية والشعور . وأعنى بهم أبناء العراق ، من مقتضيات الأخوة كالتعاطف
والتراحم ، والبر والتنافس فيه ، وإقامة صروح العدالة بين الرعية المشتركة
في الغرم والغنى .

وكذلك لم يعرفوا حقوقهم في الحياة ، حقوق التعلم ، ومحاربة الفقر ، ومكافحة
المرض ، والمتطلع حياة سعيدة ، يستوون فيها مع بني البشر الآخذين بأسباب
النهضة والحضارة في مشارق الأرض ومغاربها .

وليس من سبيل يسرى بهم إلى هذه الغاية من المعرفة التي تبصرهم بما
يتوقون إليه إلا التعلم ، الذي يهذب نفوسهم ، ويلطف من غلوائهم ويخفف
من حدة عواطفهم ، ويشعر الناس أنهم سواسية في كل شيء .

لقد هام الرصافي بالعلم وبثه هياما عجيبا ترى أثره في أكثر قصائده الاجتماعية وفي أكثر قصائده السياسية أيضاً ، قبل الدستور العثماني وبعده ، وفي عهد الانتداب . وفي ظلال الحكم الوطني في العراق .

ويقض مضجع الرصافي أن يحيا قومه في مهاوى الظلمات ، وقد أقيمت للعلم صروح في أرجاء العالم ، ووجد العلماء المبرزون في أودية العلم المختلفة ، فكانت المبتكرات والمستكشفات والمخترعات التي أدنت القاصي وسهلت الصعب ، وذلت الوعر ، وأصبحت الأمم لا تقاس بجيوشها الجرارة ، ولا بسيوفها البتارة ، بقدر ما تقاس بعلمائها المبرزين ، وأعلامها المفكرين :

أبها الناس إن هذا العصر عصر العلم والجد في العلا والجهاد
عصر حكم البخار والكهر بائية والماكينات والمنطاد
بنيت للعلوم فيه المباني وأقيمت للبحث فيها النوادي
فاض فيض العلوم بالرغم من ضربوا دونهم بالأسداد
إن للعلم دولة خضعت دون علاها عوالم الأضداد
ما استفاد الفتي وإن ملك الأراض بأعلى من علمه المستفاد

وعنده أن العالم الأصيل ، هو الفارس المجلي في حلبة الزمان ، ولن يبلغ شأوه المهجين الجهول ، وأن العلم وحده هو الذي يفيض على الخاملين ويسبغ على الضعفاء ثياب القوة والحياة :

لا تسابق في حلبة العزدا العلم ثم فما للهجين شأو الجواد
إن أموات أمة العلم أحياء ، حياة الأرواح والأجساد
وكأين في الناس من ذى نخول صار بالعلم كعبة القصاد

والعلم هو الذي هتك الحجب ، ورفع الستور عن العيون التي غشى عليها الجهل ، ولا سبيل إلى استبانة الطريق سوى ، سوى هذا النور الذي بدد الظلمات :

والعلم قد أنكر منها جنا ولم بين أين هو المبيع ؟
 خرقت يا علم رداء لنا كنا ارتديناه ، فهل ترقع ؟
 ثم يعرض للشك الذي أغلق على النفوس أمرها ، وسلها هداها :
 لقد طغت حيرة أهل النهى هل فيك يا علم لها مردع ؟
 كم نشرب الظن فلا نرتوى ونأكل الحدس ، فلا نشبع !

وفي هذه التشبيه الجميل الذي تراه من إلحاق المعنويات بالماديات من الحسن
 الأدبي الفائق ، والجمال البياني الرائق ما لا يخفى ! كما أن في هذه الفكرة المنعمة
 والبصيرة الممثلة ، ما لا يجحد قدره عند أهل الفكر والنظر !
 وإذا ما خيم الجهل على قوم ، فلا تغررك مظاهرهم ، ولا تبهرك ثيابهم ،
 فإنما هي براءة خداعة ، ولا تسحر نك قصورهم بما حوت من زخرف وزينة
 فليست ثيابهم مع جهالتهم إلا كالسكنن يلف فيه الموقى لاغناء في رونقه وبهائه
 لميت لا حراك به ، وليست هذه القصور بما حوت بأحسن من القبور ، وحياة
 هؤلاء الخاوين الوفاض من المعرفة ليست إلا حياة العوز والإملاق . ولقد
 جعل الرصافي تهاون الناس في كسب العلم ، وإقامة المدارس عقوقا للوطن أي
 عقوق :

إذا ما عق موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا
 فإن ثيابهم أكفان موقى وليس بيوتهم إلا قبورا
 وحق لثلبهم في العيش ضنك وأن يدعوا بدنياهم قبورا

والرصافي يكرر هذا المعنى في أكثر من موضع ، فله من قصيدة دعاها
 إلى الشبان ، يحثهم فيها إلى عدم الخواذة في طنب العلم الذي به حياتهم كالعود
 لا حياة له بغير التربة والسقيا :

أت يا جاهل من قبل الممات ميت يمح ما بين البيوت
 أو ما تعلم في هذى الحياة أن رب العلم حي لا يموت ؟

وهذا العلم لا ينال بالقول ، ولا يدرك بالأمل ، بل إن بثه في ربوع البلاد في حاجة ماسة إلى تعاون الأفراد والجماعات ، ومعاضدة الحكومات لإنشاء مدارس في المدن والقرى ، وهذا ما دعا الرصافي إلى أن يصلت سيف شعره على أعناق المتقاعسين عن أداء هذا الواجب الوطني ، وإلى أن يشيد بكل من وضع لبنة في أساس صرح العلم بإنشاء المدارس . ولهذا كثرت قصائده في افتتاح المدارس ، تحية للقائمين بها ، وتشجيعا لطلابها ، الذين يردون حياض العلم ، وينهلون من موارده فيها ، ويحثهم على التزود والاستزادة من فيض العلم ، وعدم الوقوف عند حد يصلون إليه ، فليس لهذا العلم من غاية ينتهي إليها .

ومعهد علم أسسته عصاة	من القوم تسعى للنجاح وتجهد
شباب مشوا للمكرمات بعزمة	تقاعس عنها السكوكب المتوقد
سأستودع الأيام كل قصيدة	يطيب لهم فيها الثناء المخلد
أقول لهم قولا به أستزيدهم	وأشكرهم شكرا جزيلا وأحمد
أما ، وخلال فيكم عريية	وذا قسم لو تعلمون مؤكدة
يسر العلا أن ينهض القوم للعلا	وأن يجمع الشبان للعلم معهد

٢

ويلي هذه الغاية عند الرصافي ، غاية سامية ، دعاها ، وهي نبذ التعصب الذميم ، وطرح الخلافات التي قسمت الدولة فرقا وأحزابا كل حزب بما لديهم فرحون ، وهو لا يرضى للوطن هذا الانقسام بين أبنائه المسلمين ولا الفرقة بينهم وبين غيرهم من معتنقي الديانات الأخرى ، فما دعا إلى هذه النعرة القتالة غير الساسة الدخلاء الذين لا يطيب لهم الصيد إلا في الماء العكر (وقد وضعنا ذلك في بحث شعره السياسي) وغير الجبهة الذين لا يفهمون - في نظره - إلا القشور وكثيرا ماجروا على بلادهم الويل والحرب من وراء استغلالهم لسداجة الجماهير ، فيزجون بهم في هذا المضيق الوعر الذي تأباه

الأديان . (اقرأ قصيدته « في سبيل الوطن : إلى إخواننا المسيحيين ») (١)
 وعدا هذه النزعات ، يوجد تعصب من لون آخر أنحى عليه الرصافي باللوم
 اللاذع ، وهو العصبية القومية بين أبناء الوطن الواحد ، كما حدث في فتنة
 الأرمن ، وما أدت إليه من المذابح البشرية ، وإن الرصافي ليأسى على ماجرته
 هذه الفتن أشد الأسى ، وأكثره إيلاماً لنفسه الحساسة ، وشعوره المرهف .

وفي قصيدته (أم اليتيم) يشير إلى مقتله وسخطه سخطاً لا حده :
 مشى أرمنيا في المعاهد فارمت به في مهاوى الموت ضربة مسلم
 على حين ثارت للتوائب ثورة أتت عن حزازات إلى الدين تنتمي
 فقامت بها بين الديار مذابح تخوض منها الأرمنيون بالدم
 إلى أن يعلن أنهم اجتروحوا هذه الجرائر باسم الدين ، والدين منها براء ،
 وإنما دعاهم إلى ذلك الجهل ، وسوء الفهم ، فباتوا في غيهم يعمهون ، وفي
 ضلالتهم سادرين ، وما لهم معالم يلتمسون بها سبيل الهدى .

فليس بدين كل ما يفعلونه ولسكنه جهل وسوء تفهم !
 لئن ملئوا الأرض القضاء جرائمنا فهم أجرموا ، والدين ليس بمجرم !
 ولسكنهم في جنح ليل من العمى تمشوا بمطموس العلامم مبهم
 وقد سلكوا تيهاء من أمر دينهم فكم منجد في المخزيات ومتهم

٣

ولقد عنى الرصافي فيما عناه الأخلاق وانحلالها ، فيقض ذلك مضجعه ،
 ويأخذه الإشفاق على مصير أمته من هذا اللين في الخلق ، والضعف في الطباع
 والعادات ، فيخشى انهيارها وراء هذه المفاسد التي تودى بها .

(١) استشهدنا ببعض أبياتنا في شعره السياسي ، وهي قصيدة ملوية تمجدها
 كاملة في ديوانه صفة ١٥١ .

وكما نجد الرصافي صريحا كل الصراحة ، في نقد الساسة ، ولوم أولى
الأمم نجده كذلك صريحا كل الصراحة في نقد نواحي الانحلال الخلقي . وفي
مطلع قصيدته (التريية والأمهات) تراه يشيد بقيم الفضائل ، وضرورة تربيتها
في أحضان كريمة ، كالنبت لا يكون ناضراً ريعان إلا في تربة خصبة :

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المسكرات
تقوم إذا تعهد بها المربي على ساق الفضيلة مشمرات
وتسمو للكارم باتساق كما اتسقت أنابيب القنساء
وتنحش من صميم المجد روحاً بأزهار لها متضوعات

وتراه إلى جانب العناية التي سلفت بالعلم ، والإشارة إلى احتلاله المقام
الأول في نهضة الشعوب يذكر أن هذا العلم وحده لا غناء فيه ، مالم يكن إلى
جانبه خلق يعاضده ، ويشد أزره ويساعده :

وما العلم إلا النور يجلو دجى العمى ولسكن تزوغ العين عند انكساره
فما فاسد الأخلاق بالعلم مفلحاً وإن كان بحرأ زاحراً من بحاره
وشر الخلق عنده الكذب ، وكما يتخذ الكذب مظهره في الأقوال ،
ومظهره في الأعمال ، تراه يجري على أقلام الكتّاب ، الذين لا يتحرون
الحقيقة فيما يسطرون ، فيخلد كذبهم في السطور على مر الأيام وكر العصور ،
وتبقى ضلالتهم تضلل الباحثين والمؤرخين :

وما كان كذب القوم في القول وحده ولسكنه في كتبهم والمهارق
وأقبح من في الزمان خرافة تخط بها طرساً يراعى نامق
ضلال على مر الجديدين لم تزل مغاربنا من أمره كالشارق

ويلحق بالكذب النفاق الذي يطمس معالم الحقيقة ، ويجعل دونها حجاباً
كثيفاً ، وهذا داء قد فشا في القوم فآدم حمله ، وأثقلهم عبثه ، فلا تكاد تبين
قولا صريحا ، ولا تجد رأيا صحيحا يعتد به ويعتمد عليه ، فنفاق من يرى

الحق ظاهراً فيحاول أن يستتره ومن يرى القبح بادياً فيحاول أن يغطيه بستر
 من الكذب ، والنفاق عند الرصافي أقبح الكفر بل هو الضلال الصراح :
 هل الكفر إلا أن ترى الحق ظاهراً فتضرب للأنظار من دونه ستر؟
 وأن تبصر الأشياء بيضاء نواصعاً فتظهرها للناس قانية حمراً؟
 إذا كان في عرى الجسوم قباحة فأحسن شيء في الحقيقة أن تعرى
 فيلبسها من مارست عينه عمى ويصمرها من كابدت أذنه وقرا
 وقد حمل الرصافي على المرائين الذين يظهرون للناس على غير حقيقتهم
 ويلبسون مسوح الزهاد ، وقادة الإصلاح الاجتماعي ، وهم دعاة الفساد
 فإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزون !
 وشر المتصفين بهذه الصفة الذين يقفون من الناس موقف الناصح الأمين ،
 والمجرب الشفيق ، ولكنهم لا يعملون بما يقولون ويأمرون الناس بالبر وينسون
 أنفسهم ، وقد عموا على الناس بمظاهر الزهد والتقشف . استمع إليه يهجو
 بعض المرائين :

سود الله منك يا شيخ وجهها غش حتى باللحية السوداء
 لو نتفنا من شعرها وغزلنا لنسجنا خمسين ثوباً رياء !

٢

وقد هال الرصافي ما عليه العراق من التأخر والفقر نتيجة إهمال شؤنه
 وعدم رعايه مصالحه من قبل الولاة الذين وصفناهم ، والذين تخذوه بقرة
 حلوبا ، عليها أن تدر ، ولهم العلال والنهل ، وليس يضيرهم بعد ذلك أن تجذب
 الأرض ، وأن يحف الضرع ، فكان من أكبر دعاة الإصلاح ، في شتى
 نواحي الإصلاح .

يغار على هذه المياه التي يفيض بها الرافدان ، ولكنها تذهب بدداً مخلقة
 ورامها القور والقيعان والجذب والأقفار ، فأصاب رياض العراق الذبول

وهجرتها البلبال الغردة ، التي كانت تصدح فوق أفنانها وتطير بين أدواحها ،
وترفرف فوق أوديتها المعشبة المخضرة في الشمال وفي الجنوب .

ويغضب لثورة الفراتين ثورة ما تذر من شيء أتت عليه إلا غمره طوفانها
فأودى بمحلات العراق ، وأتى على قراها ، وأهلك الحرث والنسل .

وهكذا يكون الفيضان الذي هو سبب الخصب والرغد مدعاة للسكوارث
والبلاء ، وليس ذلك لشيء إلا لتقاعس الهمم وإهمال الولاية ، فجر الفقر على
البلاد بدل النماء والثراء . وتلك حال تشغل الذين وهبوا أنفسهم لبلادهم ، فما بالك
بالرصافي وهو من عرفت حدة عاطفة ورقة إحساس ، وصدق وطنية ؟

صوب سمعك تجاه هذه الآفات ، واستمع إلى هذه المناجاة ، يناجي بها الشاعر
مياه دجلة حين ورده ورود المتأمل المتعبد :

رب يوم وردت دجلة فيه موردا خاليا عن الورد
حيث ينصب في سكون عميق مأوها لاثما ضفاف الوادي
وهبوب النسيم يكتب في الماء سطورا مهتزة في اطراد
ينمحي بعضها ويظهر بعض فهي تنساب بين خاف وباد
ويقول يصور النهر ، يبتئ ما به من اللوعة والأسى :

وتئن المياه لي بخير كأنين السقيم للعواد
قت في وجهها أردد طرفي ساكتا والضمير مني ينادي
واقفا تحت سرحة ناح فيها طائر فوق غصنها المياد
منشدا في النواح شعرا غريزيا حزيننا كأنه إنشادي
جاوبته أفنانها بأنين من حفيف الأوراق والأعواد
يامياها جرت بدجلة تجمتا ز مرورا بجاني بغداد
إن نفسي إلى الحقيقة عطشى أقتشفين غلة من صاد ؟

ويعود بذهنه إلى أيام الإبراق والإيناع ، أيام كان دجلة الخالد يجري

بالحياة حين كانت سامراء متنزها من متنزهات بغداد ، وقد أودى بهذه المظاهر
الجهل ، فغدت حوله البوادي قاحلة ، وهى أرض تنبت الذهب ، ولكن جر
إهمالها الفقر والسغب ، فمتى يفوق أبناء الرافدين ، فيغنون بعد الخصاصة
ويحصدون بعد الإجداب ؟

أيها الماء أين تجرى ضياعا وحوالك قاحلات البوادي ؟
فتى تفظن النفوس فيحيا بك سقيا موات هذى البلاد ؟
لو زرعنا بك البقاع حبوبا لحصدنا النضار يوم الحصاد
أفيدري خليج فارس ماذا فله منك بالبع بازدراد ؟
أنت والله عسجد ولجين لو أتينا الأمور باستعداد
فاجر ياماء إن جرئت رويدا بأناة ومهلة واتناد
علنا نستفيق من رقدة الفتنة ر فتغنى بفيضك المزداد

٥

ويعيب الرصافي على أبناء العروبة أن يتغوا بمفاخر الماضي ، تاركين
الأخذ بأسباب المجد اعتماداً على هذا المجد الموروث ، فى عصر فخر فيه الناس
بما حصلوا لأنفسهم بأنفسهم وشقوا لأنهم طريق المجد فسلكته وقطعت فيه
أشواطاً ، ولكننا لا نزال نغنى بأجداد أسلافنا ، ولا نتخذ منهم القدوة ، فتم
ما بنوه من رفيع البنيان :

ولكن أيها العربى إني أراك لغير ما يجدى مریدا
وما يجدى افتخارك بالأوالى إذا لم تفتخر فخرا جديدا ؟
وعنده أن الذى يحاول أن يسود هو ذلك الذى يجد فى حاضره ويعمل
لغده ومستقبله ، لا الفاخرين بالعظام والأشلاء :
أرى مستقبل الأيام أولى بمطمح من يحاول أن يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع يردد فى غد نظرا سديدا

فوجه وجه عزمك نحوأت ولا تلفت إلى الماضين جيداً
 وهل إن كان حاضراً شقياً نسود بكون ماضينا سعيداً؟
 فالشرف الحقيقي هو الشرف الموروث ، يؤيده شرف مكسوب ، فإذا
 ساق العربي الفخر بالقول ، أيده بالعمل ، فلا يكذب حاضره ماضيه :
 فشر العالمين ذوو خمول إذا فخرتهم ذكروا الجدودا
 وخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسبا جديداً

٦

كان من نتيجة الفقر الذي يعاينه سواد الأمة والذي أشار إليه الرصافي
 فيما سبق ، وكذلك مالاقي هو من صنوف الحرمان أحيانا ، أن رأينا يحمل
 على طبقة الأغنياء ، وجماعة المترفين الذين ينعمون بخيرات البلاد ومحصولاتها
 وهم طبقة محدودة منعمة مترفة ، وأكثر أبناء البلاد يعانون آلام الفاقة وعذاب
 الخصاصة ، وكان من نتيجة ذلك كله أن رأينا الرصافي أحيانا ينتصر لمبدأ
 الاشتراكية ، وهو من المبادئ التي أحدثت ثورة في العالم ، وجرت إلى الحرب
 الأهلية وإلى التدابر والتحاسد بين طبقات الأمة.

وعنده أن الغنى إنما كسب الغنى وحصل الثروة من تعب الفقير الكادح
 الذي يشقى ليسعد غيره ، ويجنى غيره ثمرة نصبه وجهاده ، ولقد انتشر هذا
 المبدأ في بعض بلاد أوربا ، وتسرب إلى بعض البلاد العربية ، فلقى هوى في
 نفوس الفقراء والمستضعفين ، إذ أصبحت هذه المبادئ تمنهم بالجاه والمنصب
 والطفرة من حضيض الفقر والهوان إلى ذروة السعادة وقد ساعد على رواج
 هذه المبادئ أن الأغنياء لم يسدوا في الغالب للفقراء شيئا مما كسبوا ، ولم يعملوا
 على انتشال هؤلاء الفقراء من موبقات الفقر والجهل والمرض استمع إلى
 الرصافي يقول :

أرى كل ذي فقة رلدى كل ذي غنى أجيراً له مستخدماً في عقاره

ولم يعطه إلا اليسير ، وإنما على كده قامت صروح يساره
 ويلبس من تذليله العز صافيا وينظره شزرا بعين احتقاره
 وليس الرصافي من يرضى للفقير أن يكون ضعيفا مستجديا ، ولا من يرضى
 له التجرد من الكرامة وعزة النفس ، يلتبس من الغنى العطاء إن شاء منحه ،
 وإن أراد منعه ، ولكنه يرى الجد والدأب صفة من يريد الحياة عزيزا ،
 ولا مقام للفقير العاجز في حياة لا يسود فيها إلا الغنى القوى .

نعم ! هو يريد الغنى للأمة في مجموعها ، والأفراد جميعا ، لأنه يرى هذا
 الغنى والجد من أهم أسباب التخاص من سيادة الأجنبي ، وتحكمه في تجارة
 البلاد واقتصادياتها ، فالاستقلال الاقتصادي يتقدم استقلال الدولة السياسي ،
 إذ به يغنى الوطني عن الأجنبي في البيع والشراء ، ويحتفظ بأمواله ينتفع بها
 بنو جلدته ، وينجون من الأسر الاقتصادي .

تغنى البلاد بسعيها عن غيرها وتعيد عهد ثرائها المفقود
 وتقوم بالعمل المفيد لأهلها من نسج أردية لها وبرود
 حتى تسكون عن الأجانب في غنى وتعيش غير أسيرة التقليد
 أو ما ترى أهل البلاد تقيدوا للغرب من حاجاتهم بقيود
 الغرب يكسوهم ملابسهم بها يعرفون من مال لهم ونقود
 وتراه يسلخهم بمصنوعاته سلخ الشياه فهم بغير جلود
 ويشير إلى المواخر تغدو بالبضائع الأجنبية ، وتروح وقد حملت دماء
 القوم التي امتصتها أثمانا لهذه البضائع والسلع :

هذه سفائنهم تروح وتغدى ببضائع لم تحص بالتعديد
 فكأنما هي لامتناص دمانا بعض المحاجم أو كبعض الدود
 وتراه ينحى باللوم والتقريع على بني وطنه الذين أغرموا بكل ما هو أجنبي
 واحتقروا كل ما هو وطني ، ولو كان هذا الوطني يفوق الأجنبي جودة وينقص

عنه سعرا ، وذلك من آثار العبودية ، وكأنهم لا يرجون مزايلتها ، ولا التخلص
من قيودها :

حتى متى نشقى ليسعد غيرنا ونذلل القربى لعز بعيد ؟
ونجانب الوطنى من أشيائنا ولوانه من أحسن الموجود ؟
إن البلاد لتشتكى من أهلها وتقول قول الرازح المجهود
ياسادة الأوطان لستم سادة ماعشتم من فقركم كعبيد !

وهذا مظهر سام من مظاهر شعوره بالحاجة إلى تمجيد الصناعات الوطنية
والإشادة بها ، والثناء على أصحاب دور العمل من الوطنيين ، وحث أبناء
الامة على تأييدهم ومعايذتهم ، ومن تغاليه في هذه الناحية مادعا به العراقيين
إلى تدخين (سيجارة) من نوع خاص ، إذ صاغ لكل طبقة من طبقات
الامة بيتين من الشعر في مزايا هذه (السيجارة) !

٧

كان من مظاهر النهضة الحاضرة في الديار الشرقية إحساس الفرد أنه
لا يعيش لنفسه وإنما هو عضو في هذا المجتمع عليه أن يشعر بما يشعر به غيره
وكان لهذا المعنى أثره في نفوس الشعراء في هذه النهضة ، ولسكن شاعرين
من هؤلاء الشعراء أجادا كل الإجادة في تصوير آلام الفقراء ، إذ أحسا
هذه الآلام ، وقاسيا مرارتها .

أحدهما في حاضرة العروبة الشرقية وهو شاعرنا الخالد معروف الرصافي
وثانيهما في حاضرتها الغربية شاعر النيل حافظ إبراهيم ، فلكلا الشاعرين
جولات موفقة في هذا الميدان !

والرصافي خير من صور آلام الفقراء ، وما يجدون من شظف العيش
وقسوة الحياة ، وديوانه يزخر بقصائد كثيرة رائعة في وصف هذه الآلام ،
بل إن شاعريته بدأت ظواهرها ، وانبعثت أسرارها ، وفاضت بحارها في

هذا اللون من الشعر، الذي ينبعث منه الآنين، وتتصعد الرفرات، حتى إنك لتحس أنه يحس بما يجد هؤلاء جميعا من عنت وإرهاق وإن ينايع شعر الرصافي قد تفجرت أول ما تفجرت في وصف ما يكابد هؤلاء المحرومون.

ولعل من الخير أن نسجل هنا ما يروي الرصافي عن نفسه حين يقول «كانت مشاهد البؤس من أشد الدواعي عندي إلى نظم الشعر وكان لنا جار فقير مبتلى بداء المفاصل، وكانت له أخت تمرضه، وكنا في فصل الصيف الذي يكون فيه الناس في لياليه في بلادنا على سطوح الدور وكان هذا المريض إذا جن عليه الليل وإلى أنينه، وكان أنينه يزعجني طول الليل، فهذه الحادثة أوحى إلي قصيدة (الفقر والسقام)»^(١)

واطلعت في ليلة عيد الأضحى على حالة أرملة بئسة لها يتامى صغار، ولا حاجة إلى ذكر قصتها هنا، فحالة هذه الأرملة هي التي أوحى إلي قصيدة (اليتيم في العيد)»^(٢)

وكان لي صاحب وكان أبوه صاحب الشرطة إذ ذاك في بغداد فأخذني يوما إلى السجن الكائن في بغداد فشهدت فيه مشهد البؤس والشقاء حتى أوحى إلي قصيدة (السجن في بغداد)»^(٣)

وهكذا بقيت أنسج على هذا المنوال، حتى أعلن الدستور العثماني، فذهبت إلى الاستانة، وهي مركز سياسة الدولة إذ ذاك، فاجترفتني أمواجها المتلاطمة، وحالت في الأكثر بيني وبين تلك المواضيع السابقة، ويا قاتل الله السياسة إنها ما دخلت في أمر إلا أفسدته»^(٤)

(١) ديوان الرصافي صفحة (١١٣)

(٢) « » » (٧٤) (٣) ديوان الرصافي صفحة (٥٦)

(٤) مجلة الحرية: المجلد الأول الجزء الأول السنة الثانية. صفحة ٦-١٧

(أول تموز سنة ١٩٢٥)

وإنك لتجد في الكلمات الأخيرة دواعي الحسرة ، إذ حيل بين الشاعر وبين هذا اللون من الشعر الذي هام به هياما سببه الرحمة التي طبع عليها قلب الرصافي . أما الحادثة التي لم يرد الرصافي أن يصرح بها في هذا المقام حياء منه أن يذكر منه من بها على إنسان ، فقد صرح بها لأحد خلصائه وهو هنا يرويها : (١)

«ذكر لي أنه كان يجلس الى أحد بائعي الدخان ، فجاءت امرأة بيدها إنياء من نحاس ، قال : فأسر إلى صاحب الدكان حديثاً لم أفهمه ، فأخذ منها الإنياء ، وأعطاه بضعة قروش بغدادية (والقرش البغدادي إذ ذاك يعادل فلسين ونصف الفلس اليوم) . قال : فسألته عن جليلة الأمر فأخبرني أن هذه المرأة ، وهي أم يتيم - لا تملك شيئاً من المال ، فجاءت بهذا الإنياء اترهنه عندي بهذا المبلغ الزهيد ، لكي تنفقه على ابنها يوم العيد غداً ، قال : فتأججت في نفسي نار الألم ، فأدخلت يدي في جيبى وأخرجت ما فيه وكان إذ ذاك لا يتجاوز بضعة عشر قرشاً ، فأعطيتها لصاحبي ليعطيها إياها ، وقتت على الفور وذهبت إلى البيت ، والألم يحز في نفسي فلم يغمض لي جفن في تلك الليلة ، حتى نظمت القصيدة التي عنوانها اليتيم في ليلة العيد » .

ورأى الرصافي أن العيد أيام لا تغاير غيرها من الأيام ، ولكن الناس اصطلحوا على المغايرة ، فهي عندهم أيام السرور ، والتحليل من المآسى والآلام ، بما يعدون لهذه الأيام من مظاهر الأنس ، وعلائم السرور من جدة الثياب ، والخروج إلى المتنزهات ، والتلاقي زرافات ووحداً ، ليقتنصوا ما استطاعوا من أسباب المرح ، ويحتنوا قطاف اللهو والأنس الدائية .

(١) المرحوم العلامة الأستاذ طه الراوى في مجلة عالم الغد البغدادية ص ٨ من العدد ٩ = ٢٦٤ من السنة الأولى .

وليس كل الناس بمستطيع هذه الأسباب ؛ فليس في مقدور كل إنسان أن يشتري ثوبا قشيبا ، أو يدفع درهما في سبيل التسرية عن نفسه ، وإزالة ماران على قلبه من الأسى والكدر ، فتعود عليه هذه الأيام آلاما إلى آلامه ، وعذابا إلى عذابه ، حين يشعر بالحُرمان ، ويحتاج إلى البذل ، ولكنه لا يجد ما يبذل وهنا تعذريه الحسرة والالام .

هذا هو رأى الرصافي في العيد أو فلسفة العيد عنده ، وهي لعمرى فلسفة لاتعدو الحقيقة الالمية ، لأن منتزعا الحياة الواقعية :

أطل هلال العيد في الشرق يسمع	ضحيجا به الأفراح تأتي وترجع
صباح به تبدى المسرة شمسها	وليس لها إلا التوهم مطالع
صباح به يختال بالوشى ذو الغنى	ويعوز ذا الإعدام طمر مرقع
صباح به يكسو الغنى وليده	ثيابا لها يبكي اليتيم المضيع
صباح به تغدو الحلائل بالخلي	وترفض من عين الأرامل أدمع

ثم ينصرف إلى معانيه الخالدة ، وفلسفته الالمية في هذه الموازنات الباكية ويخرج إلى أن مسرات العيد إنما هي أوهام ، وأن آلام العيد هي وحدها الحقائق :

ألا ليت يوم العيد لا كان ، إنه	يحدد للمحزون حزنا فيجزع
يرينا سرورا بين حزن وإنما	به الحزن جد ، والسرور تصنع
فمن يؤساء الناس في يوم عيدهم	نحوس ، بها وجه المسرة أسفع
قد ابيض وجه العيد ، لكن يؤسهم	رمى نسكتا سودا به فهو أبقع

ويدع الرصافي هذه الآلام النفسية التي يكابدها البائسون ، إلى آلام أخرى فيورد في شعر قصصى رائع قصة خروجه في هذا الصباح الذى وصفه فتبع الناس في طوهم . والصبيان في مجتمعهم ، إلى أن تقع عينه بين هذه الوجوه الباسمة المستبشرة على وجه أكدر عابس ، لا يصل المرح إلى قلب صاحبه ، ولا ينفذ السرور إلى نفسه الحزينة المكتئبة ، فينحني عليه الرصافي

الحناءة الشيخ العاطف ، يسأله عما به ، فيصرح له الصبي ببعض ما يخفى ، ويغافله
الرصافي حتى يعود إلى بيته أو كوخه ، ويرى أمه ، فيسأئله فتوقفه على حقيقة
أمرها ، وكيف شقيت بفقد من كان يسعدها ، فصارت إلى هذه التعاسة
والسكمد ، وينتهي به المطاف إلى صاحبه ، الذي كان قد فارقة ، ويجمع حوله
الصحب والخلان ، فيقهس عليهم ما رأى ، ويأهول ما رأى ويصف ذلك وصفا
ينفطر له القلب ، وتذهب عليه النفس حسرات :

فعدت وقلبي جازع متوجع	وقلت وعيني ثرة الدمع تهمع
ألا ليت يوم العيد لا كان إنه	يحدد للحزون حزنا فيجزع
وجئت إلى ميعادنا عند صاحبي	وقد ضمه والصحب ناد وجمع
فأطلعهم طلع اليتيم فأففقوا	وخبرتهم حال السجين فرجعوا
فقلت دعوا التأفيف فالعار لا صق	بكم واتركوا التراجع فالأمر أفضع

وللرصافي في هذا المجال قصائد كثيرة تتلظى نارا ، وتفيض أسى ، وينعكس
فيها صدى ما يحس الشاعر من لذعة الألم لهذه النفوس الملتاعة ، ومن بين هذه
القصائد المؤثرة المثيرة قصيدته التي دعاها (الأرملة المرضعة) وصف فيها وصفا
بارعا هذه المرأة في ظاهر أمرها ، وباطن ألمها . وصفا يبعث الشجون ويستنرف
الدموع :

لقيتها ، ليتني ما كنت ألقاها	تمشى ، وقد أثقل الإملاق ممشاها
أثوابها رثة ، والرجل حافية	والدمع تذرفه في الخد عيناها
بكت من الفقر فاحمرت مدامعها	واصفر كالورس من جوع محياها
مات الذي كان يحمىها ويسعدها	فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
الموت أجفعا ، والفقر أوجعها	والهم أنحلها ، والغم أضناها
فإنظر الحزن مشهود بمنظرها	والبؤس مرآه مقرون بمرآها
كر الجديدين قد أبلى عباؤها	فانشق أسفلها ، وانشق أعلاها

ومزق الدهر ، ويل الدهر ، مئزرها حتى بدا من شقوق الثوب جنبها
ويأخذ في هذا الوصف المر الحزين ، وصف تتبع واستقصاء ، ثم ينتقل
من وصف هذه الأرملة المرضعة البائسة إلى وصف وليدتها ، وما تجد مع أمها
من الشقاء ، بما جر عليهما الزمان من صروف ونكبات إذ اخترم حياة عائلتهما
الذى يضمن بقاءه لهما بقاء السعادة ، ويحفظ لهما ماء وجهها أن يراق ،
وحياة هما أن يبتذل ويهان .

ويصور في حسرة لاذعة ، ما كانت تنبس به شفقا الأم المسكينة من
دعوات ضارعة ، وأنفاس ذليلة خاشعة ، إلى ربها أن يدر لهن هذه الوليدة اليتيمة
اللبن الذى يغذوها ، ويكفل حياتها ، ويضمن نماءها ، وما لها عنه من عوض .
ويفعل هنا أيضا ما فعله مع اليتيم ، فقد حنا عليها حين أحس بوجودها ،
واستشعر آلامها ، فلبسها ليستبين حقيقة أمرها ، وقد أدمنت فؤاده دعواتها
التي كان لسان حالها ينطق بها ، وكان صمتها يترجم عنها ، أو كأنه يسمع همسات
الشفاه ، ونجوى القلوب ! ثم يمد يده إليها مصافحاً بما ملكت يده بما كان
يضمن به ، ويحتفظ به ثمنا لبلوغ من صباية العيش :

هذا الذى فى طريقى كنت أسمع	منها ، فأثر فى قلبى وأشجاها
حتى دنوت إليها : وهى ماشية	وأدمعى أوسعت فى الخد مجراها
وقلت : يا أخت مهلا لى رجل	أشارك الناس طرافي بلاياها
سمعت يا أخت شكوى تهمسين بها	فى قالة أوجعت قلبى بفجواها
هل تسمح الأخت لى أنى أشاظرها	مافى يدي الآن أسترضى به الله
ثم اجتذبت لها ، من جيب ملحفى	دراهما ، كنت أستبقى بقاياها
وقلت يا أخت أرجو منك تكرمى	بأخذها دون مامن تغشاها

أرأيت كيف بلغت الرحمة منزلتها من قلب الشاعر ؟ وكيف ملسكت عليه
حسسه وشعوره ؟ إن هذه الأبيات وحدها لتفصح غاية الإفصاح ، عما انطوى

عليه فؤاده الرحيم من الحذب على الفقير ، والبر بالبائس المسكين ، وحسبك قوله لها « إني رجل أشارك الناس طرا في بلاياها » .

وكان من حق الرصافي أن يوصف بالكرم ، بل بالإيثار ، بسبب هذا البذل ، لا بكثرة المبدول ، بل بقيمته ، لأنه صدر عن هو في أمس الحاجة إليه ، ثم هو يعرف تماما ما يعتور العطاء من قبح الم : ورغبة المعطي في حسن الأحدثه ، وطيب الذكر ، فيحترس هذا الاحتراس النليل « دون ما من تغشاها » . ثم هذا الشعور السامي بأن في قبول المعطي هبة المعطي تسكرمة له ، وتفضلا عليه « وقلت يا أخت أرجو منك تسكرمتي بأخذها . . ؟ »

٨

وإذ كان الرصافي من أعدى أعداء الفقر ، وأكثر الناس شعورا بعذابه ؛ وتدوقا لصاب ، وإحساساً بأثره في إذلال النفوس السكريمة ، وجعل من نفسه أسوة في تقديم ما يستطيع مما يأسو جراحات المسكومين به ، فليس من العجيب أن تراه يشحن شاعريته ، ويستعمل فنه ومواهبه ، في تحبيب البر إلى النفوس وتحبيذ الإحسان إلى ذوى القدرة على المحرومين من إخوانهم في الوطنية ، وشركائهم في الإنسانية ، فصور الإحسان في أبهى حالاته ، وأسنى حلاله ، وكسابه أهل المروءة ، وخلعه على المحسنين ، فصور المحسن جديراً بالعبادة بعد الباري جل وعلا ، وجعل غرسه أكرم غراس ، وأحلاه جنى ، في مزرعة الخليفة ، وأوضح أثره في استئصال أسباب الموجدة والبغضاء ، وإحلال المودة والصفاء بين المحسن والمحسن إليه .

وهاك قصيدة تحمل هذه المعاني السامية ، وقد أنشدتها القوم في حفلة افتتاح مدرسة الأيتام التي أسستها الجمعية الخيرية الإسلامية في بغداد وأنفق على بنائها أحد أعيان الطائفة الإسرائيلية في العراق سنة ١٩٢٨ .

لو كنت أعبد فانيا في ذى الدنا لعبدت من دون الإله المحسنا
 وجعلت قلبي مسجدا لتعبدى سرا، وفهت له بشكرى معلنا
 كيلا أكون مرأيا بعبادتي ولكي أكون بشكره متفتنا
 في مجتنى غرس الخليفة لم أجد غرسا سوى الإحسان حلوا المجتنى
 هو في الخليفة ذوعجائب، سرها أعياء اللبيب، وأعجز المتفطنا
 بيناه يغدو للنفوس مقيدا بالحب يطلق بالثناء الألسنا
 يستعبد الأحرار وهو صنيعهم ويرد بغض المبغضين تحننا
 كم بل نائرة فأطفأ نارها من بين مشتبك الصوارم والقنا
 ويبدى الرصافي عجبه من مظاهر الإحسان وآثاره التي كثرت في بلاد
 الغرب فأسست بسببه ملاجىء ومستشفيات ومدارس سعد بها المحرومون،
 ويبدى أسفه لقلّة هذه الآثار في البلاد العربية، وديار الإسلام الذى أوصى
 بالإحسان بل أمر به أمرا. فى قوله تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان
 وإيتاء ذى القربى...»:

لم أدر والآثار منه كثيرة فى الغرب لم نزلت وقلت عندنا؟
 أفنحن نجعله؟ وقد علم الورى فى الشرق نشأته ريبا بيننا
 أو ما أمرنا فى عظات كتابنا بالعدل والإحسان أن نتدينا؟
 ويسر الرصافي أن يشاهد فى وطنه العزيز بواكير آلاء الإحسان،
 فيزول عنه شيء من تشاؤمه المعبود. وينتقل إلى الإشارة بهذا المحسن الكبير
 الذى أظهر بهذا السخاء الكريم، والبذل المشكور أن الإحسان له دين
 وطبيعة إذ لم يفرق فى إحسانه (وهو اليهودى) بين دين ودين. بل أشرك
 الكل فى خيره، وأسبغ عليهم سابع بره، فاستوجب الحمد والثناء على
 مر العصور، وكر الدهور:

رجل علينا اليوم من إحسانه أن ليس للإحسان دين فى الدنا
 لا يحسن الإحسان إلا هكذا قد صار طبعا للنفوس ودينا

أشرنا في أكثر من موضع إلى تعليل هذه الظاهرة التي بدت واضحة المعالم في شعر الرصافي ، وأقصد بها عنايته بالفقراء ، وحديثه على البائسين ، فالرصافي هو الذي تقلبت به الأحوال وعشت به تصارييف الأيام وخطوبها ، وتنقل من حلال العز التي كان يرفض فيها أزمانا لا تطول حتى يعقبها الإملاق ، فيسما تراه يحلق في سماء الجاه والمنزلة ، إذا هو يهوى من شاهق إلى حضيض الفاقة والمسغبة مثل هذا الرجل لا ينكر عليه هذه العناية الظاهرة بمن عضهم الدهر بنابه فقد طعم لذة الشبع ، كما ذاق مرارة الجوع ، يتجرعها على مضض فانبعثت عنه هذه العاطفة الحادة ، والألانة الحزينة ، فشدا بهذه الأنعام الشجية وقد كان الرصافي يستطيع أن يستبقي من هذا العز لهذا الحرمان ، ومن غناه لفقره ، ومن شبابه لشيخوخته ؛ ولكنه نسي كل ذلك حتى صار الإلتفاف له عادة وديدنا ، وقد كان عمق إحساسه بما يجد ذوو الإعسار أهم ماجر عليه هذه الأزمات المتلاحقة التي كان يكابدها أكثر أيام حياته ، ولقد رأيت أنه كان يتصدق في غير مامن ، ويعد قبول الصدقة منه ، تسكرمة له وتفضلا عليه وهو الذي « يشارك الناس طرافي بلاياها » .

وهذا الخلق يدلنا على إيمان الشاعر وحسن ثقته في الله ، فقد كان دائما يعيش في يومه ، ولا يحسب حسابا لغده فتحال من قيود الحرص الذي يذل أعناق الرجال وكان يرى كما يرى الأثر الماثور أن البخيل سيء الظن بربه فيخشى الفقر إن تصدق ؛ وذلك أول علامات الجحود وعدم الإيمان والثقة بالخالق الرازق .

غادر الرصافي موطنه (العراق) عدة مرات زار في خلالها كثيرا من البلاد فزار تركيا ولبنان وسورية وفلسطين ومصر . وبما لاشك فيه أن شاعرا

مثل الرصافي إرهاف حس ، والتهاب عاطفة ، وسعيا في مجد قومه ، لا بد أن يرسل نظرة فاحصة إلى دقائق الأشياء . وأسرار الحياة في هذه المواطن التي انتجعها أوزارها ، وقد كان ذلك ، ففطن إلى عوامل النهضة في كل بلد من هذه البلاد . ووقف على مقدار أخذها بأسباب الحياة ، وضربها في مضمار المدنية التي انبعثت من بلاد الغرب وأشرقت على بلاد الشرق . حين وجد الاتصال بين هذه الآفاق بوسائله المعروفة ، التي أهمها انتجاع الأوربيين بلاد الشرق تجاراً وعلماء ومستعمرين ، فكانوا حلقة اتصال بين أقوام متباينين في كل شيء من مظاهر الحياة . وحلقة اتصال كذلك بين هذه العقليات . فأخذ الشرقي المغلوب على أمره يحاول جهده أن يقلد الأجنبي الغالب في كل شيء من ظواهر الأشياء وحقائقها ، ولعل حقائق الأمور لا يجيد معرفتها إلا أصحابها الحقيقيون الذين زاولوها قروناً عدة في بيئتها الأولى ، وحفظ المقلد دائماً العناية بالظواهر ، حتى يتعرف الحقائق فيما رسها بعد أن ترسخ أصولها ، وتتميز علائقها عنده وليس من الميسور أن يتحقق ذلك في مدى يوم وليلة ، وإن كان ذلك مما يعد ممكناً بالنسبة للظواهر والقشور .

وكان من أثر ذلك احتكاك قوى بين العقليات في ديار الشرق بين من يقولون بإمكان الطفرة وبين من يجذبهم ماضيهم إلى المحافظة على مقومات الأمة من تقاليدها وعاداتها .

٩

كانت المرأة الشرقية عامة ، والعربية خاصة ضحية إهمال شنيع وتقييد فظيع ، والرجل أخذ بأسباب النهوض ، فكان هناك بون شاسع وهوة سحيقة بين الرجل والمرأة ، طلب الرجل لنفسه الحرية وكتبها بقيود الاستعباد وطلب لنفسه العلم وأبقاها تتعثر في دياجير الجهالة ، وهكذا بقيت المرأة في الشرق ترسف في هذه الأغلال ، وعطل بذلك نصف الأمة عن

العمل ، فبقيت رهينة بيتها ، وقعيدة خدرها ، منزوية في كسر بيتها ، وحصر
همها في تدبير الطعام وتربية الأولاد ، فربتهم تربية مشوهة على ما ألفت
وعرفت من الأساليب العتيقة البالية .

ولقد هب جماعة من دعاة الإصلاح يحاولون انتشال المرأة مما تكابد من
آلام وما تعامل به من عنت داعين إلى السفور وطرح الحجاب ، وضرورة
تزود المرأة من حياض العلم والمعرفة ، حتى تعالج أمورها على بصيرة من العلم
والفهم فدعا جماعة منهم إلى إشراك المرأة في سائر تكاليف الحياة تنهض مع
الرجل جنباً إلى جنب ، وبما لا ريب فيه أن هذه الدعوات جديدة على المجتمع
الشرقي فتلقاها بكثير من الإنكار ، وارتفعت صيحات مدوية ترمى هؤلاء
الدعاة بالفسق والفجور والسفه والكفر ، وهذا شأن كل جديد لأعبد للمجتمع
به ، فكانت هذه المناظرة بين جماعة المجددين الذين دعوا إلى تحرير المرأة وجماعة
المحافظين الذين يرون الإبقاء على ما هي عليه من التأخر والهو ان .

رأى الرصافي وقرأ الحالة في غير بلده ، ورأى انبعاث النور الذي
يشير بإشراق شمس المرأة على المجتمعات ، فألى على نفسه أن يعمل على إنهاض
المرأة العراقية لنسائر أختها في بلاد الغرب والشرق ، فأرسلها صيحات مدوية
في سبيل خلاصها ، وانفرد ديوانه بباب خاص سماه (النسائيات) وفي هذا الباب
دعا إلى رفع هذا الحيف الذي نزل بالمرأة ، وندد بالعادات والتقاليد التي جرى
عليها ما لذكورها ، فأذاقوها ألوان العسف ، وصنوف العذاب في الحجب
والتضييق والحرمان .

وأولى قصائد هذا الباب قصيدة (المرأة في الشرق) وفيها يرجع ما أصاب
أهل الشرق من التدهور إلى إغفال شأن المرأة ، وسلبها حريتها مجارة للعادات
التي درج عليها الشرقيون ، فأصبحت هذه العادات قيوداً وأغلالاً لا يستطيعون
الانفكاك من إسارها :

ألا ما لأهل الشرق في برحاء يعيشون في ذل به وشقاء ؟
 لقد حكموا العادات حتى غدت لهم بمنزلة الأقياد للأبراء
 ثم يشرح علة البرحاء ، ويدكر سبب ما يقاسون من الشقاء .
 لقد غمطوا حق النساء فشدوا عليهن في حبس وطول ثواء
 وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا عليهن إلا خرجة بغطاء
 أضاقوا عليهن الفضاء كأنهم يغارون من نوره وهواء

ولقد شارك الرصافي في هذه الدعوة التحريرية كثير من دعاة النهضة النسوية ، نذكر منهم الشاعر الفيلسوف (جميل صدقي الزهاوي) وشاعر النيل (حافظ إبراهيم) ، فإن هؤلاء الشعراء الثلاثة يصدرون عن شعور واحد ، ويرمون إلى هدف واحد ، وإنك لو اجد هذه المعاني في شعر شاعر النيل ولكن حافظا كان غير مشتط في دعوته ، لأنه يعرف البيئة التي درج فيها ولذلك تجده غير صريح فيما يدعو إليه ، أودعا إليه آنذاك ، وآية التردد في ذلك قوله :

أنا لا أقول دعرا النساء سواقرا بين الرجال يحلن في الأسواق
 في دورهن شئون كثيرة كشئون رب السيف والمزراق
 كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا في الحجب والتضييق والإرهاق
 ليست نساؤكم حلى وجواهرها خرف الضياع تصان في الأحقاق
 وإنك لو اجد هذه المعاني أكثر صراحة في كثير من شعر الزهاوي فإذا
 قرأت قصيدة (أسفري) انبعث منها صدى الرصافي . قال :

أسفري فالحجاب يا ابنة فخر هوداء في الاجتماع وخيم
 كل شيء إلى التجدد ماض فلماذا يقر هذا القديم ؟
 أسفري فالسفور فيه صلاح للفريقين ثم نفع عميم

ويقول :

لم يقل بالحجاب في شكله هـ سدا نبى ، ولا ارتضاء حكيم
هو في الشرع والطبيعة والأذوا ق ، والعقل والضمير ذميم
هو سجن لمن من غير وزر وهو حرمان النور وهو المموم
ولقد تطلب العذارى نسيما ثم ما إن يهب ذاك النسيم
ويخاطب المحافظين الذين يخافون على المرأة التردى إن هى أسفرت فيقول
إن الحجاب ليس هو الذى يقي عفة الفتاة ، وإنما التعليم والتثقيف :
زعموا أن فى السفور اثلاما كذبوا ، فالسفور طهر سليم
لا يقي عفة الفتاة حجاب بل يقيها تثقيفها والعلوم
ونعود إلى الرصافى وإلى قصيدته التى يصور فيها الحالة البائسة التى آل
إليها أمر المرأة فى الشرق فصارت كسقط المتاع ، فلم يعرفوها لغير الاستمتاع
فألحقوا بالنساء العار :

وقد زعموا أن لسن يصلح فى الدنا لغير قرار فى البيوت وباء
فما هن إلا متعة من متاعهم وإن صن عن بيع لهم وشراء
أهانوا بهن الأمهات فأصبحوا بما فعلوا من ألأم اللؤماء
وينفرد الرصافى دون الدعاة إلى تحرير المرأة بمعنى من أسى المعانى ، ولا نظن
أحدًا من دعاة حريتها ، ورسل نهضتها استطاع أن يقول فى حقها ما قال الرصافى .
أعلن الرصافى أن تقييد المرأة وأسرها حتى أصبحت فى البيت أمة من
الإماء لا حرة من الحرائر ، فصارت مسلوبة الرأى حيسة المنزل ، ولقد جر
هذا الإسار إلى ضرر شنيع ، ووزر فظيع ، هو الذى جعل الرجال يرضون
حياة النذل والاستعباد ، لأنهم ربوا فى حجور الإماء ، والولد بأبويه أشبه ،
وبهما ألصق ، فأشربوا النذل والهوان ، لأنهم رضوا لأمهاتهم ، أولر وجاتهم

هذا الذل وذلك الهوان ، فقد تعودت الأمة أن تستجيب لرغبة سيدها ، ومالك
 رقها ، فرضى هو لنفسه الخنوع والاستسلام لحكامه الظالمين ، وسادته المتعسفين
 ولو أنهم أبقوا لمن كرامة لكانوا بما أبقوا من الكرماء !
 ألم تر هم أمسوا عبيداً لأنهم على الذل شبوا في حجور إماء ؟
 وهان عليهم حين دانت نساؤهم تحمل جور الساسة الغرباء
 وكما طلب الرضا في العلم للرجل ، طلبه للمرأة ، وعد الجهل وحده الذي
 تسلط على الرجال هو الذي جعلهم يرون في تعليم المرأة خروجاً على الصيانة ،
 وثورة على العفاف ، وليس من الدين في شيء أن تحرم المرأة الارتواء من
 حياض المعرفة ، فيقول :

عناكب الجهل كم ألفت بأدمغة من الأنام نسيجاً من خرافات
 فخرموا وأحلوا حسب عادتهم وشوهوا وجه أحكام الديانات
 حتى تراهم يرون العلم منقصة عند النساء ولو كن العفيفات
 وحجبوهن خوف العار ، ليتهم خافوا عليهن من عار الجهالات !

وانتقل إلى ظاهرة يشهدها أهل العراق ومنتجعوه ، فقد حرمت التقاليد
 أن تبرز المرأة في المجتمعات العامة ، ومن جرئت على الخروج على هذه
 التقاليد الموروثة ، عدت من المستهترات العابثات ، ورعى أهلها بالتهاون والانحلال
 والحقيقة أن هذه الظاهرة لا توجد في العراق فقط بل إن الشعور نفسه لا يزال
 في أكثر بلاد العربية التي تدين بالإسلام الذي جعل المرأة واجبة الستر
 مخافة الفتنة ، ولقد جر هذا الاعتقاد إلى تأخر بعض الفنون التي هي مجال للتفوق
 والبروز على أيدي المرأة ، ففن التمثيل مثلاً ، وهو مدرسة الشعب كما يقولون ،
 وملقنه المعرفة ، ومزوده الخلق ، ووسيلة نشر الفضيلة ، ورسم المثل العليا ،
 ومحاربة الرذيلة .

هذا الفن الذي يهدف لأسمى الغايات لا يستغنى في أشخاصه عن رجال

يمثلون أدوار الرجال ، ونساء يقمن بتمثيل أدوار النساء ، وبغير هذا يكون هذا الفن مبتورا ، لا يصيب هدفا ، ولا يحقق غاية !
ولكن ! أى فتاة ترضى لنفسها أن تعد عابثة مستهترّة إذا رضيت لنفسها أن تعتلى خشبة المسرح ؟ وكيف يرضى أولياؤها أن يعدوا من المستهينين بشرفهم ؟

كان من أثر هذا الشعور أن انفرد الرجال بمزاولة هذا الفن ، ودور المرأة من يقوم به ؟ إنه رجل يتزيا زى النساء ، ويلحن لهن ، ويتكاف حركاتهن فقتل هذا الفن لهذا السبب وحده دون غيره !

رأى الرصافي هذه الظاهرة التى آلمته ، رأى رجلا يريد لنفسه أن يكون امرأة ، فتتحل شخصيته ، وتهوى رجولته ، ولم يجر هذا الخطب الويل إلا المبالغة فى حجب المرأة والتضييق عليها . وتلك نظرة الفطن الأريب الذى سجل بنفشاته نواحي الضعف فى المجتمع :

وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح تمثل حالى عزّة وإباء
ولكن عاراً أن تزيا رجالكم على مسرح التمثيل زى نساء
ولأنه ليرسل شكاته إلى رب السماء بعد ما كاد يقنط من ترديدها على
مسمع الناس وليست هذه الشكاة الضارعة لشيء سوى جمل النساء وتأخرهن !
وذلك أنا لا تزال نساؤنا تعيش بجهل وانفصال عن الجمع
وأكبر ما أشكو من القوم أنهم يعدون تشديد الحجاب من الشرع
وللرصافي نفحة شعرية ، أسبغ عليها فنه ، وأضفى عليها سابغ الخيال
الرشيق وثوب الشعر الأنيق ، فيصور المرأة حمامة ، وفى حجبها وجهها تنف
ريشها ، وليس يطيب لها دونه التغريد ، وقد حرمت أعز ما تحرص عليه وهو
الذى به تطير وحريرتها التى يطيب لها بها التغريد . وليس ذلك فى شرع ولا
كتاب ولكنه ادعاء المتعسفين الجائرين :

أفى الشرع إعدام الحمامة ريشها وإسكاتها فوق الغصون عن السجع
وقد أطلق الخلاق منها جناحها وعلمها كيف الوقوع على الزرع
ويعود الرصافي إلى أناته وإلى ترديد شكاته ، وسكب عبراته قائلا : إن
هذه المظلومة هي سر شقائه وعلة بكائه ، ولكنه بكاء بغير دموع ، وهو
أشد ألوان البكاء فقد يكون في الدمع الشفاء بما يقاسى الكليم المعمود .
فتلك التي ما زلت أبكي لأجلها بكاء إذا ما اشتد أدى إلى الصرع
بكيت بلا دمع ومن كان حزنه شديدا بكى من غير صوت ولا دمع
وله إلى جانب هذا الشعر الاجتماعي الوجداني في النساء في بلاد الشرق
عامة ، شعر خص به المرأة المسلمة ، لأنها أكثر مشايلتها في سائر البلاد عدا
استمع إليه يرثى لحالها .

لم أر بين الناس ذا مظلمه أحق بالرحمة من مسلميه
منقوصة حتى بميراثها محجوبة حتى عن المكرمه
قد جعلوا الجهل صوانا لها من كل ما يدعو إلى المائمه
والعلم أعلى رتبة عندهم من أن تلقاه وأن تعلمه
ويدع هذا التصوير لما تكابد من البؤس الأليم من الجهل والحجب إلى
وجوب إشراكها في العمل كالرجل ، ولكنه لا ينادى بهذا على أنه حق مسلم
به للمرأة المسلمة ، ولكنه يرى هذا الرأي لها لكسب القوت حين تعدم الكاسب
لها ، أو تحرم الولي الذي يقوم عنها بالكفاح في سبيل العيش والحياة :
ما تصنع المرأة محبوسة في بيتها إن أصبحت معدمه ؟
ضاقت بها العيشة إذ دونها سدت جميع الطرق المعلمه
وعلى عادة الرصافي من مشاركة كل ذي ألم في ألمه يذرف هذه
العبرات على بعض البائسات المقعدات عن طلب الرزق ، فعشن
طاويات ساغبات :

كم في بيوت القوم من حرة تبكي من البؤس بعيني أمه
 قد لوححت نار الطوى وجهها وأعمل الفقر بها ميسمه
 عاب عليها قومها ضلة أن تكسب القوت وأن تطعمه
 من أي وجه تبتغي رزقها وطرقها بالجهل مستبهمه ؟
 وكيف والقوم رأوا سعيها في طلب الرزق من الملائمه ؟

تلك حال قعيدة الدار من الحرائر صيرها البؤس من الأماء وكان لها من
 سعيها إن يسر لها السعى ما يضمن لها الإبقاء على عزتها وهناءتها .
 وهناك أرملة فقدت زوجها ، ولم يخلف لها ما يصون ماء وجهها من أن
 يبتذل وأخذت تعاني ووليدها آلام الحرمان ، والشاعر هنا يردد أناثه التي
 رجعها في قصيدته الرائعة (الأرملة المرضعة) وقد أوردنا شيئاً منها قبل ، وذكرنا
 سبب إنشادها .

لقد شن الرصافي حرباً شعواء ، لاهوادة فيها على التقاليد التي لا تعطى المرأة
 أي حق في حرية اختيار الزوج الذي كتب عليها أن يكون شريك حياتها ،
 بل يبيعها وليها بيع السائمة لمن يغدق المهر ، ويغلي الثمن ، دون نظر إلى غير
 ذلك من المقدمات ، وهذا البعل الذي استطاع أن يظفر بها عما أغللاه من
 المهر ، يسيطر عليها ما وسعه من سلطان ، إن شاء ضربها ، وإن أراد حبسها
 في كسر بيته وإن شاء طلقها ، وهذه هي المرأة بين دار أبيها ، وبيت بعلها
 محبوسة مظلومة وهذه المعاني يبسطها الشاعر في خمسة أبيات صور فيها
 (هوان المرأة عندنا) :

ما أهون الأثني على ذكرائنا فلقد شجاني ذلها وخضوعها
 ضعفت فحجتها البكاء لخصمها وسلاحها عند الدفاع دموعها
 هي متعة المستمتعين وليتها كانت لزاماً لا يجوز بيعها
 فوليتها عند الزواج يبيعها وخليتها عند الطلاق يضيعها

وكلاهما متحكم في أمرها هذا يعرّيها وذاك يجيعها
وللشاعر غير هذه النفثات معان أخرى سامية في قصيدته (حرية الزواج
عندنا) وفيها ينحى على الذين تعلقوا بالحجاب زاعمين بأن فيه الصون والرشاد
للرأة فسكأنهم يهتمون بظواهر الأمور دون ألبابها فالخرة السكريمة عندهم من
لزمت الحجاب وارتدت النقاب ؟ ولو أخفت هذه الظواهر والقشور تحتها
شرا مستطيرا :

قل للألى ضربوا الحجاب على النساء هل تعلمون بما جرى تحت العبا ؟
شرف المليحة أن تكن أدبية وحجابها في الناس أن تتهذبا
والوجه إن كان الحياء نقابه أغنى فتاة الحى أن تنقبا
واللؤم أجمع أن تكون نساؤنا مثل النعاج وأن تكون الأذؤبا
ويعود بعد هذه المعانى السكريمة إلى ربطها بنهضة الشرق التى لن تكتمل
إلا إذا ساهمت فيها المرأة بعلمها وأدبها لأنها نصف المجتمع وليس ينهض مجتمع
عطل نصف جسمه :

هل يعلم الشرق أن حياته تعاو إذا ربى البنات وهذبا ؟
وقضى لها بالحق دون تحكم فيها وعليها العلوم وأدبا ؟
والشرق ليس بناهض إلا إذا أدنى النساء من الرجال قربا
فإذا ادعيت تقدماً لرجالها جاء التأخر فى النساء مكذبا
من أين ينهض قائماً من نصفه يشكو السقام بفالج متوصبا ؟
كيف البقاء له بغير تناسب ؟ والدهر خصص بالبقاء الأنساب ؟

والرصافى الذى تفتق لسانه بهذا الشعر العاطفى الذى حبا به المرأة وحن
عليها ، وعاب على الواقفين فى سبيل نهضتها ، ومنزعجها حريتها ؛ هالته آفة من
آفات المجتمع الإسلامى ، وهى الطلاق الذى أحله الإسلام لرفع الحرج إن
تعسر الاتفاق بين الزوجين ، ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله .

ولسكن الناس في هذا العصر قد اتخذوه هزوا ولعبا ، فالمتكلم في لغو الحديث يؤكده حديثه بالقسم بالطلاق ، وكثيرا ما جر هذا العبث إلى بينونة الحليلة عن حليلها وما يجر ذلك من تخريب بيوت كانت أهلة عامرة ، وتشريد الولدان والولائد أو تربيتهم على الذل والمهانة في حجور ربائبهم ، ومن خوف هذا المصير لا تشعر المرأة بالأمن أو الاستقرار في ظل الزوجية ، فتبقى حياتها مضطربة قلقة .

إن هذا القسم العسايت يؤوله فقهاء الدين تأويلا بعيدا عن الإنصاف ، فيوقعون الطلاق دون نظر إلى سبب أو تقدير للحكمة في إباحته .

وفي قصيدة (المطلقة) تجد وصفا مؤلما لهذه التي كانت ضحية بعزل غشوم لا يعرف معنى للتآلف والتعاطف ، فيهون عليه أن تنهار هذه الدعائم التي أقامها الله على أساس متين ، وأن يتقوض صرح الزوجية الذي يستظل به الزوجان ، ومن ينسلان من بنين وبنات . يصف الرصافي حال هذه المطلقة التي ذوت نضرتها ، وذبلت بشاشتها . ولم تقترف ذنبا ، ولم ترتكب إثما :

حليلة طيب الأعراق زالت به عنها وعنه بها الكروب
رعى ورعت فلم تر قط منه ولم يرقط منها ما يريب
توثق حبل ودهما حضورا ولم ينسكت توثقه المغيب

وزوجان على هذه الصلة الوثقى يفصمهما سبب تافه لا ذنب على الزوجة فيه :

فغاضب زوجها الخطاء يوما بأمر للخلاف به نشوب
فأقسم بالطلاق لهم يمينا وتلك ألية خطأ وحوب
وطلقها على جهل ثلاثا كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفقى بالطلاق طلاق بت ذوو فتيا تعصهم عصيب
فبان عنده لم تأت الدنيا ولم يعلق بها الذام المغيب
فظالت وهي باكية تنادى بصوت منه ترتجف القلوب

وفي أسلوب قصصى بديع يسوق الشاعر محاورة تخيلها بين هذين الحبيبين اللذين فرق بينهما الطيش ، وطوح بسعادتهما الحق : فهاهى ذى الزوجة تسقى زوجها وطليقها كأس العتاب تفيض بالأسى والحسرة ، وهو لا يزال يظهر لها تعلقه بحبها ، وأنها كلبة شاردة جرت هذا الوبال .

لقد أباح الشرع الطلاق حين استحالة الحياة بين الزوجين وهو بهذا يزيل الضيق لأن هدفه ضمان السعادة للناس ، ومتى كان الزواج عقبة في سبيل سعادة أحد الزوجين فلا ضير من إزالة هذه العقبة :

ألا قل في الطلاق لموقعيه بما في الشرع ليس له وجوب
غلوتم في ديانتم غلوا يضيق ببعضه الشرع الرحيب
أراد الله تيسيرا وأنتم من التعمير عندكم ضروب
وقد حلت بأمتم كرب لكم فيهن لا لهم الذنوب
وقد أدى هذا الخطاب إلى ضعف حبل الزوجية فلا ثقة بين الزوجين ولا طمأنينة بين الإلفين :

وهى حبل الزواج ورق حتى يكاد إذا نفخت له يذوب
كخيط من لعاب الشمس أدلت به في الجو هاجرة حلوب
يمزقه من الأفواه نفث ويقطعه من النسم الهبوب
نستطيع بعد كل هذا أن نقول إن الرصافي قد حبا النساء بما لم يحب به غيرهن ، وإنه نصب نفسه محاميا في الذود عن حقوقهن فهو نصير المرأة غير منازع ، ومن رواد نهضتها الآخذين بيدها في الشرق .

وبالرصافي ونظرائه في العراق وفي غير العراق من شعراء العربية أخذت المرأة سبيلها إلى الحياة ، فانتبهت وكافحت ، فتعلمت ، ولا تزال تناضل الرجل لتقتنص من بين يديه حقها موفورا ، وما وصلت إليه المرأة في أيامنا يبشر بأن ستبلغ المرأة العربية ما بلغت أختها في بلاد الغرب ، وبذلك تحقق آمالها التي

(١) يرى بعض الأدباء أن مما يمتاز به أدب كل من الشاعرين الزهاوى والرصافي ما يسمونه تحرير المرأة ويراد بذلك أن تحذو المرأة المسلمة حذو المرأة الغربية في حياتها ووجوب تمتعها بالقسط الذى يتمتع به الرجل وقد سبقهم إلى ذلك الكاتب الاجتماعى المصرى المشهور قاسم أمين والذى نأخذه على هؤلاء الأدباء والكتاب انهم يترسمون فى ذلك خطأ الغربيين فى استساغة سفور المرأة ومنحها ما يمنح الرجل من حرية تبيع لها الشخص فى المجالس والخلوة بغير المحارم من الرجال واستقبال الأصدقاء أو من يسمونهم أصدقاء، ويقلدونهم تقليدا أعمى فى كثير من الأحيان، كأن الغربيين أول من نادى بعقوبة الإنسان المظلوم وتحريره من ربة الاستعباد مع أن الشريعة الإسلامية أول شريعة أنصفت المرأة ومنحتها حقوقا لم تمنحها امرأة قبلها فى شريعة أخرى .

والواقع أن العوامل التى عملت على زوال مجد الأمة العربية أو الإسلامية واستقلالها وحضارتها هى نفس العوامل التى عملت فى سوء معاملة الرجل للمرأة فى هذا الجزء من العالم الإسلامى ولا معنى لنسبة التقصير فى هذا الشأن إلى الإسلام نفسه ولا بد لنا من القول إن اللامم إذا أرادت مجارة الشعوب الناهضة مراحل معينة لا بد أن تقطعها مرحلة مرحلة. ومن رأينا أن مثل هذه القضايا الاجتماعية المعضلة ومنها القضية التى يسمونها تحرير المرأة ومنحها ما يمنح الرجل من حرية ورفع الحيف عنها فى الزواج والطلاق وغير ذلك من حقوقها ليست من القضايا السهلة التى تحل بقصيدة ينظمها شاعر أو مقالة ينشئها أديب . فقد مرت الشعوب الناهضة بأدوار عديدة إلى أن وصلت المرأة عندهم إلى ما هى عليه اليوم وليس من شأننا استحسان ذلك ولا استهجانها فى هذه الكلمة . غير أننا نرى أن قضية المرأة وتحررها من القضايا التى يحلها الزمن . ولا مناص لنا من القول إن الدعوة إلى سفور المرأة وتبرجها على لسان الشعراء والأدباء هو آخر ما تحتاج إليه الشعوب الفتية الناهضة إذا وضعت حاجات الشعوب ومطالبها الكبرى فى قائمة يقدم فيها الأهم على المهم فى هذه الحياة .

هذا الذى ذكرناه فى النصول السابقة صورة مصغرة لكفاح الرصافى فى الحياة العامة ، ومظهر لحسن بلائه فيها ، وهو كما ترى كفاح امتد إلى سائر جهاتها وشمل كل دناحيها ، يستوى فى ذلك ما استوى فى قرارة النفوس من الملكات التى تصدر عنها الفضائل والردائل ، وما شمل المجتمع من الظواهر الكثيرة ، ما تباين منها ، وما ائتلف .

ولقد رأيت كفاحه السياسى على الصورة التى فصلناها ، وقد يجد القارىء فى بعض جوانب هذه الصورة ما لا يرضى من التناقض ، ولسكنه سيرها على كل حال كفاحاً فى سبيل مثله الأعلى ، ونزعاته المتضاربة !

أما شعره الاجتماعى فقد رأيت أنه امتد فنتاول فشمّل كل نواحي الحياة وإلى هنا نرى أن الشاعر قد أَرْضَى مذهبه الذى يدين به فى الشعر وهو أنه لا انفصام بين الشاعر وبينته وكما لاح من بعض كلمات الرصافى ميله إلى القول بمذهب وحدة الوجود دعا كذلك الى وحدة المجتمع ، بأن يكون كل من فيه وما فيه عاملاً ، ومجاهداً فى سبيله ما وسعه الجهاد فلا تعيش لبنة من لبناته فى منأى عن أخواتها ولا تتخاف شاة عن قطيعها ، بل الكل رائد نفسه ، ورائد مجتمعه .

ولقد دافع الرصافى عن هذا المبدأ دفاعاً مجيداً ، فهو من الذين يدينون بما عرف فى عصرنا بمذهب (الفن للمجتمع) ينتصر له قولاً ، ويظهره عملاً على النحو الذى رأيت فيما سبق ، فلا يريد لشعره إلا أن يكون صورة واضحة المعالم لمجتمعه الذى عاش فيه . وهذه الصورة ترى فيها قبائح المجتمع وعمله وآفاته فى نزاهة وإخلاص ، كما ترى فيها مفاخر هذا المجتمع ومباهجه التى تأخذ بيدك من هذه الحياة القائمة إلى شيء من الرضا .

ولم يقف الرصافى أمام هذا التصوير القائم أحياناً المشرق حيناً موقف المتفرج الذى لا يعنيه شيء مما يرى فى هذا المجتمع الصاخب ، بل أدلى بدلوه فى الدلاء ، ونبه النفوس الخاملة ، وحاول ما استطاع إنهاض عزائمها وإشعال

جذوتها ، وتوجيهها إلى ما يرى فيه الخير والقوة وبناء مجد سامق ، يضاهي في عظمتة تاريخ أمتة السابق الحافل بجلال الأعمال ، وباهي المآلات .

ولم يعجب الرصافي مذهب الذين يقولون (بالفن للفن) في خروج على المجتمع أو موافقة له ، إذ أن الفن في هذه الحالة الثابتة لا يعنيه إلا خياله المشرق والمغرب ، وجمال تصوره لما وقر في نفسه من المعاني والأخيلة أو خطر على قلبه من صورة رائعة أعجبه فصاغها بما أوتي من قدرة على إبراز هذه الصورة في أبهى الحلال ، وأشكل الأساليب وذلك ما لا يتفق مع ما طبع عليه الرصافي الذي وهب المجتمع ما وهب من فن وعبقورية .

وحسبه دفاعاً عن رأيه ما أودعه كتابه الموسوم (دروس في تاريخ آداب اللغة العربية) تحت ما أسماه « غاية الأدب » وقد آثرنا نقل هذه العبارة ليراهم القارئ ، قال الرصافي :

« سمعت بعض المتجددين من أدباء الترك في الأستانة يقولون : إن الأدب لا غاية له ، ويتوسعون في هذا القول حتى يعموا به ما يسمونه بالصناعات النفيسة أو الفنون الجميلة ، وهي الشعر والموسيقى والرسم والنحت ، فهذه الصناعات كلها لا غاية لها عندهم ، بل هي الغاية وهي المغنى ، فالرسام إذا رسم صورة كانت غايته تلك الصورة ، والشاعر إذا قال قصيدة كانت غايته تلك القصيدة وهلم جرا .

ولقد تأملت هذا القول فلم أجد له محصلاً ينطبق على المعقول إذا لاريب أن الغاية هي ما يكون لأجله وجود الشيء ، فهي إذن علة الوجود ، وليس من المعقول أن يكون الشيء علة لنفسه ، فإذا قال الشاعر قصيدة فليس من المعقول أن تكون القصيدة نفسها هي الباعث له على قولها .

سألت عن تحقيق معنى هذا القول بعض من يقولونه فلم يجيبوا بما يشفي الغلة ، ثم إنى اطلعت على كتاب في علم النفس نقله من الإفرنسية إلى التركية

نعيم بك البابان مدرس علم النفس في دار العلوم بالآستانة فقرأت فيه بحث قولهم (الصنعة للصنعة) . وعلمت منه أن ليس معنى هذا القول أن الفنون الجميلة لا غاية لها ، بل معناه أنها لا تحتاج في وجودها إلى مادة خارجة عن غايتها ، فإن الصناعات عندهم قسمان متممة وعالية . فالمتممة هي ما يحتاج فيها الصانع إلى مادة خارجة عن غايتها كالنجارة مثلاً فإن النجار يحتاج فيها إلى خشب يصنع منه كرسيًا والخشب خارج عن غاية الكرسي بخلاف الصناعات العالية ، التي هي الفنون الجميلة ، فإن الصانع فيها لا يحتاج إلى مادة خارجة عن غايتها كالشعر مثلاً ، فإن الشاعر إذا قال شعراً لا يحتاج فيه إلا إلى استعمال الكلمات وهي غير خارجة عن الغاية المقصودة منه ، بل هي نفس تلك الغاية لأن غاية الشاعر من شعره إثارة العواطف والتأثير في النفوس بوصف مشهد من مشاهد الطبيعة أو بتصوير منظر غرامي أو مدح أو هجاء أو غير ذلك ، والكلمات التي يستعملها في شعره ليست بخارجة عن هذه الغاية ، بل هي الغاية نفسها لأنه متى تكلم بتلك الكلمات ، وأنشدها السامعين فقد حصلت غايته المطاوعة التي ذكرناها .

هذا هو معنى قولهم (الصنعة للصنعة) وهو معنى صحيح لا غبار عليه ولا يلزم منه أن الأدب ليس له غاية كما يقولون^(١) اهـ .

ويخيل إلينا أن الرصافي في هذا الشرح لنظرية (الصنعة للصنعة) مع كونه حقيقة لا شك فيها قد حاد عن معناها ، أو حاد مفهمه هذه النظرية عما عرف إلى الأثر والمؤثر ، والعلة والمعلول ، أو أنه فهمها الفهم الذي يتناسب هو وما طبع عليه ، وما عرف عنه .

(١) الرصافي : دروس في تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٩ ج ١ مطبعة

دارالسلام في بغداد ١٩٢٨ .

سائر أغراضه

ومع هيام الرصافي هذا الهيام الشديد بمجتمعه ومع هذه الثروة الاجتماعية التي خلفها في ديوانه المطبوع من الشعر الاجتماعي، نجد كذلك الشاعر العاطفي المبدع، الذي تعددت نواحي شاعريته، وتنوعت جوانب إبداعه، فلم يدع الرصافي باباً من أبواب الشعر طريقة الأقدمون، أو عابجة المحدثون، ولا فناً من فنونه، إلا وقد تصرف فيه وعالجه علاجاً قوياً فكانت له هذه الشاعرية المكتملة الناضجة الشاملة، فمدح وهجاء، ووصف وتغزل، ورثى، ورضى وشكا ونفر.

الوصف

الطبيعة في شعر الرصافي:

ولكن أهم هذه النواحي جميعاً هي وصفياته، فقد توسع الرصافي في الوصف توسعاً عظيماً، وأهم ما تناوله بالوصف الطبيعة بما فيها من جمال وإبداع في السماء ونجومها، والأرض وجبالها، ووهادها ووديانها، والبحار والأنهار وعظمتها.

لقد افتتن الرصافي بالطبيعة افتتانا ملك عليه لبه، واستولى على مشاعره فكان ترجماناً لهذه الطبيعة التي وقف حيالها موقف المصور البارع، المأخوذ بسحر جمالها، وهو أحد أولئك الشعراء الذين ألهمهم السكون. فقرءوا فيه سطور الإبداع، وصاغوا منها غرر شعرهم:

قرأت وما غير الطبيعة لي سفر صحائف تحوى كل فن من الشعر

أرى غرر الأشعار تبدو نضيدة على صفحات السكون سطرًا على سطر
وهو في هذه المواقف قد ينحرف عن غايته من الإشادة بهذه المناظر
الباهرة ، والتغنى بالصور الساحرة التي شجذت عبقريته . وألهمت شاعريته ،
فيقف موقف المفكر المتأمل الذي يجد في استكناه أسرارها ، والإحاطة
بحركاتها ويحاول أن يتفلسف ؛ فيتكبد به المسالك ، وينبو عنه السبيل ، وتغلب
شاعريته الثرة على ما كان قد حاول من إنعام النظر ، وإعمال الفكر والعقل .
ولقد أفرد الشاعر في ديوانه بابا سماه « الفلسفيات » وعندنا أن هذه
التسمية لم تكن في محلها فلقد جمع في هذا الباب ثمانى قصائد من شعره هي :
خواطير شاعر - وجه ابن آدم - ما وراء القبر - لو - حقيقى السلبية - حياة
الورى - حبذا النوم - بين الروح والجسد .

وقبل أن ننساق في شرح هذه القصائد (الفلسفيات) كما سماها الشاعر ،
نقف أمام قصائده الوصفية الخالصة التي انبثت في ديوانه فكسته حمرة الشفق
وزرقة السماء ، وتلاؤ النجوم ، ونضرة الزروع ، وإيناع الورد . ومنها
ما أفرد له بابا ، هو سفر هذه الطبيعة المفعمة بآيات الخالق الناطقة بعظمته ،
الدالة على إعجازه ، وفي هذه القصائد صب الرصافي شاعريته الصافية في هذه
القوالب الشعرية التي استحق بها أن يكون في مقدمة الوصافين من مجيدى الشعراء .
ودونك قصيدة (الغروب) لترى الشعر الفنى الأصيل ، وترى التشبيهات
البارعة . قال يصف قرص الشمس حال الغروب :

نزلت تجر إلى الغروب ذيولا صفراء تشبه عاشقا متبولا
تهتز بين يد المغيب كأنها صب تمليل في الفراش عليلا
وهي حين أشرقت كانت ضاحكة ، وحين تهم بالمغيب تبكى دما :
ضحكت مشارقها بوجهك بكرة وبكت مغاربها الدماء أصيلا
مذحان في نصف النهار دلوها هبطت تريد على النزول نزولا

قد غادرت كبد السماء منيرة تدنو قليلا للأفول قليلا
 ثم يشبه وجهها بالورس ، ويشبهها بالعرارة حين تدركها الصفرة والذبول :
 حتى دنت نحو المغيب ووجهها كالورس حال به الضياء حيولا
 وغدت بأقصى الأفق مثل عرارة عطشت فأبدت صفرة وذبولا
 ثم يدع هذا إلى الشفق الذي يعقبها في المغرب :
 غربت فأبقت كالشواظ عقيبها شفقاً بحاشية السماء طويلا
 شفق يروع القلب شاحب لونه كالسيف ضمخ بالدماء مسلولا
 ولم يقف عند تشبيه الشفق بهذا السيف المسلول ، المضمخ بالدماء بل أتبعه
 بغدة تشبيهات بارعة ، فشبهه بدمع اليتيم الذي يشوبه دم الحسرة والهوان ،
 والظلم . ولا غرابة في هذا التشبيه الذي أورده الرصافي الذي لم يفارق خياله
 أنات المظلومين ، وزفرات البائسين ، حتى في مثل هذه المواقف الملهمة ، التي
 كان يرتقب أن تسرى عن نفسه ، وتخلي حيناً بينه وبين آلام المجتمع :
 يحكي دم المظلوم مازج أدمعاً هملت بها عين اليتيم همولا
 رقت أعاليه وأسفله الذي في الأفق أشبه عصفرا محلولا
 وكأن الشمس رفعت بهذا الشفق ردنا مبتلا بذوب ضيائها ، وكأنها الغادة
 تودع إلها ، ملوحة له بمنديلها .

كالخود ظلت يوم ودع إلها ترنو وترفع خلفه المنديلا
 ويدع هذا الوصف الفني لمنظر الغروب إلى هذه الصور المادية يرسل إليها
 مدى طرفه ، فينبعث صداها في قلبه فيرى المروج والحدائق ذات اليمين وذات
 الشمال ، وتروعه أصوات الدوالي ، وكأنها عويل الحزوين ، وعن كتب ذلك
 الراعي يروح بشويعاته إلى مراحها ، وفي ناحية أخرى ذوبرذوتين يعود بهما
 إلى مأواه ، وقد أنحله الجد طوال يومه . وفي أقصى الأفق دخان متصاعد إلى
 أجواز الفضاء ، وكأنه سبب يصل السموات بالأرض ، انظر إلى هذا
 الاستقصاء البديع :

لم أنس قرب الأعظمية موقفي والشمس دانية تريد أفولا
وعن اليمين أرى مروج مزارع وعن الشمال حدائقا ونحلا
وتروع قلبي للذوالى نغرة فى البين يحسبها الحزين عويلا
ووراء ذلك الزرع راعى ثلة رجعت تؤم إلى المراح قفولا
وهناك ذوبرذوتين قد اتنى بهما العشى من السكراب نحلا
وبمنتهى نظرى دخان صاعد يغلو كثيرا تارة وقللا
مد الفروع إلى السماء ولم يزل بالأرض متصلا يمد أصولا
وثرا كبت فى الجو سود طباقه تحكى تلولا قد حملن تلولا

ثم يصور الليل ورهيبته ، وحزن الحزون والسهول على فراق الشمس ،
وصور الظلام عزرائيل النور ، وقد أذهلته دجنة الليل ووحشته ، فظل يحسب
كل شخص غولا ، وأنه أخذ يخبط فى الظلام ليس له من هاد إلا نجمة القطب
ثم طلعت نجوم الليل ترى فأنست وحشته ، وبددت أوهامه ، ثم انتقل إلى
عظمة خالق هذه الصور :

سبحان من جعل العوالم أنجما يسبحن عرضا فى الفضاء وطولا
كم قد تصادمت العقول بشأنها وسعت لتكشف سرها المجهولا
لا تحتقر صخر النجوم فإنما أرقى السكواكب ما استبان ضئلا
دارت قدما فى الفضاء رحي القوى فغدا الأثير دقيقها المنخولا
فاقرأ كتاب السكون تلق بمتنه آيات ربك فصلا تفصيلا
ودع الظنون فلا وربك إنها لم تغن من علم البقين فتىلا

واللرصاصى عدا هذه الخريدة ، وصف رائع وصف فيه السماء والبدن فى
الهزيع الأخير من الليل والنجوم المنتشرة فى الفضاء ، كأنها عقد انفرط من
جيد حسناء :

ركبته وبياض الليل تحسبه صدر المليحة مكشوف التلايب

والبدر في الأفق الغربي تمتنع يرنو إلى الفجر في الحاظ مرعوب
وللنجوم بقايا في جوانبه كالعقد منفردا من جدر عبوب
وللنسيم هبوب في مدارجه ما ينعش الروح من نشر ومن طيب
وندع - خشية الإطالة - مامنح الرصافي الطبيعة من غالي شعره ، مكتفين
بهذه الصورة النموذجية التي أوردناها ؛ وللقارئ أن يرجع إلى ديوانه ليجد
نظائرهما روعة وقوة شاعرية ونفخامة أداء كقصيدة « على جسر مود » (١)
ومطلعها :

لا تبك أربعم ولا الأطلالا واربا بحبك أن يكون خبالا
و « على البسفور » (٢) ومطلعها :
وقفت على البسفور والريح عاصف وللدوح ظل دونه متقلص
و « وقفة في الروض » (٣) ومطلعها :

ناح الحمام وغرد الشحرور هذا به شجن وذا مسرور
وغير هذه كثير مما تألق فيه الشاعر فأبرز الطبيعة في حالتها القشبية ،
المستحبة . وكما وصف الرصافي هذه الطبيعة المتألقة كلما عبر عليها الزمن زادها
جدة ، كذلك وصف آثار العمران والحضارة من حدائق ذات بهجة نسقتها
أيادي الفنانين ، وقصور شاحات شادها المترفون ، وطرقات تشق المدائن
وتنظمها إلى غير ذلك من أسباب المدنية ومستلزمات الحضارة .

المختصرات الحديثة :

والرصافي كغيره من الشعراء في عصر النهضة الحديثة ، الذين استهوتهم
مظاهر المدنية وأخذت بلهيم المستحدثات في هذا القرن العشرين ، فوصفوها

وأبدعوا في وصفها ما استطاعوا ، وأشادوا بأثر العلم الذي أمد الحياة كل يوم بمستحدث جديد ، يزيد في رفاهية الإنسانية ، ويعمل على إسعادها .
ومن آياته في ذلك قصيدته (في القطار) وقد صاغها في مطلع هذا القرن
وكان (القطار) إذ ذاك أعجوبة من الأعاجيب التي جاد بها الزمن فأنقذ
الناس من تسلق الجبال ، واعتلاء الهضاب ، وهبوط التلاع والوديان ، وكان
في ذلك من شق الأنفس ما فيه . وكان شعراء النهضة هم الذين عبروا عن
هذا الإعجاب أجمل تعبير ، وفي مقدمتهم شاعرنا الرصافي قال :

وقاطرة ترمي الفضل بدخانها وتتلأ صدر الأرض في سيرها رعبا
لها منخر يبدى الشواظ تنفسا وجوف به صار البخار لها قلبا
تمشت بنا ليلا تجر وراءها قطارا كصف الدوح تسحبه سحبا
فطورا كصف الريح تجري شديدة وطورا رخاء كالنسيم إذا هبنا
تساوى لديها السهل والصعب في السرى فما استسملت سهلا ولا استصعبت صعبا
تدك متون الحزن دكا وإنها لتنهب سهل الأرض في سيرها نهبا
يمر بها العالي فتعلاو تسلقا ويعترض الوادي فتجتازه وثبا
وتخترق الطود الأشم إذا انبرى وقد وجدت من تحت قبتة نقبا
يرن بجوف الطود صوت دويها إذا ولجت في جوفه النفق الرحبا
لها صيحة عند الولوج كأنها تقول بها يا طود خل لي الدربا
وتمضي مضى السهم فيه كأنما ترى أفعوانا هائجا دخل الثقبا
تغالب فعل الجذب وهي ثقيلة فتغلب بالدفع الذي عندها الجذبا
طوت بالمسير الأرض طيا كأنها تسابق قرص الشمس أن يدرك الغربا
وما إن شكت أننا ولا سممت سرى ولا استهجننت بعدا ولا استحسننت قربا
وبعد هذا الوصف البارع ، والتشبيهات المادية الظاهرة ، والتقصي الجامع
ينتقل إلى هذا العصر الذي يسميه (عصر البخار) فيشير إلى موازنة
عابرة بين السكرباء والبخار فيقول :

تعاليت يا عصر البخار مفضلا على كل عصر قد قضى أهله نجبا
فكم ظهرت للعلم فيك معاجز بها آمن السيف الذي كذب الكتبا
تظاهرت من فعل البخار بقوة يذلل أدنى أفعليها المطلب الصعبا
وأقنم لولا الكهرباء فوقه لقلت على كل القوى ته به عجبنا
وله قصيدة أخرى وصف فيها مخترعا حديثا هو السيارة وعنوان القصيدة
(سفر في التومبيل) وقد أجاد الوصف ، وأحسن السبك ، وتدفقت شاعريته
تدفق المورد الذي لا ينضب ، وفيه من حلاوة الأسلوب ، وجودة السبك
وروعة التصوير ، ما يرفعه إلى رتبة الفيحول في عصور العربية الزاهرة ، ومن
هذه القصيدة :

كانها وهي بالمطاط منعلة تمشي بأخفاف أنواق مطاريب
يمر كالريح لم تسمع لأرجله سوى حفيف كنفخ في الأنايب
وتنكر الخيل إن جارته في سنن ما تعرف الخيل من حضرو وتقريب
تظله قبة فيه منجدة قد زانها حسن تنجيد وتقيد
يخال من حل فيها نفسه ملكا يزهي بتاج على الفودين معصوب
ومنها :

فطار من غير تخليق برا كبه بل مر يطر مطرا فوق ملجوب
وسار سيرا دراكا مله مهيعه كالوبل يتبع شؤبوبا بشؤبوب
فكنت أبصر حولي الأرض جارية كمثل تيار بحر وهو يجري بي
يلوح فصل الربا وصلا فأحسبها من سرعة المر قد صفت بترتيب
ما زال يحتازني ما في البسيطة من سهل ومن جبل عالي الشناخيب
حتى بلغت به أقصى مدى عجزت عنه العتاق من الجرد السراحيب
وكم علا بي أنشازا تساقها وشاب في السير تصعيدا بتصويب

وصف مجالس الانس :

أما مجالس الانس ، ومجتمعات اللهو ، فقد عالج الشاعر وصفها ، وتألق كل التألق ، والرصافي من عرفت هو من لا يتخرج عن تعاطى اللهو ، والتماس أسباب المتعة ، والترفيه عن نفسه ، فكانت له في هذا الميدان جولات ١ ولقد آليت حين أشرعت القلم للكتابة عن الرصافي ألا أجرى وراء رواية صديق شفيق ، وألا أتبع قول شانيء حاسد للرجل مبغض له ، فكلما الرجلين متهم وكلاهما مغال في رأيه .

ولم يسعدني الحظ برؤية الرصافي أو مجالسته ، فألمس بنفسى عن كذب أهواءه وميوله ونزعاته ، فكان من أثر هذه الرغبة عن قول الصديق ، ومقالة العدو ، وعدم تعرفي على شخصه ، أن عكفت على قراءة ديوانه قصيدة قصيدة وبيتا بيتا ، وأطلمت النظر إطالة من يريد تعرف السبيل باجتهاده ، ومن يريد أن يستخلص بنفسه ما يحتمل الشعر من المعاني .

وقد ساعدني على إدراك ما أملت هذا الديوان ، الذي وجدت فيه غناء أى غناء ، فالرصافي رجل صريح كل الصراحة ، جرىء كل الجرأة ، كما قدمنا في أكثر من موضع ، وإن هذه الصراحة والجرأة لتفيدان الباحث المدقق كل الإفادة . والرصافي كما عودنا هو دائما يقول ما يعنى ، ويعنى ما يقول ، ولا أجد عذرا لمن يدعى أن الشاعر كثيرا ما قديقول ، وكثيرا ما قديبالغ دون أن يعلق شيء مما قال بقلبه ، فإن صح أن يقال هذا عن غير الرصافي من الشعراء فمنازه يصدق عليه من قريب أو من بعيد .

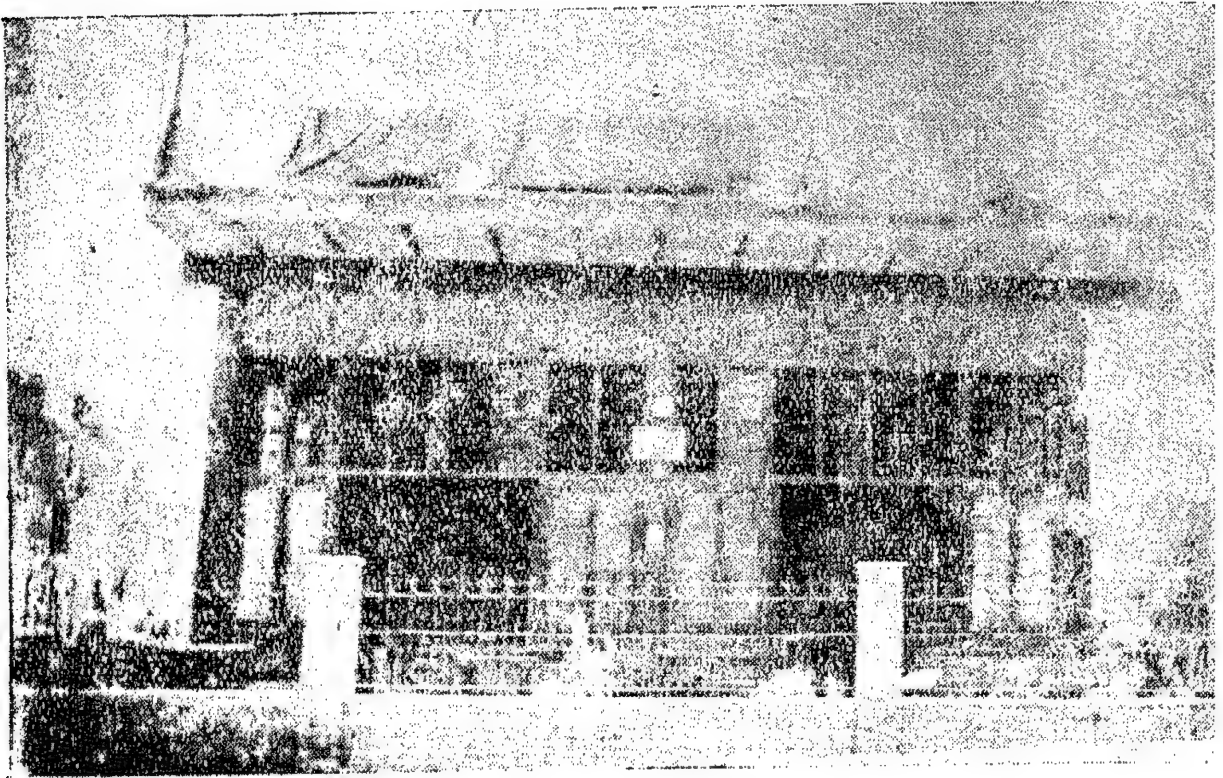
فإذا قلت : إن الرصافي لا يتخرج عن تعاطى أسباب اللهو ، ولا يحجم عن التماس المتعة والترفيه عن نفسه ، والتعلق بأسباب الهوى . والأخذ من شهوات الدنيا ولذائدها بنصيب ، فذلك ما قرأته في شعره . وإنك لترى في الآيات الآتية في وصف مجلس خمر إدمان الشاعر معاقرة ابنة السكرم ، لا يجترىء

منها بالكأس ولا بالكأسين . ولكنه يقصد كبرى الزجاجات :
 ولى عند إخوان الصفا أريحية إلى كل خل فى الزمان موافق
 إذا ما عقدنا مجلس الأانس بالطلا فبينى وبين السكر خمس دقائق
 ثم يأخذ فى تبيان سبب هذا السكر السريع :
 أقوم إلى كبرى الزجاجات مدهقا بمستقطر من خالص التمر رائق
 فأقرع بالكأس الروية جبهى بشرب كما عب القضا متلاحق
 أسابق ندمانى إلى السكر طائرا بجنح من الأانس المضاعف خافق
 فهاهى إلا بعد شربى سويعة وقد دب من رأسى الطلافى المفارق
 ويصف مجالسته ندمانه على الشراب ، وما يجدون فى حديثه الشهى من
 المتعة واللذة . وما يبدو منه من الملاطفة والممازجة والصرامة :
 فتأدمت أصحابى على غير حشمة وقلت لهم ما قلت غير منافق
 وأغنيهم عن نقلهم فى شرابهم بمن طرى من نقول الحقائق
 ولم يبد فى السكر عند اشتداده سوى شكر خلى ، أو سوى حمد خالق
 ويلوح لى أن إدمان الرصافى معاقرة الخمر لم يكن ناشئا عن اعتقاد أن
 تعاطى الخمر مباح ، فإنك لتراه فى هذه الحال التى وصفها من الإغراق فى السكر
 لا ينسى حمد خالقه ، أو لعله أقبح هذا المعنى وهو حمد خالقه إقحاما ، أو لعله
 احترس به من قالة الناس فيه . ولقد بدأ معروف تعاطى الخمر عبثا ، فصار له
 ذلك عادة ودينا ، فلج بها ولجت به ، و« العادات قاهرات » كما يقول فى قصيدة
 طويلة ترى فيها استنكار الرجل لهذه الموبقات واضحا جليا :

لو لم تسكن هذه العادات قاهرة لما أسيغت بحال بنت حانات
 ولا رأيت سكرات يدخنها قوم بوقت انفراد واجتماعات
 إن الدخان لثان فى البلاء إذا ماعدت الخمر أولى فى البليات
 فهو يرى بنت الحان منكرا قهر الناس على مزاولته حكم العادة ، ويرى

التدخين ثانی البلیا ، وشرب الخمر أولها . ثم یقول فی صراحة إن هذه الخمر
 حین تروج تجارتها فی الأسواق ، فإن رواجها رواج للبطل ، وهكذا الدهر
 سوق نافقة للبطل !

لو لم یك الدهر سوقا راج باطلها ما راجت الخمر فی سوق التجارات !



كان یلذ للرصافی أن یقضى بعض وقته فی هذا المقهى بالأعظمية
 وقد سمي باسمه تخلیدا لذكری إیثاره إياه « كازینو الرصافی »

وإلیك ما وصف به راقصة فی مذهب من ملاهی الأستانة لترى الإجادة فی
 الوصف والدقة فی النعت ، ولترى حركات قلبه تتبع حركات الرقص :
 أقبلت تنثنى بقدر رشیق البسته البرد القصیر قشیا
 قصرت منه كفه عن یدها وأطالت إلى النهود الجیوبا
 حبس الخصر حیث ضاق ولكن أطلق النحر بادیا والتریا

هوزى يزيد فى الحسن حسنا من تزيابه وفى الطيب طيبا
ثم يأخذ فى وصف حركاتها من تشن ، وانقباض وانبساط ، ويصف أثر
كل أولئك فى قلوب القوم ، فحفقات قلوبهم تتبع حركاتها ، وعلى وجوههم
تبدو آثار فعلها فى أفئدتهم ، إن دنت فبشر واستثناس ، وإن نأت فقطوب
وابتناس :

خطرت والجمال يخطر منها فى حشا القوم جيئة وذهوبا
وعلى أروس الأصابع قامت تتخطى تبخترا ووئوبا
يعبس الأنس أن تروح ذهاباً ويعيد ابتسامه أن تؤوبا
فهى إن أقبلت رأيت ابتساماً وهى إن أدبرت رأيت قطوبا
ثم يصف جارية أخرى قد أعقبها ، ذات دل وجمال ، وقد مثلت ببندقيتها
دور صياد خبير بالرمى ، طب بإصابة الهدف :
وهى فى كل ذاتصيب الرمايا مثلها طرفها يصيب القلوبا

الغزل

أما غزل الرصافى ففيه هذا الاتساق البديع الذى قرأته فى وصفياته ،
ولكنك لن تجد فيه أثرا للعاطفة الحادة ، ولا لآلم الحب وتبريح الصبابة .
وقد يعلق قلب الرصافى بالمرأة ، ويقع فى شراكها ، وقد يتجاوز ذلك
إلى الهيام ، ولكنه هيام موقت ، لا يلبث فى قلبه طويلا حتى يزايله ، ومن
دلائل ذلك ، أنه لا يقصر حبه على واحدة شغفته حبا ، أو هامت به وهام بها .
فهو أديب وهو شاعر يهيم بكل ما هو جميل ، وقد يتوزع هذا الجمال بين
أكثر من واحدة ، فيتوزع حبه ، ويتفرق قلبه بين هؤلاء الغوانى ، ذوات
القسامة والوسامة ، فيتقسمن هواه ، كما اقتسمن سمات الحسن وصفات الإغراء .
وأنت مع هذا لا تجده فى هذا الميدان كغيره من الشعراء الذين عرفوا

بالمخاطرة ، والميل إلى المغامرة ، واقتحام المخاطر ، وركوب الأهوال في سبيل
إشباع هذه الرغبة الجامحة ، كما رأيت شيخ الشعراء (امرأ القيس) وكما رأيت
(عمر بن أبي ربيعة) ، ولا تجده كذلك من أولى الحب الحار والعاطفة المشبوبة
كالعذريين ، أو أولى الحب الأفلاطوني كما يسميهم بعض العلماء ، كالذي تجده
(لجمل بن معمر) ومن إليه من رجال الحب البدوي العنيف العفيف ! ولكنه
في تنقله قد يشبه من بعض الوجوه عمر بن أبي ربيعة .

وإليك إحدى قصائده في هذا الباب ، وسترى من عنوانها وحده ما يوحى
إليك بما قدمنا :

إلى جميع الفواهي :

وقفت عليك قلبي الذي	يمر به الحب مر السحاب
وممكن أحبت هاتى وذى	وألفيت عذبا بكن العذاب
فمنكن يعضاء ما مثلها	(عدا خمر الخد) إلا القمر
فتلك التى طاب لى وصلها	كما ليلة البدر طاب السمر
وممكن حمراء جذابة	حكى وجهها الشمس عند الطلوع
أرى عينها (وهى خلابة)	فأمسك بالكف منى الضلوع
وممكن صفراء فى لونها	كأن قد تردت شعاع الأصيل
إذا ما تمشت على هونها	أصحت هبوب النسيم العليل
وممكن سمراء تحكى الدمى	وتبعث فى القلب ميت الهوى
على شفيتها يلوح اللبى	فيضرم فى الصب نار الجوى
وممكن من هى مثل الرياح	لها فى ذرى كل قلب هبوب
تريد غلاب جميع الملاح	وتبغى عذاب جميع القلوب
وممكن من هى مثل النجوم	من البعد ناظرة تبسم
فتلك عليها فؤادى يحوم	وتلك إليها الردى أقتحم

ففيكن طرا بوادي الهوى أهيم ، وإن لم تعد عائده
 ألا إن حبا بقلبي انطوى كثير فلم تكفه واحده
 وله إلى جانب هذا الهوى المتوزع ، والقلب المتفرق ، غزل مبتذل
 ووصف مكشوف لا يتورع فيه الرصافي عن ذكر الحفريات ، وإبداء
 العورات . في غير تحفظ ولا احتشام ، مما يأباه العقل الحكيم ، ويمجه الذوق
 السليم . وما كان يليق منه ولا يقبل هذا وهو الذي جعل شعره صورة لمجتمعه ،
 وقائد ألامته ، ولا سيما بعد ما عرف إقبال الناس على آثاره ، وحفظهم لأقواله .
 ولعل في قصيدته التي سماها « بداعة لا خلاعة » أقصى الاستهتار والتبذل
 في الوصف ، والكشف في القصة ، ونحمد الله أن برىء ديوانه المطبوع ،
 من أمثال هذا الشعر الذي ينكره الذوق السليم .
 وإن نحن أنكرنا على الرصافي هذا الشعر ، فما يجدر بنا أن نمثل له ،
 ولكن رغبتنا الشديدة في التعريف بما يتيسر لنا من معرفة اتجاهات الشاعر ،
 ونزعاته ، هي التي تحفزنا دائما إلى التلييح لهذا لا يمكن به التصريح ، وقد يكون
 في الإشارة ما يغني عن صريح العبارة .
 وهناك لون آخر من هذا الوصف أو هذا الغزل جنح إليه الرصافي فيما
 جنح ، وعالجه فيما عالج ، ألا وهو الغزل الغلاني ، الذي ابتدعه أولئك الموالى
 من الشعراء في العصر العباسي ، مما صار سبة للأدب العربي ، وجعله قذى في
 عين قارئيه ، لأنه مظهر للانحلال الخلقي ، والانحدار الاجتماعي . على أن
 الذين لا يهمهم أثر ذلك في المجتمع ، ولا صداه في نفوس الرجال والشبان
 وما ينجره هذا من الفساد ، يديحون للشاعر أن يقول ما يشاء ما داموا يجدون
 في قوله لذة فنية ، بغض النظر عما يترتب عليه من وخيم العواقب .
 ومن غزل الرصافي في المذكر أبيات معدودة ، نظمها في مقطعاته منها
 مقطعته « وجه نعيم » وفيها يقول :
 أسبغ الله نعيم الـ حسن في وجه نعيم

قر أغنى في الإله مراق عن ليل بهم
علم الناس صحيح الـ حب بالطرف السقيم
يرجع السحر بعينه إلى عهد الكليم
وفي مقطعة (عند لعبة اليلارد) ترى هذا الغرض في وصف جماعة
يزاولون هذه اللعبة :

يدحرجهن أغلّة ظراف نسيت بهم مغازلة الإناث
بأيديهم عصي مشرعات مهياة لضرب واحتشاث
فكان إذا انحنى للضرب منهم غلام هاج شوقى وهوجاث
وربة ضربة لما تثنى ليضربها تثنى بانخساث
وكانت توبة لى عن مجون فعادت من هواه إلى انتكاث
فلست وقد تجدد لى غرام أبالى لوم السنة رثاث
فأنت ترى تصريحه بأثر هؤلاء الفتيان فى نفسه ، وترى ذكره لما كان قد
عزم عليه من التوب ، ثم ترى عودته بتأثير هؤلاء إلى ما تاب عنه ، فتجدد
غرامه ، وليس يبالى بعد ذلك أن يتناوله الناس بالقالة !

الفلسفيات

أشرنا فيما سبق إلى الرصافى الذى حاول أن يتفلسف، فخانه ظنه، وأشرنا
إلى قصائده التى أفرد لها بابا خاصا دعاه (الفلسفيات) .
ونشعر أننا لسنا فى حاجة إلى تعريف الفلسفة ولا الإشارة إلى مناحيها
وتاريخها ، واسكن حسبك أن تعرف أنها محاولة عقلية لتعليل الظواهر الكونية
والجدى استكناه حقيقته هذه الكونيات ، فموضوعها السكون بما يشتمل عليه .
ويحسن بنا أن نتناول كل قصيدة من القصائد المحدودة التى خصص لها
بابا لنعرف حظ الرصافى من الفلسفة .

فأولى هذه القصائد قصيدته (خواطر شاعر) ^(١) وفيها بين الشاعر شيئاً من الشكوك التي تساوره في صحة بعض السمعيات، وصرح أن الحياة قد أقامت أمام العقل أسداداً حالت بينه وبين معرفة الحقيقة، ويعترف الرصافي بعجزه ، وعجز الناس عن إدراك هذه المعميات ، فعلم الناس في كنهها نزر وقام الناس يستشفون ما وراء الستر ، فأبواب الحية والنفس .

وتناول الرصافي مسألة الحياة والموت ، وشوقه إلى الموت كشوقه إلى الفجر كما شبه به الموت غيره من الحكماء ، ويستبشر أن ترقى الأرواح فتعرج إلى السماء فتسكون بين الأنجم الزهر .

ويذكر الحياة الشعورية فيقول إن ما للحياة من الشعور لعجيب ، وإن العقل أعجب شأن من شئون الحياة ، فإنها بما لها من الشعور والعقل من المعميات ، وإن كل ما يشعر به الإنسان من شئون هذه الحياة يعجز عن توضيحه المنطق ويعيا عن وصفه اللسان ، إذا حاول التعبير نظماً أو نثراً .

وما كل مشعور به من شئونها قدير على إيضاحه المنطق الحر
ففي النفس ما أعيا العبارة كشفه وقصر عن تيسانه النظم والنثر
ويرجع هذا العجز إلى قصر اللغة ، وتحدد الألفاظ ، عن التعبير عن هذه المعاني التي يزخر بها العقل :

ويارب فكر حاك في صدر ناطق فضاق من النطق الفسيح به الصدر
ويارب معنى دق حتى تخاوصت إليه من الألفاظ أعينها الخزر
أرى اللفظ معدوداً فكيف أسومه كفاية معنى فاته العد والحصر
وأفق المعاني في التصور واسع يتيسر إذا ما طار في جوه الفكر
ولولا قصور في اللغى عن مرامنا لما كان في قول المجاز لنا عذر

ومن هذا ترى أن الرصافي قد احتج بحجة واهية ، فأرجع قصور فكره إلى تحدد اللغة وانحصار الألفاظ ، وهذا كما ترى عذر واه ضعيف ، لا يرتضيه الفلاسفة ، ولا المفكرون .



رواية دُمُويَا قد جَرَتْ في دِيَارِنَا بِجَانِبِهَا حَتَّى انْتَهَتْ فِي الْمَقَابِرِ
(الرصافي)

وانتقل من هذا إلى معنى آخر ، فأظهر استطاعة الشعر التعبير عن خفقات القلوب ، وعد منه سجع الحائث ، وحوم الفراشة على الزهر ، ودمعة

العاشق يشكو للوصل ما فعل الحجر ، ورنه الشكلى المفجعة بواحدما وترجيع المطرب وائتلاق السكواكب بجنح الدجى ، وهكذا ترى الشاعر قد ترك هذه المشكلات دون أن يزيع عنها سترها ، وسجل على نفسه وعلى غيره العجز والقصور عن إدراك هذه المعميات .

وقصيدته الثانية ^(١) (وجه ابن آدم) يشرح فيها دلالة الوجه وقسماته على ما يخفى القلب ، وما يحتاج في الصدر ، مهما حاول العقل إخفاء ما تسكن الصدور ثم يذكر ما تسبغه بعض الأعضاء على صاحبها من القسامة والوسامة :

والأنف فى وجه ابن آدم زينة فالوجه لولا أنفه متجهم
كالهذب فى شفر العيون فإنه لولاه تنشتر العيون وتسجم
وليس فى هذه القصيدة أكثر من هذه المعانى ، وخلاصتها قول الجاهلى :
ومهما تكن عند امرىء من خلقية وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقصيدته ^(٢) (ما وراء القبر) فيها شكواه من رمى الناس بالكفر كل من أطلق لفكره العنان ، وكل ما فى القصيدة ترديد للسمعيات ، ولقاؤه هذه السمعيات بالتساؤل والتشكك ، ولم يجب على أى سؤال من هذه الأسئلة جواباً صريحاً يرينا رأيه فى هذه المشكلات والأقوال والمعميات ومطلع القصيدة :

متى تطلق الأيام حرية الفكر فينشط فيها العقل من عقلة الأسر؟
ويصدع بكل بالحقيقة ناطقاً ويترك ما لم يدر منها لمن يدرى
أرانا إذا رمنا بيان حقيقة عزينا - معاذ الله - فيها الى الكفر

وسأل عن موت الجسد ، وحياة الروح ، وتساءل فى تشكك عن تعرفها على جسد صاحبها ، وهل تظل تذكره وهى فى السماء وهو حطام على وجه

(١) ديوان الرصافى صفحة ١٩٦

(٢) ديوان الرصافى صفحة ١٩٨

الغبراء؟ وتناول الأرض والسماء، فقال إن كانت أرضنا سماء لغيرنا، فهي مصير
لأرواح هذا الغير، وليس يقول جواباً قاطعاً، حتى نهتدى إلى ما يريد،
ولعلها فلسفة الشك التي تؤدي إلى اليقين، ولسكن أين هذا اليقين؟
ولقد سبق للرصافي في قصيدته الأولى أن عرض لمن يشبهون الحياة بالليل
والموت بالفجر فقال:

وقد قال بعض القوم إن حياتنا كليل وإن الفجر مطلع القبر
فإن كان هذا القول فيها حقيقة فيا شد ما قد شاقني ذلك الفجر
وروح الفتى بعد الردى إن يكن لها بقاء وحس فالحياة هي الخسر
وإن رقيت نحو السماء فخبذا إذا أصبحت مأوى لها الأنجم الزهر
وهو في هذه القصيدة يعيد هذا المعنى نفسه ويكرره، وفي كائنا القصيدتين
لم يوضح رأيه، قال:

لعل حياة المرء ليل ستنجلي غيا هبه من سكرة الموت بالفجر
فإن كان ذا حقاً فإن حياتنا كما قيل ستر، والردى كاشف الستر
وقد قيل إن الروح تبقى فهل لها عروج إلى الأعلى إلى الأنجم الزهر؟
وهل تعرف الجثمان بعد عروجها فتمكث منه في السماء على ذكر؟
ويظهر أن الرصافي قد رأى في هذه الأقوال شيئاً من الطرافة استهواه،
فأخذ يعرضها هذا العرض، ويكرر هذا التكرار، بأسلوب تجاهل العارف
ولكنه لم يفصح عن النكتة التي يرمى إليها، وهي أحق شيء بالبيان والإفصاح
وقصيدته (لو) ^(١) كلها تمنيات، وليس فيها شيء من الفلسفة، ولكنها
نقدات للأولين والآخرين، وفيها شيء من الشعر الاجتماعي كقوله:

لو يجعل الناس التعاون دأبهم لتمتعوا بسعادة العمران
لو أن أخلاق الرجال تهذب لتكشفت حجب عن النسوان

ومحبة الأوطان لولاها لما عرف الأنام عداوة الأوطان
ثم نظرة في السماء والنجوم، وعرض للهجرة والشمس والأرض، فيرى
أن هذه المجرة لا خير فيها، لأن هذه الأرض التي اقتطعت منها تغلى بالشر
ويعرض للثريا والعيوق والديبران ثم يختتم القصيدة بقوله :

لو لم يكن فزعا سهيل لم يبت في أفقه متتابع الخفقان
وهذا البيت بمعانيه وألفاظه هو بيت أبي العلاء :

وسهيل كوجنة الحب في اللو ن وقلب الحب في الخفقان
إذا استثنينا في بيت الرصافي فرع سهيل، وهو كما ترى من حسن التعليل
الذي يعرفه البديعيون، وليس فيه من الفلسفة قليل أو كثير

وقد عرضنا لقصيدته التي سماها «حقيقتي السلبية»^(١) حين عرضنا لبحث
حقيقة عقيدته^(٢) وهي تحوى طائفة من الأوهام والشكوك والإلحاد، وشيئا
من عيوب المجتمع أيضاً، وليس فيها سوى قوله :

ولا بمن يرى الأشياء تفنى بحيث تكون من عدم هواء
ولكن هن في جمع وفرق تبدل منهما صور البقاء

فهو يجري مع علماء الطبيعة الذين هامو بالمادة ودرسها، وانتهوا من ذلك
إلى القاعدة المعروفة «المادة لا تفنى ولا تستحدث». وهو رأى لما ينته الماديون
من البحث فيه. وقصيدة «حياة الوري»^(٣) كلها من باب الحكمة، أو الحقائق
المجردة التي يهتدى إليها نتيجة لإطالة النظر وكثرة التجربة، وليس فيها جديد من
المعاني والأفكار.

ثم قصيدة «حبذا النوم» وهي التي حيا بها صاحبة مجلة «الفجر» وفيها نظرة إلى

(١) ديوان الرصافي ٢٠١

(٢) في صفحة (٦٢) من هذا الكتاب.

(٣) صفحة ٢٠٢ من ديوان الرصافي

النوم وما يجدى من القوة والنشاط للجسوم المثقلة بتكاليف الحياة ، ومن انطلاق
النفس إلى عالم الأرواح والأشباح ، وعنده أن حاجة الجسم إلى النوم لا
تقل عن حاجة المصباح إلى الزيت ، وعرض للشبه بين الحى النائم ، وبين
الثاوى بين القبور ، وهكذا ترى القصيدة كلها عرضة لما يسبغ النوم على النائم
من الراحة ، وإطلاق روحه من عقلاها اتهم في أودية الخيال !

أما آخر هذه « الفلسفيات » فقصيدته التى سماها « بين الروح والجسد »
وفىها يذكر هذه الصلة الوثيقة بين الروح والجسد ، لاصلاح لأحدهما دون
صالح الآخر ، ومن هنا كان هذا الاتصال :

فلا جسد يقوم بغير روح ولا روح بلا جسد تقوم
ويدعوه هذا رأى إلى الشك فى بقاء الروح إذا أصاب الجسد البلى ،
وسطا عليه الموت ، وهى إن بقيت ، « وهذا ما لا يقبله عقله » فهى حياة دون
شعور ، ويرى بعد ذلك أن مادة الروح هى المادة التى نبت منها الجسد
وهى الغبراء :

ولست أظن أن الروح تبقى إذا محيت من الجسد الرسوم
وربما يكون لها دوام ولكن غير شاعرة تدوم
وما هبطت من الخضراء لكن من الغبراء أنبتها الحكيم
ثم انتقل إلى أثر الطعام والشراب وألوانهما فى النمو الجسمانى ، وفى توليد
الحرارة ، والاقتدار على الحركة ، وكل هذه الأقوال ليست له وإنما هى
لعلباء الفلسفة !

وبعد أن عرض لما تقوى به وتنشط الجسوم ، عرض كذلك لما ينمى
المشاعر والحلوم من الأنغام الشجية ، وطول تطلعها إلى الجمال ، ويستطرد إلى
ذكر الغناء والطرب ، ويبحث على الحرص عليهما ، فإن كل كريم طروب ، ولكنه
يحذر الشطط والإسراف ، ويدعو إلى التوسط والقصد .

هذه هي قصائده الفلسفية جميعا عرضنا لها هذا العرض لتعرف ما شتملت عليه من الأغراض ، وتقف على ما تضمنته من المعاني ، لتستخلص منها بعد ذلك ما تستطيع ، وأكبر الظن أنك لن ترى فيها رأيا جديداً للرصافي يصح أن يضاف إلى آراء الفلاسفة القدامى والمحدثين .

ولسنا ندري ما جر الرصافي إلى هذا المضيق الوعر؟ أترأه كان يرى الشاعر لا تسكتمل شاعريته إلا إذا عد في المتفلسفين؟ إن هذا القول لم يعد مسوغ له في عصرنا الحاضر ، فإن نظرة المحدثين إلى الشعر فنا من الفنون الجميلة ، لتتفى هذه النظرات الفلسفية التي يشحذ فيها العقل ، ويتعلق بالعلوم التي تعنى بالحقائق ، دون هذا الفن الشعري الذي ينفر من التعلق بحبال الفكر والتأمل إلى الصور الخيالية البارعة ، لأنه يخاطب القلوب والمشاعر والعواطف، فيكون لها غذاء ورياء ، خلاف العلم الذي يخاطب الرموس والقوى المفكرة .

المدح

أما مدح الرصافي فقليلة في ديوانه وقد أوردنا لك نموذجا لها (١) . والذي يخيّل إلينا أن شعر المديح عند الرصافي كان وليد المناسبة ، فقلبا خلصت قصيدة فيه ، وإنما أكثر شعره فيه تجده قد شيب بشكوى الزمان ، وتنكر الخلاء وقسوة الدهر ، يرفع هذه الشكاة تحمل هذه المعاني ، وفي ثناياها ترى المديح إلى من توسم فيه الخير ، والعون على صروف الدهر ، اقرأ له قصيدته (إلى غرة آل سعدون) يبدوها بالمديح ، ليصل إلى غرضه الأصلي :

أعبد المحسن السعدون إني أراك مناط أسباب الرجاء
وأبصر من فعالك بدرتم يلائم من فخارك في سماء

(١) ارجع إلى صفحة ١٠٣ من هذا الكتاب لترى ما مدح به فخامة:
(نوري السعيد)

لذلك قد أتيت إليك أشكو رثاثة بزقي وبلى كسائي
ويأخذ في هذه الشكوى في أبيات كثيرة إلى أن يعاود المديح مرة ثانية
فينعته بمزاياه الجملة ، وكبر نفسه ، وعلو همته ، وبشاشة وجهه ، وأصالته
رأيه ، واتقاد ذكائه ، وصراحته ، وعذوبة شمائله ، ومروءته وحيائه .

شكوت إلى قتي جم المزايا كبير النفس منفرد السناء
قتي يوليك عند البؤس خيرا ولا ينسأك في حال الرخاء
رحيب الباع مؤتلق الحيا أصيل الرأي وقاد الذكاء
صريح في مقاصده إذا ما أسر القوم حسوا في ارتقاء
زكت أخلاقه فصفت ورقته فبن لكل مكرمة وراء
يلاقى الزائرين ببشر وجه تجلجل بالمروءة والحياء

ولقد أجازاه عبد المحسن السعدون بمبلغ كبير من المال ، أذهب عسره
وقضى على شكاته ، ويظهر أنه كانت بين السعدون وبين الرصافي قطيعة ،
فتحول إلى مدحة سرى كريم هو (عبد اللطيف باشا المنديل) أحد كرام البصرة
يمدحه ويشكو إليه ، ما كان يشكوه إلى السعدون ، فمدحه بأكثر من قصيدة
ومن قوله فيه :

أبا ماجد إني رأيتك مبصراً خفايا أمور أعجزت كل مبصر
إذا خفيت يوماً عليك حقيقة نظرت إليها من ذكاء بمجهر
وإن ليلة الخطب ادلهمت لكشفها بأوضح صبح من فعالك مسفر
وتلك مزايا فيك أعلمت الورى بأن بنى (المنديل) أكرم معشر

وينكر عليه بعد ذلك أن يكون الموصوف بأصالة الرأي ، وصدق النظر ،
ثم لا يفتن إلى ما يعاني الرصافي من قلة ذات اليد ، ومن رقة الحال ، ويقف
الرصافي بين نفسه الآية ، وحاجته الملحة ، وأن إباءه هو الذي أورده هذا
المورد ، فلورضى لنفسه ذلها ، لتدفقت الأموال عليه ، ولأنى إليه على غير

هذه الصورة ، بل لآتي يسحب فضل إزاره ، ويذكر السعدون وحيولة
القضاء المقدر بينه وبين جزيل عطائه ، وأن المديح إن كان يباع لكان له
(المنديل) خير مشتر :

فهل خفيت حالي عليك وقد بدا لكل صديق أنها حال مقتر
أتيتك من بغداد لم أدر ما الذي أتى بي إلا أتى في تحير
وأحمل في جنبي نفساً غنية وإن شقيت مني بجثمان معسر
ولو كنت في بغداد أَرْضَى بِذَلَّة لما جئت إلا ساحبا فضل مئزرى
ولسكني قد عفت أن أَرْد الغنى ونفسي في قيد من الذل مفقر
وما عدل السعدون بي عن وفائه ولسكن جري مجرى القضاء المقدر
ولو أتى بعت الثناء بنائل لما رضيت نفسي بغيرك مشتر
وإن حديثي عنك غير مرجم وإن مقالتي فيك غير مزور
وهكذا ترى الرصافي يمدح من يسدى إليه فضلا ، أو يمد يداً أو يأمل
عطائه ، وله من هذا اللون مدائح للسيد (مظهر الشاوى) الذى حنا عليه أيام
فاقته ، وأثقله بعطائه أيام محنته ، وهو الذى كان يتبع المنّة بالمنّة ، أرسل إليه
مرة مائة دينار حين عرف أنه يعانى ضنك العيش مع أنه (أى الشاوى) كان
معتقلا فى العماره ، وأرسل إليه فى مرة أخرى كسوة كاملة بجميع متعلقاتها
حتى المناديل فأرسل إليه الرصافي بهذه الأبيات :

إليك يا (مظهر الشاوى) مغلغة فيها الشناء لكم كالدر فى الصدف
تأتيتك تحمل إجلالا وتكرمة من شاعر شاكر بالصدق متصف
ما إن تفوه عن كذب ولا ملق ولا تمدح عن عجب ولا صلف
يا خير ذى نسب بالنبل منتجر بالمجد مؤثر بالفخر ملتحف
أهديت لى حلة غيظ الحسود لها لأنها تحفة من أنفس التحف
فرحت أرفل فيها وهى ضافية وأنت ترفل فى الضافي من الشرف

وصار عيشي بما أوليتني رغدا وكان من قبل رهن البؤس والشظف
يا ابن الذين أقاموا في موطنهم للمجد صرحاً منيفاً على الشرف
قد خلفوك لعالي مجدهم خلفاً لله درك ما أذكاك من خلف !
لازلت موئل ذاك المجد تحفظه مما يؤول به للهلك والتلف
ولا ترى فيما سقناه إليك من المدح جديداً عما خلفه لنا القديما والمحدثون
لأن أسباب الشرف معدودة ، والآثر محدودة ، والحمد تعارف عليها الناس
من توقد الذهن ، وإجابة الصريح ، والإسراع إلى ميدان الوغى ، والوجود
وغير أولئك من الفضائل المعروفة ، والشيم الماثورة .

ولقد سلك المديح في هذه النهضة الحاضرة ، مسلكاً جديداً . فاتجه إلى
غاية أخرى هي الغاية العامة لا الخاصة التي تستهدف المنفعة الذاتية ، فنفر
المحدثون المعاصرون عن مدح أفراد ابتغاء ثوابهم ، إلى مجد أبطال وضعوا
لبنة في أساس نهضة أممهم ، وقادوها إلى المجد ، وخففوا من الأعباء التي يروح
تحت ثقلها أبناء بلادهم . ولعلك عرفت أن الرصافي لم يقصر أيضاً في هذه
الناحية فمدح الملوك والقادة والأبطال ، أدوا لأوطانهم ما يجب عليهم تجاهها
وقد سقنا أمثلة لذلك في شعره الاجتماعي ، وشعره السياسي .

الرثاء

ويختلف رثاء الرصافي كثيراً عن مدحه ، فهنا تنطلق روح الشاعر على
سجيته ، فيتدفق تدفق الآتي في غير ما تكلف أو استجداء ، ولا مواربة ولا
رياء ، فلا رغبة ولا رهبة ، بل هناك التقدير والإنصاف ، حتى لمن جحدتهم
في حياتهم ، وحينئذ تنفجر ينابيع شاعريته

ولقد كانت مرثي الرصافي أصدق تمثيلاً لروح العصر من مدائحه ، فإن
فيها شمولاً لذرى المواهب ، ومن أسدوا الخير في أية ناحية من نواحي الخير

رثى الملوك والأمراء ، وبكى العلماء والأدباء ، ونعى الوطنيين الأفاضل ،
والمصلحين الاجتماعيين ، وبهذا اتسعت دائرة رثائه ، فشملت العراق والشام
والفلسطين والمصرى والتركي من أقطاب العلم والسياسة في شتى الأمصار ،
وفيها الوفاء كل الوفاء لمن مدوا إليه يد الأخوة والمصافاة .

ومن أصدق رثائه ، وأكثره جوى ولوعة ، مارثى به صديقه (الشيخ محيى
الدين الخياط) ، ويبتدىء الرصاص فى هذه المرثية ، بنظرة فى طبيعة الحياة ، واكتناها
وعدم اهتدائه إلى معرفة أسرارها ، إلى أن بداله قبس من نور طرب له
وسرعان ما انطفأ هذا اللهب ، وخمدت هذه الجذوة ، فعاد إل التخبط فى
الحلك ، يقول فى مطلعها :

تفكرت فى كنه الحياة فلم أكن لأزداد إلا حيرة فى تفكرى
وكم بت فيها أخبط الليل راميا إليها بلحظ الطارق المتور
فلا أهتدى من أمرها لمقدم ولا أنتهى من أمرها لمؤخر
وبعد هذه النظرة والحيرة يدخل فيما رمى إليه من التوجع للصدمة ،
والتفجع لحوال المصيبة فى صديقه ، فيقول :

عليك العفا بيروت هل لك بعدما قضى فيك (محيى الدين) من متبصر
فقى كان ركنافيك للعلم والحجى وغر القوافى والكلام المحبر
فقدنا به صلت الجبين مهذبا كريم سجايا النفس عفا المؤزر
لقد عاش شيخا فى العلوم مقدما فما ضره أن مات غير معمر
وفى أسلوب قصصى يرثى الصدر الأعظم (محمود شوكت باشا) الذى اغتاله
أحد أعدائه السياسيين ، فيتصور خياله ، ويناجى روحه فى قصيدة أولها :
لقد بت مطروف النواظر بالسهد تقابنى فوق الفراش يد الوجد
تساورنى رقصاء من لاعج الجوى ويقدح فى قلبى الأسى وارى الزند
ويصف طول الليل ، وما يجر إليه من الويلات ، وما يثير فى نفسه من
لواعج الأسى :

فأرقب تغوير النجوم بمقلة ترقق فيها الدمع منقبط العقد
أقول وفرع الليل أسحج والأسى يدب ديب السم في العظم والجلد
متى يسفر الصبح الذى أنا راقب أليس قميص الليل عنه بمنقذ؟

وأنت ترى أن معانيه فى كل هذه الآيات جاهلية انتزعها من وصفوا
الليل وأهواله ، ومن ساورتهم الهموم والأحزان ، كأمريء القيس ، والنابغة
الذبياني ، ثم يأخذ الشاعر فى تصور ما أجراه على لسان (شوكت باشا) من حبه
لبلاد العروبة ، وما كان يرجوه لها من الخير والرفاهية ، ويبرئه من ظلم الناس
وسوء فهمهم لما كان ينتوى من إنصاف العرب ، وتحقيق حريتهم ،
وبهذا جنح الشاعر إلى شيء من الشعر السياسى ، ليزيل الحفاظ التى كانت
كامنة إذ ذاك فى صدور العرب ، فنصب الرصافى نفسه مدافعا عن الرجل ،
وقد كان من رجاله المقربين ، ومن سعدوا ببلقائه ، وجزيل عطائه ، أيام
إقامة الرصافى فى تركيا ، وصحبة الجيش الزاحف إلى الآستانة للقضاء على
حركات الرجعيين .

ويفيق من هذه الصورة القصصية البديعة إلى البكاء والرناء :

سأبكى وأستبكى الجيوش على قى فقدناه فقد الغيث فى الزمن الصلد
قى كان فى أفق الوزارة كوكبا به فى دجى الخطب الخلافة تستهدى
وقد كان فى وجه الخطوب تبسما إذا عبست يوماً بأوجها الربد

وفى ديوان الرصافى مرثيتان رائعتان ، رثى بهما أستاذه وشيخه (السيد محمود
شكرى الألوسى) أولاهما عنوانها « واشيخاه » وعنوان الثانية « فى موقف
الأسى » وفيهما تقرأ روعة الخطب ، ولوعة البث ، والإشادة بعلم الرجل
وفضله ، وكمال نفسه ، وسمو روحه ، حتى دهى خطبه مصر والبلد الحرام
والعراق حيث أصبح الرافدان فيه سطرين للدمع فى خديه قد سالاه وقد
عرضنا لشيء من أولى القصيدتين فى وفاء الرجل لأساتذته ، أما الثانية ففيها

الفرق على تعطال أودية العلم ، وأندية الأدب ، بفقد علمهما الخفاق ، والرصافي في هذه القصيدة يدخل في الغرض الأصلي دون مقدمة فيقول :

لمن تركت فنون العلم والأدب ؟ أما خشيت عليها من يد العطب ؟
تلك المدارس قد أوحشتها فغدت خلوا من الدرس والطلاب والسكتب
ما إن تركت لها في العلم من وطر ولا لمتابها في الدرس من أرب
ويصف طرب (أبي الثناء محمود) للقاء حفيده في عالم الخلود ؛ في هذه الضجعة المريحة ، بعد طول الجهاد ، وحسن البلاء في تحصيل العلم وتعليمه .

إن الألو سي محموداً عرته لدن لاقاك محمود شكرى خفة الطرب
فاهتز لابن أب في قبره وغدا يبدى الحفاوة خير ابن خير أب
بحرين في العلم عجاجين قد ثويا فانصب مضطرب في جنب مضطرب
من فخر أزماننا في العلم أنهما علامتا هذه الأزمان والحقب
وهو في هذه الأبيات يشير إلى الألو سيين النابغتين أبي الثناء شهاب الدين ومحمود شكرى ، ثم ينتقل إلى أثر الفجعة في بلاد العروبة ، حتى ليحسها أبناءها في مختلف ديارهم .

ولم يخص الأسى دارا نعت بها بل عم مبتعدا من بعد مقرب
من (العراق) إلى (نجد) إلى (يمن) إلى (الحجاز) إلى (مصر) إلى (حلب)
ولقد كان من حق الألو سي على الرصافي ، ومن واجب الرصافي نحو الألو سي ، أن يأسى عليه هذا الأسى ، ويستشعر الحزن في حنايا ضلوعه ، وفيما جاوزه من الرجال والأوطان ، ولقد سبق لك أن عرفت صلة الباكي بالمبكي ، وفضله عليه ، فهو الذي أورده حياض العلم والمعرفة ، وأكرم مشواه ، ورعاه وسماه . وليست هذه المراثي إلا تقديرا للجميل ، واعترافا بالفضل لمسديه ، ولهذا تعد مراثياته فيه من أجود مراثيه .

وله عدا ما ذكرنا كثير من المراثي الجيدة التي يذرف فيها الدموع على الخالدين من الرجال بأعمالهم الجليلة .

ونرى أن الرصافي في هذه الناحية من الرثاء ، قد قصر فنه على من يعرف فضائلهم ، ويقدر خدماتهم ومن أحس قلبه ، بهول المصيبة فيهم ، فحينئذ تجد مرارة الأسى ، وحرارة البكاء ، أما إذا أريد على الرثاء فإنك ان تستشعر هذا الألم يحسه الرصافي ، وحسبك دليلاً على هذا قصيدته « ذكرى الرجال من حياة الأمم » أنشدتها وقت إذ كان في القدس ؛ فطالب إليه أحد أصدقائه وهو « عادل أفندي جبر » أن ينشدهم في حفلة أقامها شبان فلسطين لتأبين « روجي بك الخالدي » يبدؤها بالحكم وبشيء من فلسفة الحياة والموت فيقول :

لعمرك لو كانت حديد أجسو منا لأبليت من كر الليالي مبارد
فكيف ولسنا بالحديد وإنما جوار حنا هذى الدماء الجواسد ؟
إذا ما افكرنا في الحياة وأصلها وغايتها هانت علينا الشدائد
وماذا عسى يجدي التوجع والأسى من الموت إذ كل على الموت وارد ؟

وبعد هذه النظرة ينتقل إلى الرثاء في أبيات قليلة ، كل معانيها مسبوقة إليها فهو رثاء صناعي كما ترى ، لا تجد فيه لدعة الألم ، ولا لوعة الأسى ، وإنما استجابة لداعي الواجب :

ومن تفن بعد الموت آثار مجده فأثار (روجي الخالدي) خوالده
ففي غمدت فيه المنون مهندا وأى حسام ماله الدهر غامد ؟
يعد بألف من رجال زمانه على أنه في الألفية واحد
لقد بقيت للخالدين بعده مناقب غر دونهم انراقده
وكم حبرت أقلامه من صحائف بجيد العلا من درهن قلائد
نماه إلى المجد الصراح متمما به فخره السيف الإلهي خالد

وهذه الأبيات الستة هي نصيب المرثي وحدها في هذه القصيدة الطويلة ، ويمنح الرصافي بعد ذلك إلى مالا علاقة له بالموضوع ، وهو الشاء ، يزجيه (لعادل جبر) الذي دعاه إلى مشاركة القوم في بكائهم أحد زعمائهم .

ولعلك عرفت موضع التقصير وسببه في هذه القصيدة وغيرها، عالم يدفع الرصافي إليه وجده وأساه على من رثاه . وهذا البيت في هذه القصيدة يدل على عدم معرفة الرصافي لروحي الخالدي .

وإني وإن لم أحظ منه برؤية ليشهد لي من « عادل » فيه شاهد وإن الثناء الذي حبا به داعيه إلى القول (عادل أفندي جبر) لا أكثر من الرثاء الذي بكى به الميت .

وكثيرا ما يلجأ الرصافي في مرثياته إلى تاريخ المرقى ، وإلى ذكر جهاده في الحياة ، وإلى موقف الناس منه ومن آرائه إن كان صاحب رأى ، ويقف الرصافي عنه موقف المحامي الوفي عن موكله ، كما قرأت فيما رثى به (محمود شوكت باشا) ، وكما تجد ذلك في قصيدة « هلم نبك » التي رثى بها (عطا أفندي الخطيب) فيذكر موته فجأة ، وهو أكثر ما يكون عافية :

قد فاجأته المنايا وهو معتدل كالرمح دق على الصفواء فانقصفا
ويذكر دعوته إلى الإصلاح ، ووقوف الحساد في طريق دعوته ، فأفسدوا عليه منهجه . حتى ناء بمعارضتهم ، وكان حزنه وكده هو الذي قضى عليه كما يذكر الرصافي ، ولكنه لم يبين هذه الدعة الإصلاحية التي كان الخطيب يدعو إليها :

قامت بحساده الأطماع هائجة لما رأوه مجدا يطلب الترفا
فعارضوه بسيل من مكايدهم قد سالوا كنسح الآمال واجترفا
وعرقلوا بدعائهم مساعيه ومددوا من دواهم له كففا
فظل يرسف في مسعاه مرتطما فيما يكيدون حتى خالط التلفا
حتى قضى راسبا في مكرهم غرقا إذ عطل الموت منه الكف والكتفا
ومثل ذلك قصيدته « ميتة البطل الأكبر » وهي التي أنشدها في دار المرحوم عبد المحسن السعدون في اليوم الثالث من انتحاره إذ يعرض لهذا الانتحار فيدفع عن هذا البطل تهمة الخرو والضعف، وجعل انتحاره شرفا له وسرخلود :

هكذا يدرك في الدنيا الكمال هكذا في موتها تحيا الرجال
هكذا يشرف موت المبتغى شرفا ليس إذا ريم ينال
من كعبد المحسن الشهم الذي حقه بالموت عز وجلال
ما بعبد المحسن السعدون إذ رام قتل النفس مس وخبال
وهكذا يدفع الرصافي عنه المس والخبال ، بما استطاع من الأسباب التي
أوردها ، ولقد جهد الرصافي في نفي ذلك عنه ، إكبارا للرجل ، وتقديرا لفضله
ووطنيته ، فهي التي أوردته هذا المورد ، وما كان انتحار السياسي ذي الرأي الأصيل
والعقيدة الوطنية ، ليبره الساسة والعلماء في أي عصر من العصور ، والرصافي
نفسه هو من لا يقر هذا الانتحار ، ولا يرضاه لإنسان وهو القائل ،
أشر فعل البرايا فعل منتحر وأخش القول منهم قول مفتخر
وإن كان عبد المحسن السعدون من لا يشك أحد في صدق وفائه لوطنه :
وتفانيه في جانب الخير له ما وسعه ذلك ، وليس يضيره أن أخفق في مسعاه
ولكن الرصافي يكبر من هذا الانتحار ، ويعرض لسببه فيما يأتي :

أعمل الرأي وقد جاد له فيه بعض القوم واشتد الجدل
خسألوه فاغتست آراؤه كسهم كسرت منها النصال
كم غدا ينصحهم حتى إذا راء أن الداء في القوم عضال
ورأى أن الذي يرجوه من طلب استقلالهم شيء محال
ويجعل هذا الدم الزاكي غالبا إلا على الوطن ؛ فاتحاره لا يقل شرفا
عن مصرع الجندي في ساحة الوغى :

جاد للأوطان منه بدم لسوى أوطانه ليس يسال
والفتى الحر له في موته سعة إن ضاق بالنفس المجال
هذه قصيدته الأولى في رثاء الرجل ، وإن له لقصيدة أخرى فيها
القوة كل القوة ، وعنوانها (ميتة البطل الأكبر) وقد تنوعت مناحيها ،

وتعددت جوانبها ، ولما سكنها رغم هذا لم تفقد ما تعارف عليه المتأدبون في هذا العصر من (وحدة الموضوع) . بدأها الرصافي بمنظر الرافدين ، وقد نعى إلى أهلها البطل الأكبر :

شب الأسى في قلوب الشعب مستعرا يوم ابن سعدون عبد المحسن انتحرا
يوم به كل عين غير مبصرة إذ كان إنسانها في الدمع منغمرا
يوم به البرق رج الرافدين أسى غداة أدى إلى أقصاهما الخبرا
فلو ترى القوم قاموا في ضفافهما واستنزفوا من شؤون الدمع ما غزرا
خلت العراقيين خدى ناكل وهما سطران للدمع في الخدين قد سطر
ويعرض لتدفق الشعر من أفواه الشعراء رثاء لهذا البطل ، وسيل الدموع حزنا عليه وأسى ، ويوازن الشاعر أبدع موازنة بين الشعر والدمع وسباقهما على توفية الرجل حقه من البكاء :

يوم قد انهل فيه الشعر منتظما كما قد انهل فيه الدمع منتثرا
فبالدموع بكيت في يومه شيع وبالقوافي بكيت في يومه الشعرا
فالشعر قد قرط الاسماع مندققا والدمع قد قرح الأجفان منحدرا
إلى أن يقول :

فالشعر من هذه الأكباد بل صدى والدمع من هذه الأوطان بل ثرى
ويدخل في مديح السعدون ويصفه بقوة العزيمة وعظم حيلته
وقوة شكيمة بحيث يعجز الرجال عن مصارلته ، والأبطال عن مطاولته
وقد أعمل الرأى والحيلة ، ما وسعه الرأى والحيلة في خدمة وطنه ، وتخليصه من نفوذ العدو ، والشعب يرقب في صبر ما يأتي من النصر على يد البطل الخالص حتى إذا أعجزه الهدف قتل نفسه :

حتى إذا لم يجد الأمر متسعا ولم يجد عن بلوغ الأمر مصطبرا
أرمى مسدسه في صدره بيد لا تعرف الضعف في المرمى ولا الخورا

ولقد نبه هذا الانتحار الشعب من سيئاته ، وهداه إلى ما يبيت له أعداؤه من المكاييد ، وما يصرون عليه من بقاء السيطرة ، والتدخل في شؤنه فاستبان الأمر ، وبرح الحفاء وعرف القوم بانتحار السعدون طريقهم إلى الاستقلال ، بعد الحيرة والضلال :

كنا نقاسى ضلالا قبلها فإذا بها الطريق إلى استقلالنا ظهرا
ويفرد جزءاً من هذه القصيدة لخطاب الانجليز ، وهذا الجزء من أربع
شعر الرصافي في السياسة ، فيذكر حيل هؤلاء الأجانب التي لم تعد تخفى على
بدو ولا حضر ، وانتدابهم الذي أصبح جرحاً تعذر على المحنكين علاجه ،
وهذه المعاهدات التي تعقد والقوم يعرفون ما ترمى إليه ، وما يخشاه المخلصون
منها ، ويحذر الانجليز الاستهانة بالعراق ورجاله لضعف قوته ، فرب صغير
جر حنفاً لكبير :

لا تستهينوا بنا في ضعف قوتنا فكم ذبابة غاب أزجحت نمرا
وحثمهم بعد ذلك على استدامة محبة العراق ووده ، بتحقيق آماله في الحرية
والاستقلال :

هذي البلاد اغرسوا فيها مودتكم ثم اقطفوا من جناها ودنا ثمرها
نكن لكم حلف صدق في سياستكم نمشي إلى الموت من جرائكم زمراً
لسنا بقوم إذا ما عاهدوا نكثوا ولو جرى الدم حتى أشبه النهر
وقد تعجب أشد العجب لهذا القول يصدر عن الرصافي ، من إظهار
استعداد بلاده للولاء والنصرة ، وهو الذي ناصبهم العداء منذ انتهى الحكم
العثماني وسقطت بغداد في أيديهم ، ولعل قوله « نمشي إلى الموت من جرائكم
زمراً » أعجوبة الأعاجيب ، وآية التناقض وتبدل الرأي عند الرصافي .

ويوازن الرصافي بعد هذا بين عبد المحسن السعدون زعيم العراق وسعد
زغلول زعيم مصر ، فيعرض لما أسداه كل من الرجلين لأمته ، وما ضحى
به في سبيلها من راحتها ، فينتعها بما بأجل النعوت ، ويقصر عليهما زعامته الشرق

الشكوى

وللرصافي شعر في الشكوى ذكرنا لك طرفا منه ، وعللنا له بما قاسى الرجل
من ألوان الحرمان ، وما منى به من الإسراف الشديد ، وعدم الإبقاء على مال
تصل إليه يده ، وهو في هذا الفن يحاكي كثيرا من شعراء العصر الحديث
كحافظ إبراهيم ، والبارودي ، ومن قول الرصافي يصف رثاءة بزته ، وبلى لباسه
حتى ليستحي أن يخرج به في وضع النهار ، وذلك من القصيدة التي وجهها إلى
غرة آل السعدون ، قال :

لذلك قد أتيت إليك أشكو رثاءة بزتي وبلى كسائي
فقد رقت ثيابي اليوم حتى تكاد تذوب من مس الهواء
غدت شفاقة حتى كائن لبست بهن أثوب الرياء
إلى أن يقول وهو من أحسن الاستعارات ، وأجود التشبيهات :
لبست قرار يتي في نهاري ولم أخلعه إلا في المساء
فإن جاء المساء لبست منه ظلاما ماتمزق بالضياء
وصرت أجول كالحفاش ليلا وألجأ في النهار إلى الضراء
وقد وردت هذه الشكاة في معرض المديح ، وله غيرها كثير في تنكير
الخلصاء ، وإنكار البيئة ما يراه لنفسه من المنزلة.

الفخر

وإذ كانت الأقوال متضاربة في معرفة الأسرة التي ينتمي إليها الشاعر في
بيوتات العراق ، فلم يؤثر عنه فخر في هذه الناحية ، فلم يذكر أباه من قريب
أو بعيد ، وكذلك أمه ، ولا الأسرة التي ينتمي إليها ولعل ضعف هذه الأسرة
وقلة ذكرها ، هو الذي جعله يغفل هذه الناحية إغفالا تاما ، وهو في هذا

يشبه المتنبي شبهها قويا ، وإن كان هنالك ما يشبه الإجماع على معرفة أسرة أبي الطيب المتنبي ، وإن أبدى بعض العلماء المعاصرين شيئا من الشك في صحة نسبة الرجل إلى أبيه . أما الرصافي فإن المتشككين في صحة نسبه أكثر من الجازمين به ، ومن هنا كان اعتداد المتنبي بنفسه ، وبهمته وشجاعته وشعره ، وجعل كل أولئك سبب فخر لقومه الذين سموا به ولم يسم بهم ، أما الرصافي فلا يعرض لهذه الجهة من قريب أو بعيد ، بل إن له من الشعر ما نستطيع أن نقول إنه يكاد يقر به هؤلاء الشاكين في نسبه كقوله :

قالوا : ابن من أنت يا هذا؟ فقلت لهم أنى امرؤ جده الأعلى أبو البشر
قالوا : فهل نال مجدا؟ قلت : واعجبى أتسألونى بمجد ليس من ثمرى ؟
فهو يقول إن أباه الذى لم يسمه ينتسب إلى أبي البشر آدم ، هذا كل ما يصرح به وقد عرفت أن الرجل لم يذكر شيئا عن نسبه الخاصة خلاصاته !
ولو كان هذا الأصل ذا خطر ، وذلك ما لم يكن ، لوجدنا لمعروف به فخرا ، وهو الذى عالج جميع الفنون الشعرية ، وما ترفع عن فن الفخر شعراء العربية فى سائر أعصرها ، فإن المباهاة بشرف النجار ، وكرم المختد سليقة العربى فى كل زمان وفى كل مكان ، ما ترفع عنه السادة ولا الصعاليك ، وليس ارتياح الممدوحين للثناء ، وطربهم للهديج ، سوى مظهر لهذه الرغبة فى ذيوخ محامدهم ، والولوع بانتشار فضائلهم ، وفى هذا ما يشفى غلتهم إذا استحووا من المباهاة ، وعجزوا عن المفاخرة .

على أن معروفاً وإن أعلن هذه الرغبة عن الفخر وأنكر على المفاخرين فخارهم ، وعده أفحش القول فى بعض شعره كقوله :

أشر فعل البرايا فعل منتحر وأفحش القول منهم قول مفتخر

لا يستطيع وهو الشاعر الفحل أن يغضى عن علاج هذا الفن ، ففخر بمواهبه وشاعريته فخرا ليس وراءه فخر لمفتخر ، فهو شاعر العرب المجيد ،

الذى حلّ جيد الدنيا بعقود شعره ، ولو فرع به يوما العبيد لخلعوا ربة العبودية
من أعناقهم ، ولو استنهض به الجبناء لاقتحموا الأهوال ، شجعانا وأبطالا ،
وهو الذى يحلو للقوم سماعه ، ويصرون على استعادته ، ولو أعيد ألف مرة
بهذه الأوصاف وغيرها وصف معروف شعره :

إذا أنشدته الحسناء تاهت كأن قرطتها درا فريدا
وأنت إذا قرعت به عبيدا رددت إلى الحرار به العبيدا
ولو تستنهض الجبناء يوما به لتقحموا الهيجا أسودا
ولو كررته للقوم ألفا لأقسم سامعوه بأن تعيدا
وكم تهتز أعطاف المعالي إذا ما قلت قافية شرودا

وهكذا تراه لم يترك فخرا لمفتخر بما وهب من هذه المملكة الشعرية البارعة
وله من هذا اللون من الفخر بشعره كثير ، منه قصيدته التى عنوانها « فى سبيل
حرية الفكر » ^(١) ومنه قصيدته « سياسة لا حماسة » ، وفيها يزهو أشد الزهو
حتى لكأن الشعر هو الذى يلتمس ابتكاره ، وهو ليس فى افتقار إليه ، وأن
القوافي تمثل بين يد معتذرة وقد أساست له قيادها ، وأنها فى أسره وخدمته ،
فتصرف فيها تصرف المالك المقتدر وغير هذه المعانى التى تجدها فى قوله :

الشعر مفتقر منى لمبتكر ولست للشعر فى حال بمفتقر
دعوت غر القوافي وهى شاردة فأقبلت وهى تمشى مشى معتذر
وسلستنى عن طوع مقادتها فرحت فيهن أجرى جرى مقتدر
إذا أقيمت أقامت وهى من خدمى وأينما سرت سارت تقتفى أثرى
صرفت فيهن أقلامي ورحلت بها أعرف الناس سحر السمع والبصر
ملك من رقة رق النفوس هوى من حيث أطربن حتى قاسى الحجر

(١) ديوان الرصافي ص ٩٧ وقد أنشدتها فى حفلة منتدى التهذيب فى

سقيتهن المعاني فارتوين بها وكن فيها مكان الماء في الثمر
 كم تشرب لها الأسماك مصغية إذا تنو شدن بين البدو والحضر
 وفي قصيدته « في المعهد للعلمي » ^(١) يزهو به كذلك ويعلو ويبعد حتى يجاوز
 النجم علواً وبعداً وحتى يفوق الدر صفاء وقدرًا :

فللنجم بعد دون ما أنا ناشد وللدر قدر دون ما أنا منشد
 وفي قصيدته « على البسفور » ^(٢) يلخص العلا في بعض شعره :
 فيا شعراء القوم كفوا وغماكم فشرح العلا في بعض شعري ملخص
 دعوا كشف مكنون الصدور لفطنتي فإني بذات من دونكم متخصص
 ذكاه لو اجتزت الجدار بشورة لشف لعيني الجدار المحصص
 وإذا نحن تجاوزنا هذه المفخرة للشاعر ، وحسبه هي من مفخرة ، فلدينا
 لون آخر من فخر الرصافي تجاوز به حدود الفخر ، فعمد إلى التكلف والمبالغة
 غير المقبولة ، ولعل الشاعر قد ساق هذا الفخر في سياق تبرمه بالزمان ، وفعله به
 فهو يعلن عدم اكترائه بحدثائه ، ونائباته ، وعبث الدهر ، ولا يتبرم بما يرميه
 به من السهام بين حين وحين إلى أن يقول مخاطباً الدهر :

بل أنت أحقر عندي من أن تجود وتجدي
 إني وإن كنت أشقى بأوجه منك ربد
 ربأت عنك بذمي كما ربأت بحمدي
 ويزعم أن الدهر ليس كفواً له ، ولن يرتضيه خادماً إن عرض عليه
 خدمته فيقول :

إذ لست أنت بكفوى ولست أنت بندي
 لو كنت يا دهر حراً وجئت تخدم عندي

(١) صفحة ٩٠ من ديوان الرصافي (٢) ٢٢٧ من الديوان

لما ارتضيتك عبداً ولا خويدم عبداً !
وكيف أرضاك عبداً؟ وأنت أوغد وغد؟

وهذا منتهى الإسراف في المبالغة ، والرصافي هنا ينحو في هذا التعالي
منحى ابن سناء الملك المصرى (المتوفى سنة ٦٠٨ هـ) الذى يعدنفره من المبالغات
المعمقة، ومثلاً لهذا الإسراف البغيض الذى لجأ إليه الشعراء أيام فقد الملك
الأصيلة فى عصور تزدى الأدب والأدباء فى الغلو واختراع الكذب . حيث
يقول فى داليته المشهورة :

ولو مد نحوى حادث الدهر كفه لحدثت نفسى أن أمدله يدا
وإنك عسدى يا زمان وإنتى على الرغم منى أن أرى لك سيدا ١

الهجاء

وللرصافي هجاء ، أثبت منه فى ديوانه قدراً يسيراً ، ولعله اجتزأ منه
بهذا القدر البعيد عن الإقذاع والفحش ، وأكثر هجوه لمن عاب شعره ،
وهو جد حريص على ألا ينال منه عدو نبلا ، وهذه سمة كثير من شعراء
العصر الحديث ، الذين كانوا يفرقون ، إذا ما عاب شعرهم عائب ، ولم يبرأ
من الفرق من النقد حتى أعلام الشعر كشوقي وحافظ وغيرهما ، الذين كانت
نفوسهم تطير شعاعاً إذا ما حاول واحد الغض من موهبتهم ، أو وجد ما خذا
فى أقوالهم ، ول هؤلاء عذرهم فيما ذهبوا إليه فهذا فهم الذى يعتزون به ، أو
هو ميزتهم التى تميزوا بها على غيرهم . وكانت منزلتهم فى الأمة التى ينتسبون
إليها على قدر هذه المالكه الشعرية .

ومن أهاجى الرصافي :

ركضوا بميدان التحاسد خيلهم وسبوا من الأعراض كل مباح

لبسوا النفاق لهم دروعا واغتدوا يتطاعنون من الخنا برماح
أضحوا كجاة وشاية وسعاية ومن الضغائن هم شكاة سلاح
وقال يهجو بعض من عدهم لئاما ، وهم يحسبون أنفسهم كراما :
قد يطفح اللؤم حتى إن صاحبه ينسى الحياء فيغدو يدعى الكرما
إن الجهالة إن كانت قذى بصر رأى الضلال هدى واستسمن الورما
ما للغواة ارعواء عن غوايتهم إن لم يك السيف يعلو منهم القمما
كم من أراذل أطغتها سفاهتها حتى ادعت وهي أذئاب لها الشمما
إن عدت الوحش ما كانت ولا بقرا أوعدت الطير ما كانت ولا رخما
وقال فيمن هجاه :

وذى سفه أكب على المخازى وما قبل النصيحة من نصيح
تروج المخزيات لديه حتى تباع إليه بالثن الريح
أطاف بغيه وأباح شتى وكان الشتم أجدر بالمبيح
وأغراه الضلال فكان منى كما كان اليهود من المسيح
وهو فى هذا البيت يقفو أبا الطيب فى قوله :

ما مقامى بارض نخلة إلا كقمقام المسيح بين اليهود
ثم يقول :

فمت فى نار غيظك مستشيطا فلسنت من الهجاء بمستريح
سأضرم فىك يالكع الأهاجى كنيران تشب تجاه ريح
تجمعت المخازى فىك حتى يعد الهجو فىك من المديح

المعاني

وَأَجُودُ الشَّعْرِ مَا يَكْسُوهُ قَائِلُهُ بُوْشَى ذَا الْعَصْرِ لَا الْخَالِي مِنَ الْعَصْرِ
لَا يَحْسُنُ الشَّعْرُ إِلَّا وَهُوَ مَبْتَكَّرٌ وَأَيُّ حَسَنِ اشْعَرٍ غَيْرِ مَبْتَكَّرٍ؟

(الرصافي)

إن الرصافي الذي عرف بثورته وتحلله من كثير مما تعارف عليه الناس ،
مما لا يتفق مع مبدئه وهواه من النظر السحيق إلى حقائق الأشياء ، دون
النظر إلى قشورها ، شاعر مجدد في طبيعة المجددين ، فهو شاعر الأصالة الذي
لا ينطق بغير رأيه ، ولا ينافق ولا يداجي ، ولقد عرفنا ما جنت عليه الصراحة ،
وما جر عليه اعتداده برأيه من صنوف الألم . وهو أحد أولئك الأفاضل
الذين خرجوا على الاستبداد في الحكم خروجهم على الاستبداد في نظم المجتمع
وقيوده ، فكان من الطبيعي أن يحاول تخليص شعره من أغلال التقليد ، وربقه
المحاكاة ، ليكون صورة لما يضطرم بين جنبيه من الغرام بالحرية والولوع بها .

وكما بدأت أمارات العصر تتضح علاماتها ، وتتميز شاراتها ، رأيت
معروفا أكثر صدوقا ، وأشد عزوفا عن هذا القديم ، وأصدق تمثيلا لهذه
العقلية العربية الآخذة بأسباب النهوض ، فليس الرصافي من يرى جودة القصيد
لا تتم إلا ببكاء الدمن والأطلال ، أو بافتتاح قصائده بالتغزل بليلي والرباب
أو وصف ابنة السكرم ، أو بث الهوى وتبريح الصباية ، وإنما ينفذ إلى الغرض
الذي يعالجه في قدرة عجيبة ، فيستقصي معانيه استقصاء ، في عذوبة واطراد

كاطراد الماء الجاري، وإذا أنت أمام قصيدة طويلة ، لاتحس فيها اللين ، الذى
يؤدى إليه الطول من استنزاف المعانى ، والرغبة فى التطويل خشية اتهامه
بالتقصير ، وإذا القصيدة كلها تعالج هذا الغرض الذى أراده الشاعر بلا حيد
عن القصد ، ولا استطراد إلى ما لا غناء فيه .

وهكذا ترى القصيدة وحدة كاملة ، قد برئت من تعدد الأغراض رغم
هذا الطول ، الذى يدل على الملمكة البارعة ، والاقتدار العجيب . والعجب
العجاب أن هذا الحكم لا يختص به بعض شعره دون بعض ، وإنما هو الحكم
الصادق الذى ينطبق على أكثر شعر الرصافى ، الذى وسعه ديوانه ، وما لم
يتسع له هذا الديوان الضخم ، ومن هنا يصعب على الباحث الاختيار والتمثيل
لهذه الحقيقة البارزة ! وحسبك أن تقرأ قصيدته « العالم شعر » لترى أغراضا
تبدو لأول وهلة متعددة ، ولكنك حين تنعم النظر تجدها ، وقد اتسقت
فنونها ، وجمعها هذا المعنى :

قرأت ، وما غير الطبيعة من سفر صحائف تحوى كل فن من الشعر
رغم أن عدة أبياتها تقارب الثمانين بيتا . وكذلك قصيدته « أم اليتيم »
و « السجن فى بغداد » و « المطلقة » و « اليتيم فى العيد » وهذه جميعا قصائد
متتابعة فى أغراض اجتماعية ، فيها ما قدمنا من القدرة الفائقة على « وحدة
الموضوع » وما أعجزه وزن ، ولا أعجزته قافية .

٢

وفى بعض قصائد قليلة إلى درجة الندرة تجد معروفا يجنح إلى قليل من التقليد
فيبدوها بالفخر ، وهو هذا الفخر الذى عرفت بشعره ، وترفعه وإبائه ، كما تجد
ذلك فى قصيدته التى يحى بها الذين نبضوا بتأسيس « المعهد العلمى » ومطلعها .
لعمرك إن الحر لا يتقيد ألا فليقل ما شاء فى المفند
إذا أنا قصدت القصيد فليس لى به غير تبيان الحقيقة مقصد
نشدت بشعرى مطالبا عز نيله وإن هان عند الشعر ما كنت أنشد

ثم يقول:

وما أنا إلا شاعر ذو لبانة أنوح بها حيناً وحيناً أغرد
ولى بين شدى الهريتين صارم يسلم على الأيام طوراً ويغمد
ثم يعرض لهذا الشاعر الذى عاب شعره، فيصفه بالسخف والتقليد
ولا غرابة بعد ذلك أن ينتقص الشاعر من لا يحيد الشعر كما انتقص بشاراً
حماد عجرد:

ولا عجب أن عابى الشاعر الذى يقول سخيف الشعر وهو مقلد
فإن ابن برد وهو أكبر شاعر تنقصه فى الشعر حماد عجرد
إلى أن يصل إلى الغرض الأصيل من تحية مؤسسى هذا المعهد، والإشادة
بمجهودهم وما يسبب للبلاد من نهضة وحضارة.

فأنت ترى بعد الفخر عن غرضه، ولعلها حالة ثورة جعلت الشاعر
يضيق بانتقاص حساده وجور نقاده، فجرى به القلم إلى هذا الذى سجله فى
مطلع القصيدة، ومع هذا التقديم الذى يعد تقليداً، لن تعدم ما تصل به
بين الغرضين، وهو لجوء هذه الجماعة إليه يستمدون من شعره تأييداً لهم
ويلتمسون به عوناً وتشجيعاً، فوصف شعره وفخر به.

ومثل ذلك قصيدته «فى القطار» وهى من أروع شعره الوصفى وقد عالجنها
قبل، تراه يبدؤها بالحنين إلى وطنه «وكان إذ ذاك فى الأستانة» ويذكر عدا
الدهر إياه وترفعه عن عتابه ويفخر بأنه شب على حب المكارم، وأنه أخو
العزمات التى تفل غرب السيوف، ومطالع هذه القصيدة:

تذكرت فى أوطانى الأهل والصحبا فأرسلت دمعاً فاض وابله سكبا
وبت طريد النوم اختلس السكرى بشاخص طرف فى الدجى يرقب الشبا
كشيب كأن الدهر لم يلق غيره عدواً فألى لن يهادنه حرباً
وإني إذا ما الدهر جر جريرة لتأنف نفسى أن أكله عتبا
ويستطرد إلى جملة من مفاخره، إلى أن يلج باب الغرض الأصيل، وهو

وصف القطار وقد عاجلنا هذا الغرض في وصفياته .

ومثل ذلك يقال في قصيدته التي مطلعها :

لمن الديار يلحن في الصحصاح لعبت بهن روامس الأرواح
عبثت بها أيدي البلى فتركنها في العين أخفى من دريس نصاح
ولقد وقفت بها المطى مسائلا شجرات واديهها وهن ضواخ
أقتاف آثارا هن دوارسأ كانت إليها غدوتي ورواحي

وفي هذه الأبيات وما بعدها ترى الرصافي غارقا في التقليد ، مما لا يحتاج معه إلى معاناة الرد إلى المأخذ ، فكلها معان جاهلية ، ولكن القصيدة كلها - رغم هذا التقليد - في المعنى تجمعها وحدة الغرض ، وهي ذكرى أحبابه الراحلين ومطارح لهُوه ومدارج عبثه .

ولا يعجز الرصافي أن يكون كأحد أولئك الشعراء القدماء في الوقوف على الأطلال الدوارس ، ومناجاة المنازل على أن ذلك قليل في شعره ومنه قصيدته التي مدح بها المرحوم أبا المعز السيد محمد القزويني العالم المشهور يبدوها ببيكاء الدمن الدوارس وتحيتها فيقول :

قف بالديار الدارسات وحيها واقرا السلام على جآذر حيها
وانشد هنالك للمتمم مهجة فنيت من الأهواء في عذريها

ثم يعدو ذلك إلى التشبيب بالمرأة وذكر محاسنها فيقول :

رشأ إذا أبدى ابتسامة شائق أجرى المدامع من عيون عصيها
شغل القلوب بحبه ولطالما فتكت ضعاف لحاظه بقويها
من لي بلثم مقبل من شادن عذب الثنايا الواضحات شهيا

إلى أن يصل إلى غرضه الأصلي وهو المديح فيقول :

كأفاضل «الفيحاء» حيث تفاخرت بسريرها الجحجاح وابن سريها
السيد السند الهمام محمد فرع النبوة وابن خير وصيها

فهذى إحدى قصائده التقليدية المعدودة ، وفيما عدا ذلك فسائر قصائده ومقطعاته تجمعها وحدة الغرض فى قوة أسر وجميل أداء .

٣

وللرصاص فى معانيه البكر التى يزدان بها ديوانه ، والتى تعدثروة للعربية الخالدة ولا سيما فى هذه النفثات السياسية التى أرسلها ، والاجتماعيات التى برع فيها براعة منقطعة النظير .

فمن أجل معانيه وأكثرها جدة وطرافة ، ما عطل به استمرار الشرقيين الاستعباد وقعودهم على الضيم من أنهم نشئوا فى حجور نساء استعبدوهن وهو من معانيه المبتكرة :

ألم ترهم أمسوا عبيدا لأنهم على الذل شبوا فى حجور إماء ؟
وهان عليهم حين هانت نساؤهم تحمل جور الساسة الغرباء
ومن تشبيهاته الرائعة تشبيه السها وهو نجم خفى تمتحن الأبصار برؤيته
بأديب ثوى بأرض العراق «يريد نفسه» والثريا بقفاز مزين بأحجار الماس
كأن نجم السها أديب فى أرض بغداد ذو ثواء
كأن خط الشهاب مدل لأسفل البئر بالرشاء
كأنما أنجم الثريا فى شكلها الباهر الضياء
قفاز كف به فصوص من حجر الماس ذى الصفاء
ومنها ما أجرى فيه المعنويات مجرى المحسسات ، فجعل الظن يشرب ، والحدس
يؤكل وما روى الشارب ، ولا شبع الآكل :

لقد طغت حيرة أهل النهى هل فىك يا علم لها مردع ؟
كم نشرب الظن فلا نرتوى ونأكل الحدس فلا نشبع
ومنها فى وصف اليتيم الصغير وأمه تسليه بالبكاء ، ويألهامن تعلقة يعرفها المحدثون
بكى حولها جوعاً فغذته بالبكاء وليس البكا إلا تعلقة معدم
وفى وصف ظلمات السجن ، وما عراه من الإهمال ، مما يدعو المرء إلى

إيثار الموت على الحياة » فيجعل نزع روحه قيئاً :

هناك يود المرء لوقاء نفسه وأطلقها من أسر عيش منكده
وتشبيهه الأحياء بالسفر ليس لهم من زاد ولا راحلة سوى العلم الذى
يوصلهم إلى غايتهم انى أزمعوا إليها الرحيل فى مفازة الحياة .

نحن سفر وما الرواحل والزاد سوى العلم والحياة مفازة
وقوله يجعل عقول الناظرين إلى وجوه الحسان غارقة فى ماء الشببية
خود جرى ماء الشببية فوقها ففيه عقول الناظرين من الغرقى
وتشبيهه دجلة والفرات بسطرين من الدمع قد سالا على خدى العراق
حزنا على أستاذه محمود شكرى الألوسى .

أما العراق فأسمى الرافدان به سطرين للدمع فى خديه قد سالا
وحسبنا هذا القدر للتمثيل فإن للرصافى قصائد تفيض بمعانيه المخترعة التى
لم يسبق إليها .

٤

والرصافى من يجيد القصص الشعرى غاية الإجادة ، وله فى سائر أغراضه
قصائد ينحو فيها منحى القصاص ، ولا تلمح فى إحداها أثراً للتكلف ، على أن
شعره القصصى ليس من هذا النوع بمفهومه عند الأوربيين من أنه يذكّر
حياة الأبطال ، ويذكر العصور ، وما يسودها من آراء وأفكار ومعتقدات ،
كالذى نراه فى ملحمة هوميروس « الإلياذة » وغيرها مما خلفه اليونان فى
أديبهم ، والحق يقال إن الشعر العربى فى سائر عصوره ليس فيه شعر قصصى
بهذا المعنى ، وإنما فيه الصورة القصصية الخيالية التى يؤلف الشاعر بين أجزاءها
ويسرد ما كان من قول وفعل ومحاوره تخيلها ، ومن قصائده القصصية « اليتيم
فى العيد » و « المطلق » و « الفقر والسقام » و « رؤياى الصادقة » و « أم اليتيم »
وغیرها من القصائد .

وقد تراه يحاكي عمر بن أبى ربيعة وامراً القيس فى شعرهما القصصى فى

تتبع المرأة ووصفها ؛ والتحدث إليها كما تجد ذلك في صفحة (١٨) من ديوانه إذ يقول .

ويبضة خدر إن دعت نازح الهوى أجاب ألا ليك يا بيبضة الخدر
إلى أن يقول :

مررن وقد أقصرت خطوى تأدياً وأجمعت أمرى في محافظة الصبر
فطأ طأن للتسليم منهن أرؤسا عليها أكليل ضفرن من الشعر
فألقيت كفى فوق صدرى مسلماً وأطرقت نحو الأرض منحى الظهر
وأرسلت قلبى خلفهن مشيعاً فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدرى

٥

على أن هناك ظاهرة لا يسعنا السكوت عنها ، ذلك أن ولوع الرصافي بالقراءة في كتب العربية على اختلاف مباحثها قد أدى به إلى أن يتأثر بما قرأ من شعر الأقدمين تأثراً ظاهراً تلمحه في مواضع متفرقة من بعض قصائده ، وما كان أغناه عن هذا التتبع ، وذاك التقليد الظاهر .

وما يقال في الرصافي في هذا هو ما يقال في غيره من الشعراء الذين اتفق لهم ما اتفق لغيرهم من الأفكار والمعاني ، من توارد الخواطر ، أو أو تشبع اللاحق بما قرأ للسابق فجرى على لسانه ، يحسبه لنفسه ، مدفوعاً بعامل الإعجاب ، وما هو لنفسه ، وهذا الذى نشير إليه الآن من الكثرة في الشعر العربى بدرجة لا يستطاع معها جحوده ، فلقد وقع لأساطين شعراء العربية ، كما وقع لمن هم دونهم قدرة على الإبداع والابتكار ، حتى أفرد له علماء العربية أبواباً خاصة ، بل كتباً خاصة ، وهم في ذلك بين منتحل عذرا للشاعر ومتهما إياه بالسرقة والسطو على آثار غيره ، وقد ذكروا ذلك ومثلوا له ، وجعلوه أنواعاً ، سموها أسماء مختلفة ، فارجع إليها في الكتب المفصلة ^(١) .

(١) من ذلك باب السرقات الشعرية في صفحة (٣١٠) وما بعدها من كتاب المثل السائر لابن الأثير ، و صفحة (٤٤٧) وما بعدها من شروح التلخيص (ج ٤ مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٣ هـ) .

وسنورد لك أمثلة مما ظهر فيه تأثر الرصافي بشعر غيره .

١ — قال من قصيدته التي عنوانها (نحن على منطاد) :

لا تلني إذا جزعت فاني ماملكت الخيار في إيجادى
وهو في هذا يردد مذهب الذي يقولون بالجبر ، وبشير إلى قول أبي العلاء
هذا جناء أبي علي وما جنيت على أحد
٢ — وقوله : صاح ما دل في الأمور على الأشكال إلا تفحص الأضداد
فاعتبر بالسفيه تمس حليما وتعرف بالغى طرق الرشاد
من قول أبي العلاء أيضا .

والشيء لا يكتر مداحه إلا إذا قيس إلى ضده
لولا نضى نجمد وقلامه لم يثن بالطيب على رنده
٣ — وقوله : أيها الغر لا تغرك دنيا ك يكون مصيره لفساد
من قوله : واللبيب العاقل من ليس يفت ر يكون مصيره لفساد
٤ — وقوله : لا أحب النسيم إلا إذا هب على كل حاضر أو باد
من قوله : فلا هطلت على ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا
٥ — وقوله : واقفا تحت سرحة ناح فيها طائر فوق غصنها المياد
من قوله : أبكت تلکم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد؟
٦ — وكذلك قوله : قد يحسب الإنسان آماله والموت مصغ نحوه يسمع
من قوله : ورب ظمآن إلى مورد والموت لو يعلم في ورده
مع إجادة الرصافي في الصورة الحسية التي رسمها ببراعة في الشطر الثاني
٧ — وقول الرصافي في قصيدته (الأرض) .

كم على الأرض رفات باليات من جسوم طحنتها الدائرات
فاحتفر في الأرض تلك الطبقات تجد الانقراض فيها ربما
هي للأحياء أو للشجر
كل وجه الأرض للخلق قبور خفف الوطء على تلك الصدور

والعيون النجل منهم والشغور إنما أنت مستغنى مثليما
قد فنوا والموت دأى الظفر

من قول فيلسوف المعرفة :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض ض إلا من هذه الأجساد
وقيح بنا وإن قدم العبد دهوان الآباء والأجداد
وهذه الآيات كما ترى تابع فيها أبا العلاء المعري ، ولقد عرفت أنه كان
به ولوعا كما قدمنا .

٨ — وقول الرصافي :

فشر العالمين ذوو خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسبا جديدا
تراه إذا ادعى في الناس نفرا تقيم له مكارمه الشهودا
من قول الشاعر :

وإذا افتخرت بأعظم مقبورة فالناس بين مكذب ومصدق
فأقم لنفسك بانتسابك شاهدا بيناء مجد للقديم محقق

٩ — وقوله أيضا من القصيدة نفسها :

فدعنى والفخار بمجد قوم مضى الزمن القديم بهم حميدا
قد ابتسمت وجوه الدهر بيضا لهم ورأيننا فعبسن سودا
وقد عهدوا لنا بتراث ملك أضعنا فى رعايته العهدا
من قول الشاعر .

ورثنا المجد عن آباء صدق أسأنا فى ديارهم الصنيعا
إذا الحسب الرفيع تداولته بناء السوء أو شك أن يضيعا

١٠ — وقول الرصافي :

هل وأنا إلا من أولئك إن مشوا مشيت وإن يقعد أولئك أقعد ؟
من قول دريد بن الصمة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد ؟

١١ - وقوله : متى قيد مجروراً إلى الضيم ينقد !

من قول طرفه : ومن يك في حيل المنية ينقد !

١٢ - وقوله :

أرى العمر مهما ازدا يزداد نقصه إذا نحن في نقص من العمر دأثم
من قوله :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينقد

١٣ - وقول الرصافي :

تقدمنا قوم فأبعد شوطهم وقد كان عنا شوطهم غير مبعد
من قول الطغرائي :

تقدمتني أناس كان شوطهم وراء خطوى لو أمشي على مهل
مع ما تجد من القوة في بيت الطغرائي .

١٤ - وقوله في قصيدة « الدهر والحقيقة » :

وكم عاقل قد عده الناس أحقاً وما هو لو يبلى سوى متحامق
من قول الشاعر :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً تجاهلت حتى ظن أني جاهل

١٥ - وقوله :

فأخوك من إن غاب عندك رعي ودادك في غيابه
من قول الشاعر :

وليس أخي من ودني بلسانه ولكن أخي من ودني وهو غائب

١٦ - وقول الرصافي :

تعودت تصرّحي بكل حقيقة وللرء من دنياه ما يتعود
من قول أبي الطيب :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الفتك بالعدا

١٧ — وقوله :

وإن مياه الأرض تعذب ما جرت ويفسدها فوق الصعيد ركودها
من قول القائل :

إني رأيت وقوف الماء يفسده فإن جرى طاب أو لم يجر لم يطب
١٨ — وقوله يصف بلى ملابسه :

غدت شفاذة حتى كأني لبست بهن أثواب الرباء
من قول التهامي :

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا التحفت به فإنك عار
١٩ — وقوله :

وما الناس إلا خادع أدرك المني وآخر مخدوع طسا غير مدرك
من قول عمران بن حطان : والناس من بين مخدوع وخداع
٢١ — وقول الرصافي :

قد يقبح الشيء وضعا وهو من حسن كالنعش يدهش مرأى وهو من خشب
فالقبح كالحسن في حكم النهي عرض وليس يثبت إلا عند معتبر
قريب من قول ابن الرومي :

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن تدم فقل خرم الزناير
مدحا وذا، وما جاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور

وحسبنا هذه الأمثلة لنبدل على مدى تأثر الشاعر بقراءته وإطلاعه، وولوعه بطول النفس في القصائد التي اقتبسنا منها هذه الآيات ، ولقد رأيت بنفسك أيها القارئ الكريم أن الرصافي قد تجاوز نقل المعنى ، وذلك ما وقع فيه غيره من الشعراء إلى نقل اللفظ نفسه ، مما يجعل الأخذ شيئا ثابتاً لا يقبل الشك ولا التأويل .

وقد يعجب الرصافي معنى من المعاني، فيذكره في أكثر من موضع كما راقه

تشبيهه دجلة والفرات بسطرين من الدموع في رثاء الألوسي حين قال :
 أما العراق فأسمى الرافدان به سطرين للدمع في خديه قد سالا
 فكرر هذا المعنى مع تحوير يسير في قصيدته « ميتة البطل الأكبر » وهي
 التي رثى بها المرحوم عبد المحسن السعدون ، فقال في منظر الرافدين :

خلت العراقين خدى ثا كل وهما سطران للدمع في الخدين قد سطرا
 كما أعجبه إضمار الحسو في الارتغاء فذكره في قصيدته « حقيقتي السلبية » :
 أحب صراحتي فولا وفعلا وأكره أن أميل إلى الرياء
 فما خادعت من أحد بأمر ولا أضمرت حسوا في ارتغاء
 ومدح به السعدون في قصيدته « إلى غرة آل السعدون » فقال :

صريح في مقاصده إذا ما أسر القوم حسوا في ارتغاء
 وقد عرض لتشبيهه الناس الحياة بالليل ، والقبر بمطلع الفجر ، وتقاؤله بأن
 تعرج روحه ، لتتخذ لها مكانا بين الأنجم الزهر ، فقال في قصيدته « خواطر شاعر »
 وقد قال بعض القوم إن حياتنا كليل وإن الفجر مطلقه القبر
 فإن كان هذا القول فيها حقيقة فيأشد ما قد شاقني ذلك الفجر
 وروح الفتى بعد الردى إن يكن لها بقاء وحس فالحياة هي الخسر
 وإن رقيت نحو السماء فخبذا إذا أصبحت مأوى لها الأنجم الزهر
 ويكرر المعنى نفسه في قصيدته « ما وراء القبر » وبينها وبين السابقة
 قصيدة واحدة تفصل بينهما :

لعل حياة المرء ليل ستنجلي غياهبه من سكرة الموت بالفجر
 فإن كان ذا حقا فإن حياتنا كما قيل ستر ، والردى كاشف للستر
 وقد قيل إن الروح تبقى فهل لها عروج إلى الأعلى إلى الأنجم الزهر ؟
 وقد يذكر بيتا واحدا بحروفه أكثر من مرة في قصيدة واحدة كما في قصيدته
 « اليتيم في العيد » إذ ذكر البيت الآتي مرتين :

ألا ليت يوم العيد لا كان إنه يجدد للحزون حزنا فيجزع

الألفاظ والأصايب

١

ولقد تثقف معروف ثقافة عربية خالصة عرفتها فيما سبق فأحاط بها إحاطة من ملك زمامها ، واستولى على قيادها ، عرف نحوها ، وحفظ غريبها الذى أصبح حجة فيه ، وزاد هذه المعرفة رسوخا فى ذهنه قيامه بتدريس هذه اللغة وآدابها فى أعلى معاهد العراق وتركيا وفلسطين .

وكان الرصافى يقول :

« كنت أدرس العربية على أستاذى المرحوم محمود شكرى الألوسى وأنا إذ ذاك دون العشرين حتى حفظت ألفية ابن مالك وقرأت لها عدة شروح ، وكنت مولعا بحفظ الشواهد التى يوردها النحويون فى كتبهم ، وكنت إذا مربى فى أثناء الدرس يبت من الشعر راجعت فيه الشروح والحواشى ، فعلمت من قائله ، وماذا بعده أوقبله ، من الأبيات فحفظتها ، وكنت قوى الحافظة ، حتى حفظت شيئا كثيرا من هذا القبيل ، بحيث أن أستاذى كان يلقبني بالشواهدى وكنت أشعر بميل شديد فى نفسى إلى الشعر لشدة تأثيره فى . . . » (١)

ونحن نعرف أن شعر الشواهد مأخوذ من شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين الذى يمتاز بفخامة الأسلوب ، وجزالة اللفظ ، ورصافته ، وعلى هذا اللون من الشعر ربى الرصافى ملكته ، فصاغ لنا هذا القريض الذى يعد فى الذروة من الشعر العربى الأصيل .

ولسكن الرصافى مع هذه القدرة الفائقة له هذا الشعر العذب السلس ، الذى تفجر من ينابيع الشاعرية ، التى لا ينضب معينها ، ولا يقف تيارها عن السيولة

(١) ص ٦—١٧ من الجزء الأول من السنة الثانية من مجلة الحرية الصادرة

فى أول تموز سنة ١٩٢٥ م .

والانحدار في دعة لا تحس معها لوعة ، وهو يخاطب قلبك ، ويحدث مشاعرك دون الإغراب الذي يلجأ إليه المتفقهون المتقرون . وليس ذلك لضعف في ملكته أولين في مقدرته ، وهو الذي هام أول ما هام بشواهد النحو فراض جاحها ، وذل شاردها ، ولكنه فعل ذلك فراراً من مظنة التصنع ، وجنوحاً عن صنعة التكلف ، التي لا تليق بأمثاله من الذين يتحدثون للناس بآلام قومهم وآمالهم في إيضاح وبيان ، أو بعبارة أخرى بلغة العصر الذي كانت السرعة من أبرز مظاهره ، وكذلك سرعة الإفهام يجب أن تكون من أبرز خصائص المفهم وهو القائل :

وجردت شعري من ثياب ريائه فلم أكسه إلا معانيه الغرا
وأرسلته نظماً يروق انسجامه فيحسبه المصنعي لإنشاده نثراً
وكما امتلأ ديوانه بما يمثل الناحية الأولى ، وماتراه في شواهدنا التي اخترناها ومثلنا بها لأغراضه الشعرية ، فكذلك حوى طائفة من الشعر العذب السلس الذي يحسبه المصنعي لإنشاده نثراً كما يقول الرصافي .

وقد يبالي الرصافي في مجازاة لغة شعره لطبيعة العصر الذي عاش فيه فيجعل البيان والإفصاح أسماً مقاصده ، حتى لقد ينبو عن الرصانة والجزالة إلى النقيض فتراه في بعض الأحيان يرق ويلين ، حتى ليكاد ينحدر إلى لغة العامة كما تجد ذلك في قوله في مطلع قصيدته « نقش على ماء » إذ يقول :

أرى عيشنا تأبى المنون امتداده كأننا على كيس المنون نعيش
فتعبيره « كأننا على كيس المنون نعيش » مع كونه يدل على معنى بارع إلا أنه تعبیر عامي كما ترى . وكذلك قوله في « المرأة المسلبة » :

فهذه حالة نسواننا وهي لعمري حالة مؤلمة
ما هكذا يا قوم ما هكذا يأمرنا الإسلام في المسلبة
وكذلك قوله : من قصيدة رثى بها الشيخ مهدي الخالعي من كبار علماء العراق في الكاظمية

أنا أبكى عليه من جهة العالم وأغضى عن خوضه في السياسة
قد أبت هذه السياسة إلا أن تكون الغشاشة الدساسة
ما تعاطى غير الخداع (غلاستون) فيها كلا ولا (دلکاسه)
لو أردنا إفاضة في هجاءها لكتبنا لكم بها كراسه
وكذلك قوله :

قد بكته مدارس عامرات هو فيها المدرس المسؤول
إنما قد ذكرت بعض مزايا ه وإلا فشرحهم يطول

٣

وقد ترى الرصافي في بعض قصائده ينحدر إلى مادون لغة العامة إلى ألفاظ
مبتذلة ، ليس فيها هذا الانتقاء المعروف عنه ، فلا يعف حين يثور بنفسه دافع
الحقد على من هجاه ، أن يرميه بأقبح الألفاظ وأفحشها ، يفعل هذا بمن سخط
عليهم من الأفراد والأمم كما رأيت في قصيدته « ليلة نابغة » التي أسف فيها
وهجا بأقذع الهجاء ، ولم يكن لهذا الإفراط سبب سوى الحقد على من نقده
من أهل الشام ، ويعنينا هنا ما استعمله من ألفاظ جارحة ، وعبارات نابية .
وتجد مثل ذلك بل أفحش منه في قصيدته « أنشودة الحرب » حيث يخاطب
أهل الصرب والبلغار الخارجين على الدولة العثمانية ، حيث ينزل إلى الشتم المقذع
الذي يعف عنه ذوو الذوق السليم ، وإنما جره إلى ذلك ما جره إلى ذم أهل
الشام ، من الحقد على من ينشدون خلع الربة التركية من أعناقهم . استمع إليه

يا علوج الصرب والبلغار أولاد الزواني
لم يكن إبعادكم بال حرب غير الهذيان
إنما الحرب لدينا من تمام الحيوان
فاتركوا الإبعاد يا أب نام حمراء العجان
وتزيوا يا مخانيث بأزياء الغواني

إنما أتم تيوس أولعت بالنزوان

والرصافي الذي يمتك التكلف أشد المقت ، لا يعنى في شعره أية عناية بالبديعيات ، سواء منه ما قرضه أوائل هذا القرن العشرين ، وما قرضه في سائر أيام عمره ، وهذه مزية جديدة بالتقدير إذا عرفنا أن الشعراء في أوائل هذه النهضة كانوا يحرون في السبيل التي جرى عليها شعراء الفترة المظلمة ، من العناية البارزة باستخدام محسنات البديع ، والتفنن في ذلك ، ليغطوا بذلك عجزهم عن الأخيلة السامية ، والمعاني الجليلة لخلو كائناتهم منها ، ولسكن الرصافي وهو الشاعر المطبوع يدعو المعنى فينقاد له ، فأغنائه ذلك عن التعثر الذي نلحظه في شعر غيره من شعراء الفترة الماضية .

على أنك رغم ذلك الحكم ، واجد له شيئاً قليلاً من ذلك ، وعندنا أنه لا بأس على الشاعر من استخدام محسنات البديع ما دام قد برىء من مظهره التكلف ، وسلم من التعسف الذي يشوه المعاني ، أو يستر ما فيها من ضعف ورخاوة ، ولأن الذي وقع للرصافي من البديعيات زاد معانية بهاء ، وأساليبه إشراقاً ، لا أثر فيه لما ينفر من الصنعة المستكرهة وهو القائل :

لست بالشاعر الذي يرسل اللفظ جزافاً لكي يصيب جناسه

أنا لا أبتغي من الشعر إلا ما جرى في سهولة وسلاسه

إنما غايتي من الشعر معنى واضح يأمن اللبيب التباسه

ونحن حين نعرض عليك شيئاً من بديعياته ، فليس يساورنا شك في أنك لن تأخذ على الرصافي مأخذاً ، مادام قد اكتمل له ما ذكرنا من قوة الأسلوب وفخامة المعنى ، وهو ما اشترطه البلاغيون فن ذلك مطلع قصيدة التي مدح بها « القزويني » سرى الحلة المعروف :

قف بالديار الدارسات وحيا . واقرا السلام على جآذر حيا

فقد جانس الشاعر بين « حيا » وهو أمر بالتحية ، و « حيا » البطن من

القبيلة . وقوله في العفو عمن اعتدى عليه :

ولو شئت أتبعته الخديعة خلفه تطارده حتى تضيق مذاهبه
ولكن أبى منى الخداع مذهب تعود فعل الخير مذ طرشاربه
فقد جرد من نفسه مذهباً تعود فعل الخير أى أنه بلغ من ذلك مبلغاً صحيح
معه أن ينتزع منه آخر مثله فى تلك الصفات . وهذا هو التجريد المعروف فى
علم البديع . وقوله :

يقينى شر فريتكم يقينى بأن الله مطلع رقيب
جانس فيه بين (يقينى) وهى فعل من الوقاية و (ويقينى) وهو اسم معناه
الاعتقاد . وقوله فى وصف الراقصة :

فهى إن أقبلت رأيت ابتساماً وهى إن أدبرت رأيت قطوباً
فيه هذه المقابلة البديعة بين الإقبال والإدبار ، والابتسام والقطوب ، كما أنه
أحياناً يؤرخ الحوادث بالشعر ، كما ترى ذلك فى آخر أبياته فى رثاء الشيخ قاسم
مدرس جامع النعمانية حيث يقول :

ولما مضى للخلد قلت مؤرخاً لقد بات فى أعلى الفراديس قاسم

١٣٢٥

٥

وفى قوافى الرصافى امتداد وسعة ، وله قدرة ظاهرة على قياد الكلام الذى
لا يكاد القارئ يرى أنه يستنزل قسراً ، أو يتطلبه من بعد ، وإنما هو انشال وتدفق
فى اطراد وجزالة ، حتى ليكاد يمثل قول أبى تمام فى تغاير القوافى ، حين يسهرها
ويتطلبها فى بيته المعروف :

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل

وقد يتوهم القارئ أن ذلك فى ناحية من الهجاء دون ناحية ولكنه فى
كثير من الأحيان يحمل قوافيه على أحرف نادرة لا يكاد يسلس قيادها
للشعراء كالنون والزأى مثلاً .

ويظن أنه قد يستهلك ديباجه كلامه بهذا النمط من الاستجداء والتعمل
ولكنه يجدد ما .. وآنح كاسية حالية من الخفة والرشاقة . ولا يحمل ذلك إلا على

ما كان يوصف به الشاعر من ثقب الطبع وغزاره الإحاطة بأوابد اللغة ،
وتمام الحذق بحسن التأتى للألفاظ التى تأتلق بها القافية ، وتنسق معها خواطر
الشعر المنفسح .

وليس من العسير عليك أن ترى تلك الحقائق فى ديوان الرصافى وحسبك
من ذلك أن تقرأ قصيدة « تموز والحرية » و « سوء المنقلب » و « إلى أبناء
الوطن » و « اليتيم فى العيد » و « السجن فى بغداد » و « أم اليتيم » . . .
فهذه كلها شواهد ناطقة على تبرز الشاعر فى هذه الناحية ، وقدرته على
إطالة القافية ، وطول النفس .

ومع أن الإطالة مظنة الضعف ، وفى مداها يظهر كلال الحد ، لكن ذلك
قلما يوجد مع المبرزين ، من جهابذة البيان وفحول الكلام .

آثار الرصافى

ترك الرصافى آثارا كثيرة ، تدل على خصوبة ذهنه ، وسعة اطلاعه ، وكنا
نرجو أن نتاح لنا فرصة الكتابة التفصيلية عن هذه الآثار ، ولكن الوقت
وحده هو الذى أجبنا إلى الإشارة إلى هذه الآثار إلى أن يتاح لنا تحقيق
رغبتنا إن شاء الله :

١ — ديوان الرصافى : طبع جزء منه فى بيروت سنة ١٩١٠ فيه مجموعة
شعره إلى هذه السنة ، تم طبع طبعة أخرى سنة ١٩٣٢ فجاء ديوانا ضخما فى
٥١٤ صفحة غير ما لم ينشر من شعره .

٢ — نفح الطيب فى الخطابة والخطيب . طبع سنة ١٩١٥ ، وهو مجموعة
محاضراته التى ألقاها على طلبة مدرسة الواعظين فى القسطنطينية .

٣ — دروس فى آداب اللغة العربية : طبع سنة سنة ١٩٢٨ الجزء الأول
منه ، وفيه محاضراته التى ألقاها على طلابه فى دار المعلمين العالية فى بغداد .

- ٤ — رسائل التعليقات : طبع في بغداد سنة ١٩٤٤ ، وقد تناول فيه مسائل دينية أحدثت دويما في العراق والعالم الإسلامي .
- ٥ — على باب سجن أبي العلاء : طبعته دار الحكمة في بغداد سنة ١٩٤٦
- ٦ — الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس - لم ينشر .
- ٧ — مجموعة الأناشيد المدرسية . طبع سنة ١٩٢٠
- ٨ — نحو اللغة العامية العراقية .
- ٩ — رواية (الرؤيا) . ترجمها عن (ناسق كمال) الشاعر التركي ، طبعت في بغداد سنة ١٩٠٩
- ١٠ — دفع الهجنة في ارتضاح اللسكنة . طبع في الأستانة سنة ١٢٣١ وقد عرض فيه لكثير من الألفاظ التركية وإرجاعها إلى أصلها العربي .
- ١١ — محاضرات الأدب العربي . التي ألقاها على معلمي المدارس في بغداد طبع في بغداد سنة ١٩٢٢
- ١٢ — كتاب الآلة والأداة . في أسماء الآلات والأدوات التي يستعملها الإنسان ، وفيه مقدمة في التعريب والاشتقاق .
- ١٣ — آراء في أبي العلاء . أعلنت دار المسكشوف في بيروت أنها ستقوم بطبعه .
- ١٤ — في عالم الذباب : في الرد على كتاب أصدره الدكتور فائق شاكر بهذا الاسم . طبع في بغداد سنة ١٩٤٥

الخاتمة

لعلنا بهذا القدر من الدراسة الذى اتسع له وقتنا نكون قد وفينا الرصافى ما يستحق من دراسة هو بها جدير ، فالرصافى الذى خدم هذه الأمة العربية بشعره أكثر من نصف القرن ، وشهد الأحداث التى نزلت بها ، وأشاد بعظمتها وعمل على رفع لوائها ، واستعادة مجدها ، خليق بأن تشرع الأقلام لدراسته وأن تشجذ لعلاج نواحي عبقريته : ليكون من وراء ذلك توجيه للمتأدبين الذين يقتضيهنم الوطن أن يكونوا من خدامه ، فيهنم الخلود وهو أسمى جزاء للعاملين الأوفياء .

وإخالنا مقصرين حين نهب ما منحنا من قوة للسابقين من أدباء العربية ونضفى على معاصرنا سدول التناسى والإهمال ، ومن هؤلاء من لا يقل خطراً عن الغارين حسن أداء ، وفصاحة أسلوب ، ونخامة معنى ، ومن يفوقهم إحساساً بما تكابد أهمهم فى حياتها السياسية والاجتماعية .

لقد انقضى عهد التسكيب والزلفى بالمدائح والمراثى ، وأصبح الأدباء فى عصرنا أصحاب رسالة يذيعونها ، ومبدأ يعملون لتحقيق أهدافه ، ولهذا السبب أكبرهم الناس وأقبلوا على آثارهم يجدون فيها رياء لظمنهم ، وغذاء لأرواحهم وأقبل النشأ فى هذه البلاد على القراءة إقبالاً منقطع النظير هذه الأيام وهذا مما يجعل التبعة على عاتق الأدباء والمفكرين والقادة شاقة ، إذ يقتضيهنم هذا استصفاء الموارد ، التى يردها الآخذون عنهم والذين يتطاعون إلى من يحلونهم من منزلة رفيعة وتقدير كريم .

وليس هذا البحث — رغم ما كفى من جهد — سوى لبنة أضعها فى هذا البناء الذى آمل أن يتكاتف أولوالغيرة ، من ذوى المواهب على إعلاء صرحه ، وهم قد فعلوا ، فنبهوا الناس إلى ما يحوى الأدب العربى من كنوز فى سائر عصوره

ولكن جهدهم في الإشادة بأدبنا المعاصر لم تبلغ بعض مافعلوا للأدب القديم ولقد أقمت في العراق سنوات ، هي أطيب ماعبر من أيام حياتي ، ولقيت في هذا البلد العربي الكريم خير مايجد راحل عن وطنه ، وناء عن أهله وولده جئت إليه لأعلم وأفيد شباب هذا البلد بما يظنون أن في مقدوري ومقدور غيري من أبناء السكينة أن يفيدهم إياه ، فوجدت رجالا يقدرون من يتقرب إليهم بالعمل والجد ، فكان هذا خير حافز لي على بذل ما استطعت من جهد في خدمتهم ، وأقبلت على التزود بما يعينني على تحقيق هذه الغاية من منحوني ثقتهم .

فإذا جهدت في تأليف كتاب عن العراق في شاعره الأكبر معروف الرصافي ، وذكرت القوم الذين عاش بينهم هذا الأديب النابه ، فإن مرد ذلك كله لهذا العامل الكريم .

إن الرصافي في الصدارة من شعراء الجيل ، وقد يتهم بالغفلة من يذهب إلى أن الناس في هذا البلد كلهم إعجاب بشخص الرصافي الذي أغضب حساده ولم يرض أصدقاءه ، ولكن لا يختلف اثنان في إحلال الرجل منزلته من حيث الشعارية الناضجة الكاملة ومن حيث توقد الذهن ، واستواء ملكة الأدب وخصوبة القريحة وليس لباحث في تطور العقلية العربية في هذه الفترة من الزمن غناء عن شعر الرصافي. الذي هو سجل الأحداث التي اصطدمت والمشاعر التي اضطربت في نفوس العرب في هذا العهد الزاخر بالحوادث والأحداث . ولقد أقبلت على هذا العمل بعيداً عن الهوى منزها عن مظنة التحامل والمجاملة . بل جعلت رائدي الإنصاف في كل كلمة سطرها يراعي ، وأنا أرجع بالقارئ الكريم إلى ما كتبت في صفحة ١٦٧ من هذا الكتاب ليقرأ منهجي في هذا البحث ، وأقرر هنا أنني لم أحد عن هذا المنهج الذي رسمته لنفسى ، فكل مايجد القارئ في هذا الكتاب من رأي في الشاعر ، في شخصه وفي أدبه فإنما هو رأي الذي اهتديت إليه بطول معاناتي للشاعر ، وإدامة التطلع في ديوانه

اللهم إلا ما أخذته من غيري ، وأشرت إلى المأخذ والمأخوذ عنه في موضعه .
وأنا أسأل الله الكريم أن يحنني عجا يصل إلى الزهو بما قدمت ، أو
الاعتقاد بأنه بلغ رتبة من الكمال ليس بعدها غاية ، فما كان هذا دستور الذين
يعملون جاهدين لاستكمال أسباب الكمال ، ولا سيما في الموضوعات العلمية
والأدبية ، التي تهدف إلى خدمة الحق ، وتفتح ذراعيها لكل استدراك له قيمة
وتعني أشد العناية بكل ملاحظة كريمة ، في تحقيق مظنة ، أو تصويب خطأ .

ولئن اعتاد الكتاب والمؤلفون أن يفوا لمن أسدوا إليهم يداً . أو أعانواهم
على ما هم بسبيله من العمل ويرون من هذا الوفاء تسجيل شكرهم لهؤلاء المتفضلين
فإني لأذكر بكل خير معالي العلامة الشيبيني حفظه الله ذخرا للفضل والعلم
والأدب ، الذي لم يكديشعبر رغبتى في نظره الكريم ، في هذا الأثر المتواضع
حتى أسرع إلى الإجابة ، إسراع الأجواد إلى القرى ، فنظر فيه نظرة الفاحص
المدقق ، ولم تخل نظره من إشفاق على هذا الجهد ، فحنني من ألق لا يؤمن فيها
العثار ، وكان في هذا التعطف من معاليه ما أشعرنى بما امتاز به من سجايا
النبيل والإخلاص ، وكانت له في بعض أبواب الكتاب ملاحظات وتعليقات
قبلتها راضياً شاكرآه وسجلتها لما تحوى من فوائد لقارئ الكتاب لا يسعه
الاستغناء عنها .

ثم كانت آية الآيات تفضله بكتابة تصدير الكتاب ، فتفجر قلبه بهذا البحث
المستفيض ، الذي يطالعه القارئ في صدر هذا الكتاب ، فيطالع حقائق
يبسطها المنارس للعصر وأحداثه ، واتجاه أفكار أعلامه وساسته وأدبائه ،
ولا غرو فالشيبيني (حفظه الله) من اجتمعت فيه مزايا كل هؤلاء ومن عرك هذا
العصر الذي عاش فيه الرصافي ، فجاءت كلمته وفيها الحنق والبراعة ، ونفاذ
الرأى ، وصحة القول ، وكانت وحدها جديرة بأن تكون كتاباً جليل الشأن ،
عظيم الخطر ، وما ينبئك مثل خبير .

ثم أستاذنا الجليل محمد هاشم عطية الذي أشر بنا حب الأدب ، وهو من قضى أيام شبابه في التوفر على درسه وتدريسه ، فأجاد وأفاد ، وكانت له هذه المنة الماثورة على متأدي هذا الجيل ، بما يشجعهم به على ارتياد مجاهل الأدب ، وارتشاف العذب النير من سلافته ، وحسبه كتابه في الأدب الجاملي ، الذي لم ينسج على منواله أحد في السابقين ، ولا في المحدثين ، وقد أسعدتني الأيام فجمعت من شتاتنا ما كان يخشى عليه في بلد كريم ، هو العراق ، وفي معهد عظيم هو دار المعلمين العالية فاتصل الود والا كبار والإعجاب

وقد قرأ كتابي هذا فسكانت له المنة تتبعها المنة ، ففضل - جزاه الله ما هو أهل له من الفضل - بكتابة رأيه في الكتاب وفي مؤلفه ، وإني لفخور بثنائه معجب بنقده ، فإذا رضيت مغتبطا ما خلعه على مما جرى به قلبه السباق من المحامد ، فإني جد مسرور بهذه اللفقات السكرية ، التي تنبئ عن النظرة الفاحصة عما في الكتاب ، مما فات القلم تسطيره ، والعقل تذكيره .

ثم أخى الأستاذ أحمد ناجي القيسي ، الذي عناه هذا الكتاب في جملة ما عناه من شغف بالدرس ، وحرص على خدمة الأدب والأدباء ، فأمدني بما استطاع من آثار الرصافي ، وما رأى أنه يأخذ بيدي فيما أنا بسبيله ، فإليه أخلص شكري ، وأطيب ثنائي .

وبعد ، فهذا الكتاب بين يديك أيها القاري الكريم . ولعلك واجد فيه ، ما أملت من خدمة أدبنا المعاصر في نهضتنا ، التي تعتمد أول ما تعتمد على إبراز آثار رجالها ، والإشادة بقادتها ومفكرها ، ولا يزال الشعراء من هؤلاء في الطليعة .

والله حسبنا ونعم الوكيل ، ومنه نستمد العون والمثوبة .

بروي احمد طباط

وكتب في القامرة يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٦

٣ من فبراير (شباط) سنة ١٩٤٧

رأى فى الكتاب

بقلم الأستاذ الجليل محمد هاشم عطية

أستاذ الأدب العربى فى دار المعلمين العالية ببغداد

ترجع الصلة بينى وبين مؤلف هذه الرسالة إلى تلك الأيام البعيدة التى كان فيها طالبا بدار العلوم العالية بمصر ، وكان يومئذ يحمل أساتذته بما يظهره من الاهتمام بنفسه على تفقد ما فيه من الصفات ، التى تجعل من مثله أهلا لما يترشح له من التخرج بنجاح فى صناعة من الصناعات العلمية المختلفة . وكنت من بينهم أجد فى شدة صبره على الدرس ، وطول ملازمته للأستاذ وسيلة صالحة للاعتماد عليه فيما يتناول البحث بين الطلاب من فنون الكلام ، حتى جعلت هذه الأمارات الظاهرة فى السكف بالطلب ، والحرص على التحصيل تقوم من ناحيتها دليلا على استجابة طبيعية لنزعات ثابتة فى نفسه ، كنت أفتاءل لها أنها لا بد يوما أن تبرز آثارها ، وتبوح بأسرارها ، إلى أن انتهى الأستاذ من دراسته العالية ، وكادت الصلة بينى وبينه يعتادها شىء من الفتور ، لولا أنه كان يلقانى بعد ذلك عابرا أو قاصداً ، فتقضى بعض الوقت فى مطارحات وأحاديث ، راجعى فيها دائما إلى شىء من ذكرياته الماضية ، ولم يكن يستطيع فى ذلك الوقت أن يحجب عن عيني بعض ما كنت ألح به من قدرته على إدارة الكلام ، وتوفيقه إلى استتمام كثير من مسائل العلم ، التى جعلتها نتيجة لازمة لما بقى له من الشغف بالاستزادة وحسن الرأى فى تحصيل ما يسنح من الفوائد ، حتى كان من الحظ أن التقينا هنا بالعراق ، واضطرنا الحال إلى الملازمة والعشرة وجالت بنا الأحاديث محاولا ، وتأديت بالاختبار والمشاهدة إلى مبلغ ما انتهى إليه الأستاذ من الاطلاع والدراسة ، مما كنت رجوته له وتوسمته فى نشاطه واجتهاده ، والمجتهد معان . ولأكد أشك فى أن إقامة الأستاذ فى العراق هذه الفترة كانت ذات صلة كبيرة بما صارت إليه مواهبه من التقدم والانسجام

فإنها هي التي ألزمته بمراجعة حياة الدأب والتحصيل ، كما يفعل الأستاذ الذي يحسب لكرامته العلمية حسابها ، فيرى أنه لا بأس عليه أن يعود ثانية طالبا يتزود ويتجدد ، للدفاع عن نفسه والاحتفاظ بمكانته إذا تقاضته الحياة أن يغترب عن أهله ، وأن يمر بمثل هذه الحالة التي يمر فيها نازح إلى قطر شقيق ، يحاول أن يعطى لأهله مثلاً جديداً من الدلالة على ما للبعونات العلمية من الأثر في إبلاغ نهضاتهم الاجتماعية إلى ما يرتجى لها من التقدم والنجاح .

وقد كانت حياته في العراق ذريعة موصلة إلى تنمية ما أسلفته الأيام من دراسات ، وما أولته التجارب من علم ، فإن ذلك هو الوقت الذي يتتبع فيه الإنسان على نفسه ، ويجعل من عقله كميناً على أدبه ، وتظهر فيه قدرة المجتهد على حماية نفسه من خداع المغالطة ، فيكثر من اتهامه لمعلوماته ، وبعده عن تضيق الحزم في ترك التثبت ، واستشارة المراجع وأهل العلم قبل الإقدام على الخطار بالنفس ، والغرة عن منزلة الإقدام ، والناس كلهم عليه رقباء ، يتسقطون منه الهفوات ويتوقعون له الزلل ، وهنا يكون الاكتساب الذاتي ، وتقع الدراسة الشخصية التي لا يتكون الإنسان إلا بمقدار حظه منها ، وهي التي تصيره في النهاية إلى أن يكون قياسه في تحقيق الأشياء ، وعماده في تقدير الأمور ما يرضاه الرأي الثاقب والذوق السليم ، ولقد أعجبني من الأستاذ أن سبق إلى هذه المبادرة الكريمة من الاعتراف بالجميل للعراق المضيايف ، الذي يجبرنا نحن الأساتذة المصريين بما ليس في الوسع تجاهله من الحفاوة المطبقة ، والتكرمة الغزيرة الفائقة وذلك بمعالجته لسيرة شاعر عراقي كالرصافي جدير بأن يكون شاعراً عربياً لا يستأثر به العراق وحده دون مصر وغيرها من البلاد العربية وقد حركني ذلك إلى معرفة الطريقة التي سلكتها هذه الرسالة في البحث والمناهج التي اتخذتها أساساً للدراسة ، فأخذت أتفقد بعض أبوابها ، وأرسم خطوات المؤلف حتى أسلمني التصفح إلى الاعتراف بما أحرزته من التوفيق في تنظيم البحث وتنزيهه من آفات التعصب ، التي يواقعها بعض المؤلفين ، حين يرون أن مجرد

اختيارهم للموضوع من الموضوعات كاف وحده في حسم كل شبهة ، ونفى كل منقصه أو عيب ويفضلونه في الجملة على غيره ، ويتكلفون المؤن الشداد في الدفاع عنه فيظهر بذلك كلالهم وتخلّفهم ، ويبدون للقراء صفحتهم ويخشونهم على توجيه اللائم إليهم ، والانصراف عن مثل هذا النمط السقيم من أساليبهم .

ولسكن المؤلف كان ميزانا عدلا بقدر المستطاع في توزيع تقريظه ونقده ، بين منازل الإحسان والإساءة ، وعلى مواطن الجمال والعيب في حياة الشاعر وأدبه فقد رأيت يطوف حوله ، ثم يقتحم مضاجعه ، ويتدسس في همسات خواطره . ويكشفه في حنينه وتهداره ، وفي بأسائه ونعمائه ، ويلتمسه في الحوانيت ويلاقيه في المجامع ، ويجليه لمن لم يره حتى يجعله كأنه يشاهده بعيانه ، ويتحققه من جثمانه وذلك لشدة ملازمته لجادة الاعتدال والصواب في التحليل والدرس وحذره من الإدلاء بالأحكام قبل استيفاء غايته من الاستدلال . نعم ! قد يجمع به القلم في التنويه أحيانا بشاعرية الشاعر فتدعوه الرغبة في العبارة ، ومحاولة التأنق في الوصف إلى صوغ الجمل ، وترديف النعوت ، من ذكر الإبداع والتفوق والعبقرية وغيرها من الكلمات التي قلما تخلو السكتابات المعاصرة من الالتجاء إليها وخاصة عند ذكر الشعر أو تقدير حياة الشاعر . ولعل من شفعائه في ذلك أنه على الراجح يكون مغلوبا على أمره ، عندما يتعرض لتحرير القول في أدب الشاعر لدى مقام بارز من مقاماته في الإجابة ، وإنما لتحسن الاختيار إذا أسرعنا إلى القارئ بوضع الشاهد من صميم البحث ، وتقديم الدليل من قول المؤلف لنصانع بذلك بين ما نظن أننا أثّرناه بهذه الدعوى من الشغف في نفوس المطالعين ، وبين ما يرغبون فيه دائما من تعليق الدعوى بما يؤيدها من البرهان فنقول : جاء في وصف المؤلف لشاعرية الرصافي قبل الكلام على وصفياته أن قال ما نصه : (ومع هيام الرصافي بمجتمعته تجده كذلك الشاعر العاطفي المبدع ، الذي تعددت نواحي شاعريته ، وتنوعت جوانب إبداعه ، فلم يدع بابا من أبواب الشعر طرقة الأقدمون ، أو عاجله المحدثون ، ولا فئا من فنونه إلا وقد

تصرف فيه وعالجه علاجاً قوياً ، فكانت له هذه الشاعرية المكتملة الناضجة الشاملة ، فمدح وهجا ووصف وتغزل ورثى ورضى وشكا ونفر) . ثم يقول :
(وأهم ما تناوله بالوصف الطبيعة بما فيها من جمال وإبداع . في السماء ونجومها والأرض وجبالها ، فكان ترجمانا لهذه الطبيعة التي وقف حيالها موقف المصور البارع المأخوذ بسحر جمالها فهو أحد أولئك الشعراء الذين ألهمهم السكون فقرءوا فيه سطور الإبداع وصاغوا منها غرر شعرهم . وأنشد له :

قرأت وما غير الطبيعة من سفر صحائف تحوى كل فن من الشعر
أرى غرر الأشعار تبدو نضيدة على صفحات السكون سطر أعلى سطر)
ثم يقول في موضع آخر . (والرصافي كغيره من الشعراء في عصر النهضة الحديثة الذين استهوهم مظاهر المدنية فوصفوها وأبدعوا في وصفها ما استطاعوا)
إلى أن يقول : (ومن آياته في ذلك قصيدته في القطار) ، ثم يقول بعد هذا (وقد أجاد الوصف وأحسن السبك وتدقت شاعريته تدفق المورد الذي لا ينضب وفيه من حلاوة الأسلوب وجودة السبك وروعة التصوير ما يرفعه إلى رتبة الفحول في عصور العربية الزاهرة) .

وكان من حق القارئ أن يحاسب الأستاذ المؤلف على هذه الأحكام الكثيرة التي ينسقها للشاعر في أعقاب أشعاره أوفي مفاتيحها من غير أن ينبج له وجوه الرأي في استنباطها ، كما فعل في غير هذه المواضع ، من تحليل أدب الشاعر ، ولعله استغنى هنا بسياق القصائد وفي نصوصها غنية للبطالع ، وتوجيه لمناط الجمال الذي أجمل المؤلف الإشارة إليه . قد يدركه القارئ بدون احتياج إلى تعقيب أو بحث .

وانظر إليه في موضع آخر حين يتحدث عن الغزل فيقول : (وأما غزل الرصافي ففيه هذا الانساق البديع ، الذي رأيت في وصفياته ، ولسكنك لا تجد فيه أثراً للعاطفة الحادة ، ولا لآلام الحب وتبريح الصباية ، وقد يعلق قلب الرصافي بالمرأة ويهيم بها ولكن هيام مؤقت) ، ثم قال (إنه لا يقصر حبه على واحدة)

وجعله فى تنقله مشبها من بعض الوجوه لعمر بن أبى ربيعة ، ثم يعود فيقول
(وله إلى جانب هذا الهوى المتوزع ، والقلب المتفرق ، غزل مبتذل ووصف
مكشوف ، لا يتورع فيه الرصافي عن ذكر الخفيات وإبداء العورات ، فى غير
تحفظ ولا احتشام مما يأباه العقل الحكيم ويمجه الذوق السليم) . ويقول : (ولعل
فى قصيدته التى سماها « بداعة لاخلاعة » أقصى الاستهتار والتبذل فى الوصف
والكشف فى القصة) قال (وهناك لون آخر من هذا الوصف أو هذا الغزل
جنح إليه الرصافي فيما جنح وعالجه فيما عالج ، ألا وهو الغزل الغلماني الذى
ابتدعه أولئك الموالى فى العصر العباسى بمصاص سبة للأدب العربى ، وجعله
قذى فى عين قارئيه ، لأنه مظهر لانحلال الخلق والانحدار الاجتماعى) ثم ساق
مقطعه فى وصف لعبة « البليارد » وهى قوله .

يدحرجن أغلثة ظراف نسيت بهم مغازلة الإناث
بأيديهم عصى مشرعات مهيأة لضرب واحتشات
فكان إذا انحنى للضرب منهم غلام هاج شوقى وهو جاث

ونرى المؤلف هنا يقف من الشاعر موقفا لا يرفق به فيه ، ولا يلين له
ولسكن يصفه كما وضع نفسه من هذه الخزاة فى شعره فلم يعف عن أخذه
بالكلمة القارصة ، والتحليل اللاذع ، كما قلنا فى أثناء كلمتنا هذه . ولا نحب أن ندع
الكلام أو نختتمه دون أن نحمد للأستاذ المؤلف هذا الجهد الأدبى الموفق
ونقدر له هذا البحث القيم ، الذى لانشك فيما سيلقاه به جماهير القراء من التقدير
والإعجاب ، وإنه لبادرة كريمة نرجو بعدها أن يتابع الأستاذ هذا النشاط
المحمود حتى يبنى للأدب المعاصر ، كما بنت الأوائل ، وفقنا الله جميعا إلى ما نحن
بصدده ، من التوفر على خدمة اللغة والأدب ، والله ولينا ومنه نستمد العون
نطلب المسكافة والسلام .

ثبت الكتاب

١ - تصدير الكتاب :

بقلم حضرة صاحب المعالي السيد محمد رضا الشيباني ۳

٢ — مقدمة :

في الشعر العربي إلى عهد الرصافي ١٧

۲۳ - معروف :

الرصاصي (لقبه) ٢٦

أبواب — أسمرة ٢٧

تعلیم — امتداد —

الرصاص في مملها ٣٥

الى تركيا - التدريس - الصحافة - في مجالس المبعوثان - قصة زواجه ٣٧

في سوريا وفلسطين ٤٠

إلى العراق — في بغداد — في الفلوجة — في الأعظمية — وفاته ٤١

٤ — أخلاقه :

تمشقه للحرية ١٥

وفاتہ — اباضہ ۴۶

إِسْرَافُهُ - هَوَاهُو - تَطَرُّفُهُ ٥٠

۵۔ عقیدتہ :

فلسفة الشك ٥٣

رسائل التعليقات ٥٥

• • • • • مذهب وحدة الوجود • • • • • ٥٦

البعث ٥٩

بينه وبين الناس ٦١

وصية الرضا في ٦٤ و ٦٥

٦ - شعر ٥ :

الأغراض والفنون

١ — في سبيل الوطن

٦٧ في العهد العثماني

في عهد الانتداب - في عهد الحكومة الوطنية - في عهد الاستقلال ٩٨

في سبيل العروبة ١٠٩

٢ - في سبيل المجتمع

١٣٥	العلم
١٣٨	دعوة الى الوحدة
١٣٩	الاخلاق
١٣٤	الاقتصاد
١٣٦	الفقر والفقراء
١٤٥	المرأة

٣ - سائر أغراضه

١٦٠	الوصف : الطبيعة — المخترعات الحديثة — مجالس الانس
١٧٠	الغزل
١٧٣	الفلسفات
١٨٠	المدح
١٨٣	الثناء
١٩٣	الشكوى
١٩٣	المخر
١٩٧	الهجاء

المعاني والأخيلة

٢٩٨	وحدة الموضوع
٣٠٠	التقليد
٣٠٣	المعاني المبتكرة
٣٠٤	القصص الشعري
٣٠٥	المعاني المنزعة

الألفاظ والأساليب

٣١١	ثقافته العربية
٣١٢	الجزالة والسلاسة
٣١٣	لين أسلوبه أحيانا
٣١٤	المحسنات البديعية
٣١٥	القوافي

٣١٦ - آثار الرصافي

٣١٨ - الخاتمة

٣٢٢ - رأى في الكتاب : بقلم الأستاذ الجليل محمد هاشم عطية